المستشرقون ومشكلات الحضارة

دكتورة عفاف صبره
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الدراسات الانسانية ــ فرع البنات
جامعة الأزهر

١٩٨٥

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيع

المستشرقون ومشكلات الحضارة

دكتورة عفاف صبره

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الدراسات الانسانية — فرع البنات
جامعة الأزهر

١٩٨٥

دار النهضة العربية
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

احتلت قضية الاستشراق والمستشرقين ، اهمية خاصة بين قضايا العصر ، تجلت فى اهتمام جميع علماء العالم الاسلامى بها ، محاولين تتبع مسارها ، والتحقق من كل مايكتبه المستشرقون فى مؤلفاتهم ، وما يقدمونه للفكر الانسانى .

ويعتبر الدين الاسلامى والحضارة الاسلامية من أهم الموضوعات التى شغلت أذهان المستشرقين ، والتى بذلوا فيها كثيرا من الجهد والعمل الدائب فى سبيل دراستها ، ومناقشتها وتحليلها .

وقد اختلف المستشرقون الذين كتبوا عن الاسلام فى أهدافهم ودوافعهم ، ووسائلهم وميولهم ، حتى أصبح من المسلم به ، التفاوت والاختلاف فى كل ما الفوه وكتبوه ، وأصبح لزاما على كل فرد مسلم واع أن يهتم بهذه الكتابات ، وأن يخضعها للبحث والدراسة والتمحيص ، حتى يكشف النقاب عن حقيقة الأغراض التى دفعت هؤلاء المستشرقين الى الكتابة عن الاسلام ، ويرفع الشبهات التى يحاولون بها تشويه الاسلام ودس الدسائس والأباطيل عليه .

حقيقة أن الاسلام لايحتاج الى ايضاح ، ونبى الاسلام لايحتاج الى دفاع ، فما كانت الحقائق العليا ، والفضائل السامية بحاجة ابدا الى من يدافع عن وجودها ، ويتحدث عن آثارها ، ويعلن عن فضلها وقدرها ، فذلك من شأنه ان يجور على مقامها ويهون من شأنها بما يوقع فى النفوس من انها فى خفاء يحتاج الى بيان ، وفى وجه تهمة تحتاج الى دفع ودفاع ، ولكن غايتنا أن يعرف للانسان قدره ، وللعقل مكانه ووزنه فى انسانية

الانسان ، وفى اعطائه معنى الانسانية الأمر الذى يدعو كل ذى عقل أن يحرص على عقله حرصه على الحياة ذاتها .

ونظرا لاهمية هذا الموضوع ، فقد رأيت أن يكون لى شرف المساهمة بنصيب فى الكتابة فيه ، محاولة ، قدر جهدى ، أن استوضح كثيرا من النقاط ، وان أرد الشبهات .

واذا كان هذا الموضوع قد تعرض لدراسات مستفيضة ، ولجهود كثيرة من قبل العلماء الاجلاء الذين بذلوا الطاقات فى سبيل الوقوف فى وجه الحاقدين على الاسلام ، عاملين على ايراد الحقائق ، ورد الباطل، كذلك رايت أن اسير على الدرب ، حيث ان المستشرقين لم يوقفوا عن كتاباتهم ، ولم تتغير أهدافهم ومصالحهم ، والحملة على الاسلام ،وحضارة الاسلام مكثفة فى أيامنا هذه — التى سادت فيها الحضارات المادية والفلسفات الالحادية — فما احوجنا فى هذه الظروف الصعبة الى مثل هذه الدراسات من اى وقت مضى .

وقد حاولت ان استعرض فى هذا الموضوع نشأة الاستشراق فى الغرب والأسباب التى جعلت النزعة الى الاستشراق تزداد هناك الى الدرجة التى نراها الآن .

وقد اثبتت هذه الدراسة أن الباعث الدينى كان من أهم البواعث التى دفعت الغرب الى الخوض فى مجال الدراسات الشرقية ، محاولين بذلك التنفيس عن عدائهم للاسلام — هذا العداء الذى يرجع الى قرون مضت منذ أن بزغ نور الاسلام على العالم على يد أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

ظل الصراع بين الشرق والغرب طوال التاريخ الاسلامى صراعا لاهوادة فيه ، فقد ظل السلاح مرفوعا بين الطرفين طوال التاريخ الأموى والعباسى ، بل لعل الدور الذى قامت به بلاد المغرب الاسلامى — سواء فى المغرب أو الأندلس — لا يقل عن غيره بل يزيد .

استمر الصراع بين الطرفين حتى اتخذ صورة حملات صليبية مكثفة قام بها الغرب ضد الشرق ، محاولا تحقيق أهدافه الكبرى وهى القضاء على الاسلام .

واذا كانت الحرب والسلاح هما الوسيلة التى اتخذها الغرب للتعبير عن حقده على الاسلام ، فانهم قد استخدموا سلاحا آخر لا يقل خطورة وهو سلاح الكلمة المكتوبة الموجهة .

لذلك بدا هؤلاء المستشرقون كتاباتهم عن الدين الاسلامى ، وعلومه المختلفة ، وعن نبى الاسلام وحياته محاولين قدر جهدهم ان يشوهوا الصورة الكريمة التى رسمها الله سبحانه وتعالى للاسلام ونبى الاسلام .

واذا كنت قد بينت فى هذه الدراسة اختلاف أغراض المستشرقين ، فاننا لاننسى فى هذا المجال أن نضع الحق فى نصابه ، وأن نذكر أن من هؤلاء فئة محايدة ، جعلت العلم والحقيقة هدفها ، فكتبوا بأمانة علمية مطلقة ، وذكروا الحقيقة مجردة ، فكانوا شاهدا على عظمة الاسلام .

وكان منهجى فى الدراسة اعطاء كل ذى حق حقه، انصاف المنصفين، والرد على الضالين ، عسى أن يحقق مانصبو اليه من أهداف فى هذه الدراسة .

وقد رايت الا أحدد موضوع كتابى بالكلام عن المستشرقين والاسلام ولكن استكمالا للغرض رأيت أن أبين كثيرا من المشاكل الحضارية التى اثرت تأثيرا مباشرا على مجتمعنا الاسلامى بشتى الصور ، سواء فى الأخلاق أو الدين والعقائد أو العادات والتقاليد ؛ مما كان لها أسوأ الأثر على الفرد المسلم .

فقد جعلت دراستى للمشكلات الحضارية تقوم على أساس عرض للمشكلة الحضارية أيا كان نوعها عقائدية أم اقتصادية أم اجتماعية ، ثم أبين ماهيتها ونشأتها ، ثم كيف تسربت الى المجتمعات الاسلامية ، وماهى

الآثار السيئة التى تركتها على المجتمع ، ثم اتعرض لموقف الاسلام من هذه المشكلات حتى نستطيع أن نبين للفرد المسلم الحق من الباطل لتنير له الطريق .

وانني اذ اقدم هذا الكتاب الى القارىء المسلم — أدعو الله جل وعلا أن يوفقنا جميعا للعمل على خدمة الاسلام ، وأن ييسر لنا السير فى الطريق المستقيم ، وأن يكلل أعمالنا بالحق والصواب .

« ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة »

صدق الله العظيم .

المؤلفة

د/ عفاف سيد صبرة

القاهرة / ١٩٧٩ م .

الفَصْلُ الأوَّلُ

التطور التاريخى لنشأة حركة الاستشراق

بداية ظهور حركة الاستشراق فى الغرب

يكون المستشرقون الغربيون بالنسبة للشرق الاسلامى مشكلة ثقافية ودينية كبرى . وهذه حقيقة لابد من الاعتراف بها اعترافا صريحا كامــلا ، ثم مواجهة المشكلة ودراستها دراسة جديدة . وتحديد موقفنا ازاءها تحديدا دقيقـــا .

فالأمر يتصل اتصالا وثيقا بالمحافظة على قيمنا ، وصيانة تراثنـــا من العبث وسوء التصوير ، وربما كان من الخطأ فيما مضى أن نتجاهل وجود المستشرقين وأن نغض الطرف عن نشاطهم ومؤلفاتهم ومؤتمراتهم ، ولكن أفكارهم غثها وثمينها ، صحيحها وسقيمها ، قد تسربت فعلا الى أجـــواء البلاد الاسلامية ، واحتلت عقول الناس فيها ، واكتسبت منهم انصارا ودعاة وناشرين ، ولهذا لم يبق لنا عذر فى الاستمرار فى سياسة التغـــافى والتجاهل السابقة الذكر ، وأصبح من الواجب المحتوم أن ننهض دون توان او تردد لدراسة هذه الحركة دراسة علمية فاحصة ، وأن نبين أهدافها حتى نكون على بينة من كل ما يكتب وما يقال عنا وعن بلادنا ، وعن تاريخنـــا ، فان كان حقا قبلناه ، وان كان باطلا رددناه .

والمستشرقون اصطلاح واسع يشمل طوائف متعددة تعمل فى ميادين الدراسات الشرقية المختلفة ، فهم يدرســـون العلوم والفنـــون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يخص شعوب الشرق مثل الهند وفارس والصين واليابان والعالم العربى وغيرهم من أمم الشرق .

وبادىء ذى بدء لابد أن نلقى نظرة سريعة على تطور العلاقات بين الشرق والغرب أو بمعنى أصح بين المسيحية والاسلام ، ثم نبين الأسباب التى دعت الغرب الى الاقبال على الحضارة الاسلامية ودراستها ، وبيان نوعية الحضارة التى ازدهرت فى بلاد الشرق ، ثم كيفية عبورها الى الغرب الاوربى ، واقبال العالم الغربى عليها ، وانشـــائه للمدارس والجامعات والمراكز الثقافية المختلفة التى اهتمت بعلوم الشرق .

العلاقات بين الشرق والغرب :

يهمنا فى أمر هذه العلاقات العلاقة بين الاسلام والمسيحيه ، وهو م يهم بحثنا . فالمعروف أن الاسلام الذى بزغ نوره فى شبه الجزيرة العربية على يد أشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم صادف معارضة قوية من الديانة المسيحية التى انتشرت فى بلدان الشرق والغرب .

لذلك بدأ الصراع بين الديانتين يأخذ طريقه الى الظهور بعد استقرار الدعوة الاسلامية . فى الدور المدنى . وتأسيس الدولة الاسلامية فى المدينة المنورة . هذه الدولة التى أمرها الله سبحانه وتعالى بنشر الدعوة ليس اقليميا فقط بل عالميا . لذلك بدأت تدق أبواب الدول المجاوره سلما فأرسلت كتبا تدعوهم الى هذا الدين الجديد .

أرسل الرسول كتب الدعوة الى كسرى فارس . وهرقل امبراطور الدولة البيزنطية والنجاشى فى الحبشة والمقوقس عظيم القبط فى مصر والحارث الغسانى . ولما لم تؤت هذه الدعوة ثمارها اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينفذ أمر ربه وان يخرج بدعوته عالميا .

لذلك خرجت القوات الاسلاميه — بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى — الى ملاقاة الدول العظمى فخرجت الجيوش الى الميدانيين الفارسى والرومى فبدأت بالعراق فظلت الدول الفارسية تتساقط حتى انتهى ملك كسرى ، واستولى المسلمون على جميع بلاده وممتلكاته ودانت الأرض لهم .

وفى ميدان الروم سقطت ولايات الشام ، ومصر وشمال افريقيا فى حوزة المسلمين ، فبذلك تضعضع ملك الروم ، وفقدوا أهم ولايات لهم فى الشرق : هذه الولايات التى كانت تعتبر المورد الاقتصادى الهام ؛ حيث كانت تمدهم بالغلال والحبوب، خاصة القمح . كما أن بلاد الشام بالذات تمثل اهمية كبرى عندهم لأن بها كنيسة القيامة المقامة فى القدس ؛ والتى شيدتها القديسة هيلانة ام الامبراطور قنسطنطين الكبير فى القرن الرابع الميلادي ؛ كما كان يوجد بها صليب الصلبوت وهو أهم أثر مسيحى

عندهم فى الشرق . وكان المسيحيون يحجون الى القدس ويزورون كنيسة القيامة . فضياع القدس وتسلم المسلمين لها ، جعلت قضية الصراع بين الاسلام والمسيحية قضية سياسية وعقائدية فلذلك بدأ الصراع يأخذ اشكالا مختلفة بين الجانبين . كل منهما يحاول ان يخضع الآخر لنفوذه .

الصراع بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية :

تجاورت الحدود الاسلامية البيزنطية . بعد انتقال مركز الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة الى دمشق فى عصر الدولة الاموية . فكان لابد من حدوث صدام مستمر بين الجانبين ، فلم تتوقف الحملات التى كان يبعث بها الامويون محاولين اسقاط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، خاصة فى عهد معاوية بن أبى سفيان الذى كثرت فى عهده الشواتى والصوائف التى اعدها لمحاربة البيزنطيين ، كما كثر المرابطون على الثغور الاسلامية ، وتلا عهد معاوية فى الأهمية عصر سليمان بن عبد الملك الذى شهد المحاولة الكبرى لاسقاط القسطنطينية على يد اخيه مسلمة بن عبدالملك ٧١٧ — ٧١٨ م ، ولكن الفشل حاق بهذه الحملة كما حاق بسابقتها نتيجة سوء الأحوال الجوية وعدم تعود المسلمين على العيش فى مثل هذه الظروف الطبيعية ، الى جانب التقدم الحربى البيزنطى واختراعهم للنار الاغريقية التى اتت على سفن المسلمين .

ولم يؤد سقوط الدولة الأموية فى دمشق وانتقال العاصمة الاسلامية الى بغداد الى توقف عمليات الصراع بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية فقد حاول البيزنطيون استغلال الظروف السياسية الموجودة فى الدولة الاسلامية من سقوط الامويين ، واعتلاء العباسيين الخلافة ، فأخذوا يمدون نفوذهم فى آسيا الصغرى وأرمينيا ، ولكن العباسيين وجهوا نظرهم تجاه الدولة البيزنطية ، وبعثوا بحملات كان النصر فيها حليف المسلمين وقد تركزت الحملات فى عهد الخليفة المهدى الذى وصلت الجيوش فى عهده الى حدود القسطنطينية ، وأوقعوا بالجيوش البيزنطية خسائر فادحة قدرها المؤرخون بأربع وخمسين الف قتيل وخمسة آلاف اسير(١) .

---

(1) Finlay «History of The Byzantine Empire» pp. 140—117.

كما برز الصراع بين الدولتين فى عهد هارون الرشيد الذى وصلت حملته الى آسيا الصغرى . واستولت على كثير من الثغور البرية على الحدود بين الدولتين . وكذلك فى عهد المأمون الذى وافته منيته وهو متوجه على رأس حملة الى طرسوس(٢) . وفى عهد المعتصم خرجت حملة كبرى لتأديب البيزنطيين ، وتوجه فى أعماق آسيا الصغرى فاستولى على أنقرة ، وهرقلة(٣) ، مما اضطر الامبراطور البيزنطى توفيلس ٨٢٩ — ٨٤٢ م الى الاستنجاد بملوك أوربا فاستنفاث بدوج البندقية وملك الافرنج وبالامويين فى الاندلس وحقق المعتصم على البيزنطيين نصرا عظيما فى عمورية .

ولم تنقطع المناوشات بين المسلمين والبيزنطيين بعد المعتصم ، بل استمرت الغارات من الجانبين ، واستمر ضغط المسلمين على حدود الدولة البيزنطية متمثلا فى غزوات دورية . وكانت هذه الغزوات عاملا على العناية بالثغور والأربطة حيث كان يرابط المجاهدون فى سبيل الله استعدادا للغزو ولمدافعة الأعـــداء(٤) .

ثم حدثت جولة ثانية فى الصراع مع الدولة البيزنطية فى عهد بنى حمدان امراء حلب ، وذلك منذ منتصف القرن العاشر الميلادى .

وبدأ الخطر الحقيقى يحيق بالدولة البيزنطية على يد السلاجقة الذين أخذ فرع منهم يتوغل فى آسيا الصغرى ويستوطن بها ومن ثم ســـموا بسلاجقة الروم ، وكان من جراء هذا الخطر أن استنجد البيزنطيون بالصليبيين وكان ذلك من اسباب الحروب الصليبية .

ثم ظهر الاتراك العثمانيون على مسرح التاريخ فقضوا على السلاجقة ، واستولوا على القسطنطينية نفسها سنة ١٤٥٣ م ، وبذلك قضى نهـــائيا على الدولة البيزنطية .

---

(٢) ابن الاثير « الكامل » جـ ٦ ص ٧٦ .

(٣) ابن الاثير « الكامل فى التاريخ » جـ ٦ ص ١٥٤ .

(٤) حسن الباشا « دراسات فى تاريخ الدولة العباسية » ص ٩٥ .

الحروب الصليبية :

تعتبر الحروب الصليبية حلقة جديدة فى سلسلة حلقات الصراع العقائدى بين الاسلام والمسيحية .

والحروب الصليبية هى تلك الحملات التى قام بها الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى مستترا بقناع الدين لاسترجاع الاراضى المقدسة وكنيسة القيامة ، راغبا فى الحصول على خيرات الشرق والتحكم فيه ، بل هو محاولة مبكرة للنزعة الاستعمارية .

ويحدد المؤرخون الفترة من ١٠٩٥ — ١٢٩١ م تاريخا للحملات الصليبية ولكن الواقع كما ذكرنا أن الصراع الاسلامى المسيحى كان اقدم من ذلك بكثير . فما ذكرناه من الصراع مع البيزنطيين ومحاولتهم هدم الاسلام فى الشرق ما هو الا حروب صليبية ، وما قام به الفرنجة فى الغرب ضد مسلمى الاندلس خاصة شارل مارتل وشارلمان ، وما صورته انشودة رولان من صراع اسلامى مسيحى ووصف المسلمين بأنهم كفرة ، وسوء تصوير الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . كل ذلك يبين على أن هذه الحروب كانت ذات طابع صليبى ، الى جانب ما قام به بابوات الغرب وحكامه فى القرنين التاسع والعاشر لصد الغارات الاسلامية على شواطىء أوروبا(٥) .

والمهم فى امر الجهود التى بذلها المسيحيون فى حرب المسلمين هو أنها اتسمت بالطابع الدينى ، فدعا اليها رجال الدين ، وتعهدها البابوات برعايتهم مما جعل فكرة الحروب الصليبية تنشأ فى أول أمرها مرتبطة بمبدأ محاربة المسلمين ودفع خطرهم أينما كانوا(٦) .

لذلك فان العلاقة الحربية بين الاسلام والمسيحية طوال هذه الفترة وسعت فجوة العداء بين المسلمين والمسيحيين ، وجعلتهم يعملون ما فى

---

(5) Runciman. A history of the Crusade. Vol I P. 88.

(٦) سعيد عاشور « أوربا العصور الوسطى » ج ١ ص ٤٢٦ .

فى وسعهم لنشر الفكر المسيحى وتشويه سمعة الاسلام والمسلمين فى جميع مؤلفاتهم ، خاصة الكتابات التاريخية .

والدليل على ذلك ان جميع مؤلفات هذه الفترة تصف المسلمين بأنهم « الكفرة » « والسراسنة » وكانت تلصق بهم ابشع التهم واسوأ الفعال ، وكتب الحروب الصليبية كثيرة ومملوءة بهذه المعانى ، وهى تعبر عن حقد دفين بين الطرفين .

هذه هى طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب فى فترة الحروب الصليبية ، فهل من المعقول أن ننتظر أن تكون كتابات المستشرقين فى هذه الفترة فى صالح الاسلام ؟؟ فالحقيقة التى لا مفر منها أن هؤلاء الغربيين بدأوا ينفسون عن حقدهم فى كل ما يكتبونه من مؤلفات .

وبدأ حكام الغرب بعد هزيمتهم فى الشرق يتلقفون أية ذكرة تخدم اغراضهم للنيل من الشرق وزعزعته ، وقد الفوا فى عمل المستشرقين فرصة ذهبية لتحقيق ما فاتهم وضاع منهم فى بلاد الشرق ، فأخذ الملوك يرعون نشاط المستشرقين ويمهدون أمامهم طريق دراسة الشرق والاحاطة بتراثه العلمى على اختلاف أنواعه(٧) .

وقد ذكر الكونت فيليب دى طرازى فى الجزء الثانى من خرائنه « أن فى مكتبة السير بلبثان مخطوطة من كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلكان على هامشها حاشية بقلم أبى النصر الخازن قنصل فرنسا فى بيروت فى منتصف القرن السابع عشر خلاصتها انه فى سنة ١٦٧١ م أرسل عالى الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله الى جميع بلدان الاسلام لشراء المخطوطات الاسلامية » لا معنى له سوى الدراسة المغرضة ، وطعن الاسلام طعنة نافذة عن طريق عرضه فى صورة مشوهة(٨) .

الاستعمار الحديث :

تعاقبت على الدولة الاسلامية حكومات متعددة ، وظروف مختلفة أدت الى تخلف هذه الدولة ، والى جمودها واعادتها الى الوراء هذا فى

---

(٧) محمد الدسوقى « الاسلام والمستشرقون » ص ٢٣ .
(٨) منير البعلبكى « دفاع عن الاسلام » ص ٤٥ .

الوقت الذى استطاعت فيه اوربا أن تنفض عن كاهلها جهالة العصور الوسطى ، وعصر سيطرة الكنيسة الكاثوليكية والبابوية على عقلية الناس ، وبدات تغترف من الحضارة الاسلامية ، وتتعمق وتؤلف وتزيد وتبتكر حتى وصلت الى مرحلة النهضة الاوربية العظمى التى شهدتها فى القرن الخامس عشر .

وبعد أن وصلت أوربا الى هذه المرحلة من النضج والاكتمال فى شتى المجالات بدأت النظر الى العالم الاسلامى الذى اصابته هذه النكسة السياسية والحضارية ، لتنفس عن حقدها القديم ، ولتعيد مرة اخرى سلسلة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب بعد ان شعرت أن الظروف فى صالحها .

وقد بدأت المنافسة بين كل من انجلترا وفرنسا وما وافى القرن التاسع عشر حتى اتسعت رقعة الامبراطورية البريطانية وبلغت حدا لم يعرف لغيرها فى التاريخ ، وفيه اخذت كل من المانيا وايطاليا بنصيب فى الاستعمار ولو أنهما دخلتا هذا الميدان متأخرتين بالنسبة لظروفهما الخاصة .

وقد اختلطت الاهداف الكبرى من وراء تشجيع رجال الدين للساسة الاجانب لاحتلال بلاد الشرق التى تحوى المقدسات الدينية ، معوضين الخسائر التى منى بها الغرب مرارا وتكرارا فى اعتدائه على الشرق خاصة فى فترة الحروب الصليبية . لذلك وجدت اهداف اخرى لاستعمار الغرب للشرق اهمها ايجاد اقاليم جديدة تصلح لسكنى عدد وفير من السكان الزائدين عن حاجة البلاد الأصلية ، ثم فتح أسواق جديدة متعددة لتصريف البضائع المتراكمة الناشئة عن التقدم الصناعى فى هذا العصر ، وكذلك اعداد مراكز لاستخراج المواد الأولية التى تحتاج اليها البلاد الصناعية ثم الرغبة فى الاستيلاء على جهات معينة بقصد تأمين طرق المواصلات كاحتلال انجلترا لمصر . هذا الى أن كثرة الاستكشافات فى افريقيا وآسيا واستراليا فى هذا العصر نبهت دول أوربا الى هذه الجهات المجهولة واستنفرت أطماعها لوضع يدها عليها ولا سيما أن فكرة تكوين امبراطوريات واسعة كانت قد تملكت عقول معظم كبار السياسيين فى القرن الماضى(٩) .

---

(٩) محمد عبد الرحيم مصطفى « تاريخ مصر الحديث » ص ٣٠٩

وقد انتهز الاستعمار الاوربي فرصة تواجده بين ظهراني الشعب الاسلامي وبدا يعمل على نشر حضارته العلمية والعملية في بلدان الاسلام، مما جذب أهل هذه البلاد وجعلهم يتهافتون على هذه الحضارة متغافلين عما تحمله في طياتها من سموم .

واكثر الغربيون من انشاء المدارس التبشيرية والمكتبات واصدار الدوريات التي تعبر عن آرائهم وتذيع افكارهم ، وكانوا يراعون فيها جمال الاخروج وجودة الطباعة لتجذب الأنظار وتسترعي الانتباه ، وقد أصبح لهذه الدوريات مكانتها الملحوظة ، واثرها البارز في عالم التربية والثقافة، ولم يقتصر نشاطهم على اصدار الدوريات ، بل قاموا بكتابة الأبحاث العديدة في كل ما يتصل بالشرق ، وبذلوا في هذه الأبحاث الجهد والمال والوقت وكل همهم صرف انظار المسلمين عن تراثهم والاتجاه نحو هذه الدراسات والاعتماد عليها في معرفة تاريخ المسلمين وعقائدهم حتى ننسلخ بمضي الزمن تاريخيا وعقائديا ونصبح غربيين روحا وفكرا(١٠) .

هذه هي طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب ، العلاقات التي كان الدين دائما ، في العصور الوسطى ، هو محركها ، ولكن بعد أن اصطبغ الشرق والغرب بصبغة المدنية الحديثة بداوا يبعدون عن هذا الهدف وبدا يميز العلاقات بينهما فيما بعد علاقات من نوع جديد فيها مصالح مشتركة للطرفين .

والمعروف أن الغرب الذى كان يسيطر عليه في العصور الوسطى افكار الكنيسة فقط ورجال الدين ولم يميز ثقافاتهم غير هذا الفكر اللاهوتي، بدا يحتك بالشرق عبر سبل ومعابر معينة نقلت حضارة الشرق الى الغرب، مما ادى الى اهتمام الغرب بدراسة علوم الشرق وآدابه وفنونه وساعد على نشأة حركة الاستشراق .

لذلك نرى أن معابر الحضارة هذه هي السبب الأول في ظهور حركة الاستشراق وهذه المعابر هي الاندلس ، صقلية ، بلاد الشام وقت الحروب الصليبية .

---

(١٠) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٣٤ .

١ ــ بلاد الاندلس :

بلاد الاندلس اهم معبر للحضارة الاسلامية الى الغرب : فبعد ان تم للعرب فتحها سنة ٩٢ هـ/٧١٢ م ظلوا قائمين فيها واصحاب سيادة عليها حتى تم سقوط دولة بنى الأحمر العربية الخزرجية فى غرناطة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م اى بعد نحو ثمانية قرون .

وقد راقت للعرب الاقامة بالاندلس وظنوا انفسهم خالدين فيها ، فتفننوا فى اتقان دورهم وتنسيق حدائقهم ، وشيد الامراء والخلفاء مئات المساجد والقصور والابراج والحمامات والحدائق ، وادخلوا الى الاندلس الأساليب الزراعية التى عرفوها فى الشرق ، وجاءوها بأشجار واغراس ازاهير من دمشق ومصر وافريقيا والهند وعنوا بالصناعات على اختلاف انواعها . حتى اذا تم لهم بناء الاندلس السياسى والاقتصادى والاجتماعى سعوا الى التشبه بالعباسيين فى ارساء ملكهم على اسس من الفنون والاداب والعلوم ، فأسسوا المدارس وحبسوا الأموال عليها وخرجوا فى طلب الكتب الى الشرق وملأوا مكتباتهم الخاصة منها ، ما خلا خزائن بعض المساجد(١١) .

ووفد على قرطبة ثم على غيرها من حواضر الأندلس اهل الفن والأدب والعلم من الشرق والغرب وعنوا بتفاصيلها تفسيرا واقتباسا وتصنيفا ، واختلفوا الى مجامع كمجامع اليوم للجدل والمناظرة .

يقول البارو القرطبى فى كتابه الدليل المنير : « واقبل اهل مالقة على مصنفات المسلمين فى الأدب والفقه والفلسفة تثقيفا بثقافتها لا للرد عليها، وبذلوا اموالا طائلة فى تأسيس مكتباتها ، وينطبق قوله على المستعربين فى الأندلس قاطبة ، الذين جروا على عادات المسلمين فى نظام الحريم وختن الاولاد واتقان العربية واستعمال حروفها لكتابة اللاتينية . ثم على الخاصة النصارى وقد آثروا اسماء العرب ولغتهم وثقافتهم ، وفى طليعة هؤلاء رجال الدين فاختلفوا الى مدارس المسلمين ومجامعهم ومكتباتهم ، ثم تبعوا فى أديارهم ينقحون ذلك التراث ويترجمونه ، ويفسرونه ويصنفون فيه ويذيعونه بين الرهبان وطلاب العلم ، فينتشر انتشارا سريعا بفضل

---

(١١) نجيب العقيقى « المستشرقون » جـ ١ ص ٨٨ .

مدارسهم فى اديار اريبول حيث تعلم الأب جربر وترجم الى اللاتينيــة من مخطوطات مكتبتها المصنفات الرياضية والفلكية كالزيج المنصورى — وسان كوجات ، وســان ميليان وثبلانوبا ، وســائر مدارس المســتعربين فى قرطبــة(١٢) .

ومنذ القرن العاشر حملت الكاندرائيات العبء الاكبر عن الاديار فذاعت شهرة مدارس : اوبيدو ، وليون ، وبيك ، وخيرونا ، وبرشلونة ، وسانتياجو دى كومبوستيلا ، وقامت مثيلات لها فى بارس وشارتر وأورليان وتور ولاون وريمس وفى كبرى مدن ايطاليا وانجلترا وبلجيكا وغيرها ، ثم انشــأ الرهبان الفرنسيسكانيون دير عكا ١٢٢١ م وعلم العربية فيه الأب روبرك ومدرسة ميرامار ١٢٧٦ م فأشرف عليها رايموند ولوليو خلال عشر سنوات وتعلم فيها العربية احد عشر راهبا . وقد عاون لوليو رايموند ومارتينى الدومينيكى واستأنف نشاطه دى ليرا الفرانسيسكانى فى القرن الرابع عشر وقرر مجمع طليطلة سنة ١٢٥٠ م الاتفاق على ثمانيــة من الرهبــان الدومينيكين على رأسهم رايموند ومارتينى خلا نفر من زملائهم ارسلوا الى باريس لتعلم اليونانية والعربية والعبرية فيها سنة ١٢٥٥ م ثم كلفهم مجمع بلنسيه ١٢٥٩ م تأسيس مدرسة للعربية والعبرية فى قطالونيا سنة ١٢٦١م وقد صنف أحدهم غليوم الطرابلسى كتابا عن الاسلام .

وانتشرت مدارس الرهبان العربية فى اشبيلية سنة ١٢٥٠ م وميورقة سنة ١٢٥٥ وبرشلونة سنة ١٢٥٩ وبلنسيه سنة ١٢٨١ م ، وجانيقا ســنة ١٢٩١ م وقد تطور بعض مدارس الكاتدرائيات الى جامعــات ونالت على غرارها حقها المعلوم فى مساعدة البابوات والملوك .

وقد ظلت طليطلة طوال قرنين ملتقى طلاب العلم من انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا يفدون عليها وينهلون من الثقافة العربية فيها ثم يرجعون الى بلدانهم فيذيعونها بين أهلها(١٣) .

ولم يقف رجال الدين والمثقفون عند الترجمة من العربية ، بل نقلوا

---

(١٢) نجيب العقيقى « المستشرقون » ج ١ ص ٩٨ .

(١٣) المرجع السابق .

اليها وكتبوا وصفوا فيها . كما ترجمت عن العربية بعض مؤلفات اليونانيين مثل كتب جالينوس وبقراط وافلاطون وارسطو واقليدس وغيرهم . وقد وجد من حكام اسبانيا المسيحيين من قدروا الثقافة العربية الاسلامية ومن هؤلاء الفونس الخامس ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ — ١٢٨٤ م) الملقب بالحكيم(١٤) فقد قام بانشاء معهد للدراسات العليا فى مرسية ، واختار له اعلام المسلمين والنصارى واليهود ثم نقله الى اشبيلية والحق به مجمعا علميا لمزج الحضارتين الاسلامية والمسيحية فى حضارة اسبانية موحدة، كما حافظ على طابع طليطلة فى مركزها الثقافى العالمى ، وجمع حوله العلماء وعهد اليهم بالترجمة بالتصنيف وكان يشرف بنفسه على التوجيه والتحرير والتلخيص ، فترجم الى الاسبانية الانجيل والقرآن والتلمود والقبالة وسر الأسرار المنحول لأرسطو ثم كتاب كليلة ودمنة .

وعبرت الثقافة العربية بفضل الرهبان ولا سيما الملتحقين بدير كلونى واللاجئين الى فرنسا — جبال البرانس والألب الى فرنسا وايطاليا وانجلترا والمانيا ثم استقرت فى اشهر مراكزها .

٢ — صقلية وجنوب ايطاليا :

دخلت صقلية تحت حكم المسلمين بعد أن تمكن الاغالبة من الاستيلاء عليها سنة ٢٦١ هـ .

وقد تتابع الحكم الاسلامى على صقلية واستقرت الأوضاع فيها فى القرن التاسع الميلادى ، لذلك بدات هذه الجزيرة تحتل دورا هاما فى الحضارة الاسلامية ، واصبحت من أهم المعابر الحضارية الى اوربا .

ولعل موقع صقلية جنوب ايطاليا قد جعلها قبلة للايطاليين ، ومركزا للدراسات اللاتينية واليونانية القديمة ، فكانت مكتباتها تحتوى على عدد ضخم من الكتب والمخطوطات القديمة . الى جانب انتشار الاسلام والاستقرار الاجتماعى والاقتصادى واطراد العلاقات بين مدارس صقلية ومدارس العالم الاسلامى الأخرى ، ثم التلاحم بين التقاليد العربية والتقاليد

(١٤) سعيد عاشور « النهضات الاوربية » ص ٣٢٩ .

الاغريقية الجديدة التي ازدهرت في عهـد البيزنطيين وكانت لا تزال قوية بشرق صقلية .

وكانت لصقلية صلات علمية وثيقة بالقيروان والاندلس والقاهرة ، ثم استقلت المدرسة الصقلية ، وكانت بلرم هي الحاضرة الثقافية اكثر البلاد امتلاءا بالمساجد والمدارس ، وقد كثر المعلمون حتى كان منهم في بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة .

وقد ظلت صقلية قلعة للحضارة الاسلامية طوال العصر الاسلامي ، وظل الحال كذلك بعد سقوطها في يد النورمان سنة ٤٤٤ هـ .

عندما دخل النورمان صقلية وجدوها قلعة ثقافية وحضارية متقدمة في جميع المجالات الزراعية والصناعية والتجارية ، لذلك فقد كان ملـوك النورمان على درجة كبيرة من الوعي ، فلم يسيئوا الى هذه الحضارة ، ولم يقفوا امام تطورها بل اصبحوا هم عاملا مساعدا على الاهتمام بالعلمـاء والأدباء ورجال الفكر ، وجعلوا من قصور امارتهم كعبة يقصدها كل طالب علم .

وقد برز من ملوك النورمان ، الذين يعتبرون أول ملوك علمانيين في أوربا ، شجعوا على حركة الاستشراق بعيدا عن العامل الديني ، وكانت تحدوهم الرغبة العلمية الحقيقيـة والحب لكل ما هو شرقي برز منهـم روجر الأول (١٠٦١ — ١١٠١م) الذي شمل العرب بعنايته، واحسن المحافظة عليهم وحمايتهم ، بل كتب مراسيمه بالعربية الى جانب اللاتينية واليونانية ؛ كما أن بعض نقوده اشتمل على رمز الاسلام والبعض الآخر على شعار المسيحية(١٥) .

وبرز كذلك روجر الثاني الذي لقب بملك الصقليتين ١١٣٠ — ١١٥٤م الذي ارتدى ملابس شيوخ المسلمين وكتب على حلة التتويج عبارة بالخط الكوفي والتاريخ الهجري (٥٢٨ هـ/١١٣٤ م) وشيد المباني على الطـراز

---

(١٥) سعيد عاشور « النهضات الأوربية » ص ٣٢٦ .

العربى ، وعاون على تأسيس مدرسة الطب فى سالونو ، وترك للعرب واليهود حريتهم الدينية والثقافية(١٦) .

أما أشهر شخصية فى التاريخ الصقلى فهى شخصية الامبراطور فردريك الثانى الذى اشتهر اسمه فى التاريخ كقائد للحملة الصليبية السادسة التى توجهت الى بلاد الشام .

كان فردريك الثانى مولعا بالثقافة الشرقية لأنه تربى فى كنفها، وأفاض المؤرخون فى وصفهم لحب فردريك للمسلمين واعجابه بحضارتهم وعلومهم وتقريبه لهم واستخدامهم فى حاشيته حتى أن المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون للصلاة لكل فرض فى معسكره (١٧) .

كذلك ذكر المقريزى أن فردزريك كان « عالما متبحرا فى علم الهندسة والحساب والرياضيات »(١٨) . والمعروف تاريخيا أن هناك صداقة قوية قامت بين سلطان مصر الايوبى الملك الكامل ، وبين الامبراطور فردريك لشدة توافق طباعهما ، مما دفع بعض الكتاب الى اتهام فردريك الثانى بممالئة الاسلام على حساب المسيحية(١٩) . لذلك فان رعاية ملوك النورمان للحضارة الاسلامية وللعلوم الاسلامية أدى الى زيادة الاهتمام بالاستشراق وعلوم الشرق وأصبحت صقلية بذلك اهم مراكز الاستشراق فى الغرب الأوربى .

٣ ــ بلاد الشام زمن الحروب الصليبية :

تأتى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية فى الأهمية الثالثة بعد الأندلس وصقلية كمعبر من معابر الحضارة الاسلامية الى الغرب ، وكمؤثر فى نشأة حركة الاستشراق فى أوربا .

ولابد لنا من توضيح وجهة نظرنا هذه فى ضوء الحقائق التاريخية .

---

(١٦) نجيب العقيقى « المستشرقون » ج ١ ص ١٠٨ .
(١٧) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ٩٩٦ .
(١٨) المقريزى « السلوك » ج ١ ص ٢٣٢ .
(١٩) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ٩٩٦ .

فالمعروف أن العلاقة بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية كانت عدائية مطلقة ، فالغرب يخطط عسكريا لغزو الشرق والاستيلاء على المناطق المقدسة ، واحراز انتصارات عسكرية ، وكسب اراضى جديدة ومستعمرات، لذلك فقد نقل الى الشرق جميع الدبلوماسية العسكرية الغربية وفنون القتال المختلفة ، وما شاع فى الغرب من بناء الحصون والقلاع والابراج ، وبدأ يأخذ من الشرق فنون الاستحكامات والخطط الحربية ، وبناء السلاسل والمخاضات .

وليس معنى كلامنا هذا أن التبادل الثقافى بين الطرفين انعدم فى فترة الحروب الصليبية ، ولكن المعروف أن هذه الحروب كان يتخللها فترات هدن طويلة فخلال هذه الفترات كا نالطرفان يعيشون فى سلام مع بعضهم البعض الى درجة ان بعض الفرسان الصليبيين قامت بينهم وبين الفرسان المسلمين علاقات مودة وصداقة مثلما حدث مع الأمير أسامة بن منقذ من قلعة شيزر وبين فرسان الصليبيين ، وقد دون أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » وصفا مفصلا لأخلاق الصليبيين وعاداتهم ووصفهم « بأنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير »(٢٠) .

وقد أخذ الصليبيون عن أهل الشرق نظما زراعية كثيرة متقدمة فنقلوا الى أوطانهم نباتاتوحاصلات وأشجارا جديدة لميعرفوها منقبل كالسمسم والخروب والذرة والارز والليمون والثوم(٢١) . وفى مجال الصناعة نقلوا صناعة الزجاج عن اهل صور حتى أن الانتاج الصناعى الاوربى ظهر بعد ذلك وعليه المؤثرات والتعبيرات الاسلامية(٢٢) ، وقد تعلم الغرب من الشرق طريقة الرسم بالحفر مما كان له أكبر الأثر فى التطور العظيم الذى حدث فى عصر النهضة الأوربية كما تعلموا كثيرا من صناعة المنسوجات مثل صناعة الحرير والكتان الذى اشتهرت به بلاد الشام (٢٣) .

---

(٢٠) اسامة بن منقذ « الاعتبار » ص ١٣٢ .

(٢١) باركر « الحروب الصليبية » ص ١١٧ ،
فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ٢٠٤ .

(٢٢) كريستى « تراث الاسلام » ص ٤٧ .

(٢٣) جوّرج يعقوب « أثر الشرق فى الغرب » ص ٦٢ .

واخذ الغرب عن الشرق صناعة السكر من القصب ، وصناعة الجلود والسروج وصناعة البسط والأثاث والصناعات المعدنية الراقية ، وصناعة الورق وتجليد الكتب والتصوير الاسلامى(٢٤) .

ومن الملاحظ أن الصليبيين قد تزيوا بازياء المسلمين من عمامه وتنطان وشادوا بيوتهم على غرارهم ، وأكلوا التوابل والسكر مثلهم ، واتخـــذوا البواشق والخيول وكلاب الصيد لقنصهم ، ونقلوا عنهم اصطناع النشابة المصلية وتقلدوا الدروع والجبة العسكرية وشارات الفرسان والاوسمة ، والطنبور فى الموسيقى العسكرية ، والحمام الزاجل لنقل اخبارهم واشعال النار احتفالا بالظفر ، وحفلات السيف ورمى الجريد ، واضافوا فى المعمار الطراز الشامى البيزنطى الى النمط القوطى ، اى الشرقى المحور فى بناء اديارهم وكنائســـهم وقصورهم وفنـــادقهم وحماماتهم وأثثـــوها بالرياش الشرقى(٢٥) .

أما عن المجال الثقافى فقد تعلم الصليبيون عن المسلمين اللغة العربية، واستعملوها لغة للتخاطب اليومى ، وحملوا معهم الى الغرب الكتاب الملكى فى الطب لعلى بن عباس الذى نقله اسطفان الانطاكى وهو من بيزا سنة ١١٢٧م وترجمته أصدق من ترجمة قنسطنطين الافريقى ، واضاف اليه كشافا يونانيا عربيا لاتينيا للمصطلحات التى استعملها ديوسقوريدس ، البندقيـــة ١٤٩٢ وليون سنة ١٥٢٣ م) وقصة كأس العشاء السرى ، وكليلة ودمنة، وتأثر شوسر بألف ليلة وليلة وبوكاتشيو بالخطابات الشرقيـــة فى كتابه ديكامرون وعثر فيليب الطرابلسى فى انطاكية سنة ١٢٤٧ م على مخطـــوط سر الأسرار بالعربية المنسوب خطأ الى أرسطو فترجمه الى اللاتينية فأضحى أكثر المنقولات تداولا فى العصر الوسيط(٢٦) .

وثمة نقطة هامة تفيدنا فى الدور الذى قامت به البابوية فى الغرب لنشر المسيحية بالطرق التبشيرية المختلفة ، بعد أن اعيتها الوسائل الحربية

---

(٢٤) فيليب جتى « تاريخ العرب » ص ٢٠٤ .
(٢٥) نجيب العقيقى « المستشرقون » جـ ١ ص ١٣٧ .
(٢٦) المرجع السابق ص ١٣٩ .

فى هذا السبيل . لذلك فقد كان من نتائج الحروب الصليبية أن قامت البابوية بارسال البعثات التبشيرية لنشر مبادىء المسيحية بين المسلمين وتنفيذ سياستها عن طريق الاقناع بعد أن رأت الجهود والتضحيات التى بذلتها فى الحروب الصليبية وكيف أنها ضحت بالأموال دون أن تحصل على نتيجة واضحة . وكان أن بدأت جهود المبشرين للتبشير بالمسيحية بين المسلمين فوصل القديس فرانسيس الى مصر سنة ١٢١٩ م . وقدم مواعظه الدينية فى حضرة السلطان الكامل ، ثم استمر أتباع ذلك القديس — فضلا عن اتباع القديس دمنيك — يواصلون جهودهم فى النصف الأول من القرن الثالث عشر مؤملين أن ينجحوا فى نشر المسيحية بين المسلمين عن طريق الاقناع . واتخذت هذه الحركة التبشيرية اتجاها جديدا عندما فكر لويس التاسع ملك فرنسا فى نشر المسيحية بين المغول جميعا . كذلك أشار لويس التاسع على البابا انوسنت الرابع بانشاء جمعية التبشير الأولى سنة ١٢٥٣ م وهى الجمعية التى ضمت عددا كبيرا من المبشرين الفرانسيسكان والدومينكان . على أن أعظم شخصية فى هذه الحركة التبشيرية فى القرن الثالث عشر كانت شخصية اريموند لول Raymond Lul وهو أسبانى كرس حياته لمهمة التبشير بالمسيحية بين المسلمين بالذات . فأقنع ملك ميورقة بانشاء كلية الثالوث المقدس فى سنة ١٢٧٦ م وهناك اخذ يعد مجموعة من المبشرين للقيام بمهمتهم ، وأهم وسائل هذا الاعداد كانت تعليمهم اللغة العربية . وبعد أن قضى ريموند عشر سنوات فى اعداد أعوانه أوفدهم الى شمال أفريقيا فضلا عن بلاد المغول والأرمن للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية . وبفضل جهوده قرر مجمع فينا سنة ١٣١١ م انشاء ستة معاهد لتدريس اللغات الشرقية فى أوربا ، وذلك لانه لا يمكن للمبشر أن ينجح نجاحا مضمونا الا اذا عرف لغة القوم الذين يبشر برسالته بينهم .

ومهما يكن من أمر ، فان اتساع حركة التبشير بالمسيحية بين الشعوب غير الأوربية جاءت من نتائج الحروب الصليبية ، واذا كانت هذه الحركة لم تحرز نجاحا بين المسلمين وغيرهم من الشعوب فى منطقة الشرق الأدنى

فانها استمرت حتى احرزت بعض النجاح فيما بعد فى شرق آسيا وبخاصة بين البوذيين(٢٧) .

واذا كانت هذه المعابر الحضارية قد أسهمت فى أزدياد معرفة الغرب بالشرق . واهتمامه بثقافاته ولغاته فان هناك جهات أخرى بدأت تهتم بالشرق وعلومه وديانته محاولة أن تدرس كل ما يخص هذه المنطقة من العالم، وتؤلف المؤلفات التى تهدم هذا العالم وتدمره ، وأن تسعى جاهدة للنيل من الدين الحنيف الذى ذاع وانتشر الا وهى البابوية التى تعتبر السلطة الدينية المسيحية الكاثوليكية فى الغرب . ومقرها فى الفاتيكان بايطاليا .

(أ) البـــابوية :

حاولت البابوية أن تتخذ من التبشير بالديانة المسيحية غاية قصوى لها وأن تعكف على دراسة علوم الشرق وديانته وفنونه وآدابه لتحـــاربهم بسلاحهم . فبدأ البابوات والرهبان والاساقفة فى الاهتمام بالاستشراق ، فنظموه واتصلوا بالملوك والأمراء ليساندوهم فى حركتهم هذه .

بدأ رجال الدين حركة الاستشراق بدراسة اللغة العربية ثم اليونانية لتخريج أهل جدل يقارعون الفقهاء والمسلمين واليهـــود ويردون عليهم ببراهين من كتبهم انفسهم فى البلاد التى اجلاهم الاسلام عنها وبلـــغ اوربا منها فقصد الفرنسيكانيون المغرب ١٢٢٠ م ، وانطلق الدومنيكانيون ســـنة ١٢٥٢ م الى بلغاريا ورومانيا والشرق(٢٨) .

فبذلك اصبحت العربية أهم وسيلة فى عملية الاستشراق ، فبـــداو يعلمونها فى مدارس اسبانيا وأديرتها وكاتدرائياتها وجامعاتها ، وأسسوا مدارس للغات الشرقية فى عواصم بلدانهم وخصصوا كراسى مستقلة فى كبرى الجامعات لهذا التخصص ، حتى اننا نرى البابا سلفستر الثـــانى (ت ١٠٣٣) الفرنسى كان قد حصل على ثقافته العليا فى اســـبانيا على أيدى العلماء المسلمين قـــد أمر بانشاء ثلاث مدارس لتعليم اللغة العربية

---

(٢٧) سعيد عاشـور « الحركة الصليبية » جـ ٢ ص ١٢٧٨ .

(٢٨) نجيب العقيقى « المستشرقون » جـ ١ ص ١١٤ .

فى روما وريمس وشارتر ؛ ولحماس هذا البابا واهميته فىتنشيط حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية وفى تنظيم وسائلها جعل بعض مؤرخى الغرب عهده بداية لحركة الترجمة فى أوروبا .

توسعت البابوية فى انشاء الكراسى والمدارس والمكتبات والمطابع والمجلات فى ايطاليا وعاون على مثلها فى الغرب والشرق وعلى ترجمة التراث الانسانى عن العربية ثم عن اليونانية واللغات الشرقية والاستعانة بمن يجيدها من النصارى والمسلمين واليهود على نقله نقلا حرفيا ، ثم يعمد رجال دين الى صياغته فى أسلوب لاتينى مبين . ولم يكتفوا بتلك المنقولات فانشأ دون رايموندو الاول رئيس اساقفة طليطلة مكتب المترجمين فى طليطلة ١١٣٠ م وأشرف ميخائيل سكوت على مكتب الترجمة الذى انشاه فردريك الثانى فى صقلية (١٢٢٠ — ١٢٣٦ م) وأفادوا من مكتب الفونسو الحكيم (١٢٥٢ — ١٢٨٤ م) والمصنفات التى أمر الملوك والأمراء بنقلها او نهض العلماء بها ونشروا جميع ذلك فى مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم ومنها انتقلت الى مثيلاتها فى أوربا (٢٩) .

وبدات ترجمة كتب العرب فى الفلسفة والطب والكيمياء والصيدلة والعلوم الدينية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلك والموسيقى وغيرها من العلوم الشرقية المزدهرة ، ثم بدأوا فى انشاء المطابع التابعة للرهبان.

من اهم الرهبان الذين ساهموا فى حركات الترجمة لمعت أسماء كان لها أهمية كبرى فى نشأة الاستشراق فى الغرب وفى الترجمة عن العربية ونقل تراث الشرق الى الغرب نخص منهم :

أ — جربر دى أولياك : ٩٣٨ — ١٠٠٣ م (٣٠)

راهب دومينيكى فرنسى ، قصد الأندلس فيمن قصدها طلبا للعلم ، فأخذ من علمائها فى مدارس اشبيلية وقرطبة ، ثم رحل الى روما سنة ٩٩٩م وانتخب حبرا أعظم ، وبعد انتخابه أمر بانشاء مدرستين عربيتين الاولى فى ايطاليا وهى مقره الدينى ، والثانية فى ريمس بفرنسا وهى موطنه .

---

(٢٩) نجيب العقيقى « المستشرقون » ج ١ ص ١١٦ .

(٣٠) المرجع السابق ص ١٢٠ .

٢ ــ قسطنطين الأفريقى : ١٠٨٧ م (٣١)

الراهب الافريقى الذى ترجم كتب الطب والفلك من العربية الى اللاتينية عن اسحق بن عمران ، وكتاب العلاج العام لاسحق الاسرائيلى والكتاب الملكى لعلى بن عباس وبعض رسائل الرازى .

٣ ــ بطرس المكرم : ١٠٩٤ ــ ١١٥٦ م(٣٢)

اعتنق الحياة الرهبانية ، وكان كثير الاطلاع ، عين سنة ١١٣٣ م رئيسا لدير كلونى ، ثم قصد الاندلس وتثقف بثقافتها ، ثم عاد الى ديره يصنف الكتب فى الرد على الاسلام وشجب اليهود ، ويقال انه ترجم القرآن الكريم .

٤ ــ ادلارد الباثى : ١٠٧٠ــ١١٣٥ م(٣٣)

راهب بندكتى جمع معارف فى علوم الطبيعة والفلك والرياضيات ، وتضلع فى ثقافة العرب ، وترجم كتبهم فى مختلف التخصصات وآمن بمذهبهم فى العلم .

٥ ــ روبرت الشسترى : ١١٤١ ــ ١١٤٨ م (٣٤)

راهب بندكتى تثقف بالثقافة العربية لا سيما العلوم الرياضية والفلكية منها وقد ترجم اول ترجمة للقرآن استعان فيها باثنين من العرب نشرها ببيلباندر فى ثلاثة أجزاء . وترجم فى الجبر والمقابلة للخوارزمى والكيمياء والفلك الذين يعتبران فاتحة العلوم المنظمة فى أوربا .

٦ ــ جيرارد الكريمونى : ١١١٤ــ١١٨٧ م(٣٥)

راهب بندكتى تعلم العربية فى طليطلة ــ ترجم مالا يقل عن ٨٧ مصنفا فى الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وضرب الرمل ، فقدت معظم

---

(٣١) المرجع السابق ص ١٢١ .
(٣٢) العقيقى : المرجع السابق ص ١٢٢ .
(٣٣) المرجع السابق ص ١٢١ .
(٣٤) المرجع السابق ص ١٢٣ .
(٣٥) المرجع السابق ص ١٢٩ .

اصولها العربية وسلمت ترجماتها اللاتينية فمهدت مع مثيلاتها الى انتشار العلوم فى أوربا وتوثيق صلتها بالشرق .

هؤلاء بعض أعلام المستشرقين الذين كانوا ثمرة من ثمرات الحركة التى قادتها البابوية فى الفاتيكان لدراسة الاستشراق وترجمة العلوم العربية الاسلامية الى اللاتينية ، ثم التأليف محاولين بذلك ضرب الاسلام والرد عليه بمؤلفات مضادة .

(ب) السفراء :

كثرت السفارات بين دول الشرق والغرب فى فترات السلم فنرى العباسيون والفرنسيون يتبادلون السفارات والهدايا سنة ٧٩٧—٨٠٦ م ووافق هارون الرشيد على جعل حماية القدس فى يد شارلمان سنة ٨٠٧م فأرسل احد بطاركتها مفاتيحها اليه(٣٦) .

وقام عبد الرحمن الثانى بارسال سفارات الى ملك النورمان والدانمارك سنة ٩٤٥ م وأوفد عبد الرحمن الناصر السفارات الى القسطنطينية سنة ٩٥٠ م وأوفد أسقف قرطبة ريسيموندو المشهور عند العرب بربيع بنزيد الى أوتو امبراطور المانيا واحتفى بسفيره الأسقف جرتز سنة ٩٥٣ م فقضى فى قرطبة ثلاث سنوات تعلم خلالها العربية ورجع منها بالمخطوطات النفيسة ووفد على بلاط الخليفة سفراء بيزنطة والمانيا وايطاليا وفرنسا(٣٧) .

ثم بدأ التطور التاريخى فى مجال العلاقات الخارجية بأن بدأت الدول الشرقية والغربية تعمل على ارسال سفراء لها مقيمون فى البلدان الأخرى، فأرسلت أوربا سفراء لها فى الشرق فاقتبسوا عادات الشرقيين، فمنهم من استشرق الى أبعد من ذلك واعتنق الاسلام ونال أخطر المناصب .

واقتضت سياسة اقامة أوربا سفراء لها فى الشرق أن تستبدل بهم

---

(٣٦) حسن الباشا « دراسات فى تاريخ الدولة العباسية » ص ٢٩ .
(٣٧) ابن عذارى « البيان المغرب عن تاريخ المغرب » جـ ٢ ص ٢٢٩ .

سفراء الشرق فى عواصمها فكان لكل من تركيا وسيام وفارس والهند سفير .

اما السفراء وملحقوهم الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية وبعثوا الى الشرق واقاموا فيه ، فقد حققوا ما كتبوه فى مواضعه وعاونوا على جمع مخطوطاته وتعليم لغاته وانشاء المطابع لنشر مصنفاته فكانوا نواة طيبة للاستشراق العلمانى(٣٨) .

(ج) الحملة الفرنسية واثرها على حركة الاستشراق :

تعرضت مصر للحملة الفرنسية من سنة ١٧٩٧ — ١٨٠١ م ، ولا شك ان هذه الحملة ما هى الا استكمالا لقضية الصراع بين العالمين الشرقى والغربى الى جانب الاسباب المباشرة والشخصية التى حدت بنابليون بونابرت الى توجيهها ضد مصر .

ويهمنا من هذه الحملة انه كان لها تأثير كبير على تطور حركة الاستشراق والاهتمام به .

فقد صحب نابليون فى حملته بعثة علمية قوامها علماء اعلام فى كل ضرب من ضروب الثقافة فى ذلك العصر ، منهم الأثريون والمهندسون والأطباء والمؤرخون والمستشرقون والمترجمون اللبنانيون والمصريون والسوريون ، كما انه عمل على أن يهيىء أسباب الاقامة والاطمئنان للفرنسيين ، فرأى وجوب درس طبيعة البلاد وأهلها وتاريخها ، وانظمتها حتى يكون العمل ممكنا ومثمرا ، ولهذا اصدر امرا بانشاء « المجمع العلمى المصرى » وكان ذلك فى ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقسم المجمع فى أول امره أربعة اقسام : قسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الآداب ، وقسم الفنون ثم قسم الرياضيات والطبيعة ، على أن تطبع أعمال المجمع كل ثلاثة اشهر ، وعين مونج كبير الرياضيين رئيسا له ، وجعل نفسه وكيلا ، وبدأ العلماء أعمالهم بالفعل ليهيئوا جوا صالحا لنجاح الحالة الجديدة(٣٩) .

---

(٣٨) العقيقى « المستشرقون » ج ١ — ص ١٤٢ .

(٣٩) محمد عبد الرحيم مصطفى « تاريخ مصر الحديث » ص ٣٠ .

وقد امر نابليون كذلك بتأسيس مطبعة عربية — كان قد استصفاها من الفاتيكان — لطبع الكتب والتصريحات والبلاغات والمشورات . ونشرت بعثته بحوث علمائها ورسومهم وخرائطهم فى كتاب « وصف مصر » سنة ١٨٠٩ — ١٨١٣ م ثم حل شمبليون رموز الكتابة الهيروغليفية بقراءة حجر رشيد (٤٠) .

وبذلك نرى ان حملة نابليون بونابرت على مصر تعتبر من اهم الاسباب التى ادت الى زيادة الرغبة فى الاستشراق فى الغرب والى الاهتمام بعلوم الشرق وفتحت السبيل أمام الباحثين هناك ليأتوا الى البلاد العربية ، لدراسة التراثوالعلوم والتأليف فيه، فامتلأت بهم ساحاب المكتباتالعربية كمستشرقين يبحثون ويدرسون فى وقت كانت فيه البلاد الاسلامية فى سبات عميق نظير ما أصابها من تدهور سياسى واستعمار فاستطاعوا أن يترجموا وان يحققوا اعدادا وفيرة ، بلمعظم كتبالتراث الاسلامى حققتها مستشرقون أجانب ، اى جانب ضياع كمية ضخمة من المؤلفات الاسلامية التى حملت الى مكتبات الغرب الاوربى وجامعاته ، ولم ينتبه اليها المثقفون المسلمون ، والعجيب ان الباحث الذى يريد أن يكتب عن التراث الاسلامى الدينى أو العلمى أو السياسى او الحضارى فانه يجد فى المكتبات الاوربية أضعاف اضعاف المخطوطات النادرة والكتب الاسلامية للمؤلفين الأوائل وهذا كله ادى الى ان اصبح المستشرقون قوة كبيرة فى الغرب لها مكانها ولها مركزها العلمى ولها كراسى مستقلة فى جميع جامعات أوربا وأمريكا.

الوسائل التى اتبعها الغرب لتدعيم حركة الاستشراق :

١ — انشاء كراسى للغات الشرقية فى الجامعات الأوربية جميعها مثل جامعة تولوز ، وجامعة بوردوا ، وجامعة السوربون فى باريس والمدرسة الشرقية فى القسطنطينية ، وجامعة ستراسبورج والمعهد الفرنسى للاثار الشرقية بالقاهرة ودمشق وطهران وتونس الى جانب كراسى اللغات الشرقية فى جامعات انجلترا مثل جامعة اكسفورد وكمبردج وجامعة لندن

---

(٤٠) العقيقى « المستشرقون » ج ١ ص ١٥٠ .

وجامعة درهام وجامعة فيكتوريا و جامعة ليدز وجامعة ويلز وجامعة ليفربول وبرستول وشيفيلد وهال وكذلك جامعات اسكتلندا فى سانت اندرور وجلاسجو وابردين ادنبره وفى ايرلندا فى كلية ترينيتى فى دبلن وجامعة ايرلندا الوطنية .

وفى كندا فى تورنتو ، أوتاوه ، جامعة لافال ، جامعة مانيتوبا ومونتريال . وفى المانيا فى جامعة هايدلبرج وكولن وجامعة فورزبرج ومونستر وبون وبرلين وغيرها(٤١) .

هذا الى جانب الكراس الموجودة للغات الشرقية فى جميع جامعات الغرب وما قدمناه ما هو الامثل لبعض هذه البلاد .

٢ — **انشاء المكتبات الشرقية** التى تحتوى على ملايين من الكتب والمخطوطات والنفائس العلمية والأدبية والتاريخية .

ومن اهم هذه المكتبات مكتبة باريس الوطنية ، ومكتبة المتحف البريطانى فى لندن ومكتبة الاسكوريال باسبانيا والتى تضم حوالى ١٩٠٠ مخطوط عربى من بقايا المكتبة الاندلسية الاسلامية بغرناطة . ومكتبة فينا الوطنية التى تحوى مئات من المخطوطات العربية النفيسة وكذلك مكتبة جامعة ليدن بهولنده وهى تضم مخطوطات نفيسة وفيرة قضى المستشرقون الهولنديون قرونا متواصلة فى جمعها .

وهناك مكتبة برلين الوطنية فى المانيا ومكتبة جامعة ميونخ وجامعة هايدلبرج الى غير ذلك من المكتبات مثل المكتبات الخاصة بمختلف الجامعات .

وهناك نوع آخر من المكتبات الخاصة التى كانت ملكا للمستشرقين وقف بعضها على المكتبات العامة ، واقتنت البعض الآخر ولجميع دور النشر الشرقية فهارس لمجموعاتها .

---

(٤١) نجيب العقيقى : المرجع السابق ج ١ ، ج ٢ ، ج٣ .

٣ — انشاء المطابع الشرقية (٤٢)

دابت البلاد الغربية على انشاء المطابع التى تحوى الحروف العربية والعبرية ، وبدات هذه المطابع فى ايطاليا ثم فى فرنسا ، ووجـدت فى اسبانيا مطبعة مايسترى فى مدريد ، ومطبعة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ايضا . وفى النمسا انشات المطبعة الامبراطورية والمطبعة الشرقية للاباء المختارين . وفى هولنده مطبعة ليدن وغيرها فى مختلف انحاء أوربا .

٤ — الجمعيات الاسيوية والمجلات الشرقية (٤٣) :

عملت معظم بلدان اوربا على تنمية حركة الاستشراق باصدار المجلات والمطبوعات الخاصة بالشرق وهى تعنى جميعها بالعرب فى تحقيق تاريخهم وجغرافيتهم وانسابهم ، وبحث أدبهم وشرائعهم ومذاهبهم واخلاقهم ، ودرس لغاتهم وعلومهم وفنونهم فاطلعت الغرب على اصالة الشرق وخصائص تطوره ، والفت من مجموعها مكتبة نفيسة فيها زبدة أعمال المستشرقين(٤٤) .

ومن اهم المجلات الشرقية صحيفة العلماء التى تصدر فى فرنسا نشرة معهد مصر ، المجلة التاريخية ، مجلة تاريخ الأديان ، نشرة المعهد الفرنسى للاثار الشرقية فى القاهرة ، مجلة الدراسات الاسلامية وهناك الجمعيات الآسيوية مثل الجمعية الملكية الآسيوية لبريطانيا العظمى وايرلندا فى لندن ،والسلسلة الجديدة التىتصدر كلثلاثة شهور ، واتحاد المستشرقين البريطانيين ، الى غير ذلك .

٥ — المتاحف الرقمية :

وتحتوى هذه المتاحف على مجموعات كبيرة من الكتب والمؤلفات الشرقية الى جانب مجموعة كبيرة من الآثار الشرقية ومن اهم هذه المتاحف

---

(٤٢) العقيقى : المرجع السابق ج ١ ، ٢ ، ٣ .
(٤٣) العقيقى : المرجع السابق .
(٤٤) العقيقى : المرجع السابق ، ج ١ ص ١٦١ .

المتحف البريطانى ومتحف فيكتوريا البرت ومتحف اشمولين فى اكسفورد ومتحف جراتس فى النمسا . ومتحف الفن الاسلامى فى برلين والمتحف الوطنى فى باريس .

٦ — المؤتمرات الدوليـة :

بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية (١٨٧٣—١٩٦٤) ٢٦مؤتمرا ضم الواحد منها مئات العلماء من أعلام المستشرقين والعرب والمسلمين والشرقيين اسهموا فيما بينهم فى أقسامه الأربعة عشر عن آسيا وافريقيا، وتناولوها بالمحاضرات والأبحاث والنظريات والمقترحات . ثم نشروها فى مجلدات للاهتداء بها كنظم ومناهج ووسائل ، ثم أصبحت مع دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والاقليمية أصولا وامهات واسانيد للباحثين(٤٥) .

وتعتبر هذه الوسائل المتعددة عوامل مساعدة لنشر حركة الاستشراق فى الغرب الأوربى ، وفى تمهيد السبيل انشر جميع المؤلفات العديدة التى تصدر فى الغرب خاصة بأمم الشرق .

أهداف المستشرقين :

لعلنا بالعرض السابق نكون قد ألقينا الضوء بعض الشىء على التطور التاريخى للعلاقات بين الشرق والغرب ، وكيف احتك كل منهما بالاخر ثم كيف بدا الغرب يتكالب على الحضارة الاسلامية فأخذ منهـا من مراكزها المختلفة سواء اكانت فى أوربا أم فى الشرق ، ثم بعد ذلك بدات مرحلة الاستقرار والدراسة والانتاج العلمى الوفير فى وقت ذبلت فيه البلاد الاسلاميه ووصلت أوربا فى عصر النهضة الى اقصى درجات التقدم العلمى والحضارى . وبذلك نجد ان حركة الاستشراق أصبحت حركة عامة فى اوربا واصبح لزاما علينا ان نرى أهداف هذه الحركة هل خرجت كلها من منبع واحد ولهدف واحد معين ام اختلفت الاصول والأهداف .

الحقيقة أن الهدف الأول الذى قام من أجله الاستشراق كان خدمة الكنيسة والاستعمار ، فالمعروف أن أول من قام بعملية الاستشراق كانوا

(٤٥) العقيقى « المستشرقون » ج ٣ ص ١١٤٨ .

رهبانا خاضعين لسلطة الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب وهؤلاء أعمتهم الضلالة عن الموضوعية المتفهمة . وقد غلب على كتاباتهم الطعن فى الاسلام والحضارة الاسلامية والثقافات الاسلامية والتاريخ الاسلامى .

وهناك مجموعة من المستشرقين كانوا مرتزقة وضعوا اقلامهم فى خدمة مصالح بلدانهم الاقتصادية والسياسية والاستعمارية(٤٦) .

وهناك فئة من طلاب الاساطير والغرائب والأهاجى ، ولم تكن حقا من العلم فى شىء فأنقرضت بانقراض العصور الأولى(٤٧) .

وفئة اخرى تعرضت للاسلام دون ان تقصد الطعن عليه ، وانما درسته دراستها كتبها الدينية ، فقد درج العلماء وفيهم الرهبان على نقد الكتاب المقدس مثل رايمو ندوس المتوفى سنة ١٢٦٨ م استاذ اللغات الشرقية فى جامعة هامبورج الذى خلف مخطوطا فى نقد حياة المسيح(٤٨) .

وفئة غيرهم انصفت الاسلام وان لم تدن بهقولا وعملا وكتابة فلم يؤخذ عليها هفوة على كل ما تبحثه فيه ومنها من ذهب به اخلاصه الى اعتناقه(٤٩) .

ولابد أن هناك فئة أخرى منصفة ارادت البحث العلمى المجرد دون التعرض للدين ، وهذه الفئة غلبت عليها الحيدة المطلقة والرغبة فى الوصول الى الحقيقة العلمية ، ودراسة التراث العربى الاسلامى لما فيه من حضارات قديمة مزدهرة .

وتعتبر هذه الاغراض من اهم الدوافع التى دفعت المستشرقين الى الاندراج فى هذا السلك ، ويهمنا من أمر حركة الاستشراق هذه الحركة التى تبنتها الكنيسة الكاثوليكية والملوك والامراء الاقطاعيين فى أروبا والتى كان هدفها الأول والأخير طعن الاسلام بجهالة وضلالة .

---

(٤٦) العقيقى : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٠ .
(٤٧) العقيقى : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٠ .
(٤٨) العقيقى : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٠
(٤٩) العقيقى : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٢ .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الحركة التى ربطت الاستشراق بالتبشير لابد أن نلخص تطور حركة الاستشراق فى مراحل ثلاث وهى :

المرحلة الأولى :

تلك الحقبة التى تبدأ من القرن الثامن الميلادى وتستمر حتى النهضة الاوروبية الحديثة فى القرن الخامس عشر ، وفيها احتك الاسلام بالغرب سياسيا وحربيا ، وأسس مراكز لحضارته فى جنوب أوربا وجنوبها الغربى ووقف منها موقف المعلم يلقنها حضارة خصبة الجوانب كثيرة الروافد ، امتزج فيها تراثه العربى بتراث الفرس والهند واليونان وغيرهم من الامم التى دانت لسلطانه ، وكان موقف أوربا من ذلك الدور اشبه بموقفا نحن من الحضارة الغربية فى أوائل نهضتنا الحديثة (٥٠) .

المرحلة الثانيـة :

منذ أوائل النهضة الاوربية حتى القرن الحالى وفيها احتلت دراسة الفلاسفة المسلمين مكانها فى الجامعات القديمة مثل باريس ولوفان وظهر اثر الفكر الاسلامى فى بعض الفلاسفة الغربيين مثل ديكارت وترجمت بعض روائع الأدب الشرقى مثل الف ليلة وليلة الذى ترجم الى الفرنسية فى نهاية القرن السابع عشر ، ثم ترجم بعد ذلك الى غيرها من اللغات ثم اتجهوا بعد ذلك الى دراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبدأت تظهر الكتب الأوربية عن الاسلام وتاريخه والترجمات المختلفة للقرآن واسست الجمعيات الآسيوية فى انجلترا وفرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، واخذ العلماء الأوربيون ينقبون عن المخطوطات الشرقية ويحققونها وينشرونها .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لأولئك المستشرقين يعرضون فيها ما وصلوا اليه فى البحوث الكلاسيكية الاسلامية والعربية والشرقية(٥١) .

---

(٥٠) هاشم زكريا « المستشرقون والاسلام » ص ١٦٧ .
(٥١) المرجع السـابق .

المرحـــــلة الثالثة :

وهى التى نشهد مظاهرها الآن ، ففى مرحلة العناية بالاســـلام فى اوضاعه واتجاهاته الحديثة ، لم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هى الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين أو الجمعيات والمعـــاهد وأقســـام الدراسات الشرقية فى الجامعات الامريكية والأوربية ، بل انتقلت العناية الى دراسة الامم الاسلامية فى نهضاتها الحديثة والى ما ينشأ فيهـــا من حركات تجديدية واصلاحية والى مقدار تأثير التعاليم الاسلامية الاصـــلية فى تفكير الشعوب الاسلامية المعاصرة ؛ وما بين تلك الشعوب من مظـــاهر الاتفاق او الاختلاف او النزعات وألوان التفكير ، ومدى كل واحدة من التوفيق بين تعاليم الدين ومقتضيات الحياة العصرية والمعقدة وعلى الأخـــص فى التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد وأساليب الحكم ، وهل هناك معضلات تواجهها تلك الشعوب فى التوفيق بين المعتقدات الدينية ونتائج الفـــكر العلمى الحديث .

ولقد نظمت جامعة برنستون ، ومكتبة مجلس الشـــــيوخ الامريكى مؤتمرا للثقافة الاسلامية واقدمت ندوة فى معهد هوفر بجامعة ستانفورد ومؤتمر فى متنيسوتا عن معهد الدراسات الاسلامية فى كندا .

ويدرس الآن احوال الشرق الاسلامى الحديث والتصوف الاســـلامى فى جامعات اكسفورد وكمبردج وجامعات أوربا كافة ، كما انه المـــادة الرئيسية فى كلية الدراسات الشرقية والافريقية فى لندن(٥٢) .

---

(٥٢) المرجع السابق ص ١٦٩ .

الفصل الثاني

الاستشراق والتبشير

الاستشراق والتبشير

يعتبر التبشير بالدين المسيحى الهدف الأول من أهداف المستشرقين . اذا كنا قد عددنا أهدافا أخرى للاستشراق — فذلك حتى لانعمم فى حكمنا على جميع فئات المستشرقين ، وأن نعطى للفئة التى عملت فى هذا المجال — الحيدة المطلقة ، وبالبحث العلمى المجرد — حقها من التقدير .

والحقيقة أن فئات كبيرة من التى اعماها التعصب والجهل جرت وراء عملية التبشير رغبة فى الوقوف فى وجه الاسلام ، ومحاولة زعزعة العقيدة من قلوب المسلمين ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ومن اقوال زعما المبشرين المستشرقين عن أهداف التبشير قول لورانس براون فى كتابه « الاسلام والارساليات »(١) « اذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وامكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ؛ أما أذا ظلوا متفرقين ، فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير » .

ويفصح القس كالهون سيمون عن قوة التبشير فى تفريق المسلمين، وهو نفس المعنى الذى عبر عنه براون فيما قبل . بقوله فى كتابه « ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات ؛ ذلك لأن التبشير يعمل على اظهار الاوربيين فى ثوب جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها »(٢) .

فوحدة المسلمين اذا فى نظر التبشير يجب أن تفتت وأن توهن ، ويجب

---

(١) لورانس براون « الاسلام والارساليات » ص ٤٤—٤٨ .

(٢) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والاسلامى » ص ٣٨ .

ان يكون هدف التبشير هو التفرقة في توجيه المسلمين واتجاهاتهم . وهناك بجانب تفتيت وحدة المسلمين هدف آخر هو درء خطر وحدتهم وامتداد سلطانهم باستعمار الشعوب الاوربية واستغلالها واستنزافها ثرواتها . وفي هذا المعنى يقول لورانس براون أيضا « الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قوته على التوسع والاخضاع وفي حيويته انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي » (٣) .

ويرى المستشرق الالماني بيكر(٤) « أن هناك عداء من النصرانية للاسلام لإن الاسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سدا منيعا في وجه الاستعمار وانتشار النصرانية ، ثم امتد الى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها » .

وقريب من ذلك ما رآه غاردنر(٥) « ان القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوربا ، ويحاول المبشرون أن يروا العداوة بين الاسلام وبين الغرب دينية ، ولكن الحقيقة لا تلبث أن تظهر في فلتات لسانهم ، فاذا هي سياسية » .

أن يوليوس رشتر يؤنب النصارى على قصر نظرهم في اثناء العصور المتطاولة التي تلت ظهور الاسلام ، فانهم كانوا فيها وادعين غافلين وكانت الامبراطورية البيزنطية تغيب شيئا فشيئا في الامبراطورية الاسلامية حتى سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م بيد الأتراك العثمانيين(٦) . ولا ريب في أن رشتر يتألم للناحية السياسية لانه هو نفسه يذكر أن سكان الامبراطورية الشرقية كانوا نصارى بالاسم .

وعلى هذا الأساس أصبح الاتراك خطرا على أوربا منذ دخلوا في الاسلام ، لا لأنهم مسلمون بل لأنهم قد أصبحوا قوة تستطيع أن تقف في وجه الاطماع الأوربية ، حتى السنوسية ، وهي فرقة من المرابطين المجاهدين

---

(٣) المرجع السابق .
(٤) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٣٦ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) المرجع السابق ص ٣٧ .

نشأت فى طرابلس الغرب قد أصبحت على قلة اشياعها وقلة انتشارها قوة نرهب الاستعمار لا لشيء الا لان الاتحاد قوة تفسد على المستعمرين أعمالهم . ولقد بالغ المبشر صموئيل زويمر حينما هاله أن يرى نفرا من النصارى يدعون الى مصادقة المسلمين فى الدين ؛ ان هذه الصداقة فى راى زويمر تخلق فى نفس النصارى جبنا عن التبشير(٧) .

ومن المعروف بين جمهرة المبشرين المستشرقين أن صموئيل زويمر هذا كان يلقب « بالمختار الى العالم الاسلامى » ، وكانت مهمته تحويل العالم الاسلامى عن عقيدته ، ولم يكن يستكثر عن مهمته أن يتصدى لتحويل مكة والمدينة فى مقدمة المعاقل الاسلامية ، ولا تحويل القاهرة بما اشتملت عليه من معاهد الاسلام وذكرياته الباقية(٨) ، بل أن هناك مجموعة اخرى ساندت صموئيل زويمر هذا أفكاره كانت تقدم العون الواسع فى القضاء على الاسلام واعادته الى الصحراء من حيث جاء(٩) .

ومن مجموع هذه الآراء السابقة التى أحببت أن أسوقها فى مقدمة الموضوع لابد أننا نكون قد اقتنعنا أن ممارسة الاستشراق من أجل التبشير وخدمة الدين المسيحى لم تمته بظهور النزعة العلمية ، فقد ظل عدد من خدام المسيحية يمارسون الاستشراق لهذا الغرض نفسه وظل هذا الوضع الى يومنا هذا .

ولابد لنا أن نتتبع الوسائل التى يتخذها هؤلاء المبشرون المستشرقون فى تحقيق مخططاتهم ، وسنرى رأى واحد منهم وهو هـ. هـ وجيسوب يقول « من الضرورى أن يستخدم المبشرون جميع الطرق فى سبيل التبشير وأن يستغلوا جميع المناسبات ، كصناعة الطب والتعليم والوعظ ونقل الكتب من لغة الى لغة كلها يجب أن توجه توجيها يفيد التبشير »(١٠) .

والمبشرون مجمعون على أن جميع الوسائل مهما كانت يجب أن تستغل فى سبيل التبشير ، حتى اعمال البر يجب أن تستغل استغلالا محتما من ذلك

---

(٧) المرجع السابق ص ٣٨ .
(٨) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٦٩ــ١٧٠ .
(٩) محمد الغزالى « قذائف الحق » ص ٣٥ .
(10) Jessup. H.H. Fifty three years in Syria. P. 58

قولهم « كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير ، ويجب أن ... كذلك ، اما أعمال الاحسان فيجب أن نستعمل بحكمة كيلا نذهب فى غير سبيلها ، يجب أن تعطى الأموال أولا للبعيدين عن الكنيسة ثم تقل تدريجيا كلما اقترب أولئك من الدخول فى الكنيسة . فاذا دخلوها منع عنهم الاحسان مرة واحدة » ومن وسائلهم أنهم اذا دخل فى خدمتهم رجل لاينتمى الى مذهبهم حملوه على الدخول فيه .

ولابد لنا أن نوضح توضيحا دقيقا الاسلوب الذى يتخذه المبشرون فى نشر عقائدهم وفكرهم .

وأول هذه الوسائل هى الوسائل الثقافية ، فقد اتخذ المبشرون من التربية والتعليم وسيلتهم الأولى فى التأثير والتغيير الذى ينشدونه ، وقد ركزوا نشاطهم فى هذا الجانب على الجبهات والمستويات سالكين الى غايتهم طرقا شتى منها :

١ — استقبال المبعوثين الى الغرب :

بمحاولة التأثير الفكرى والثقافى على عقليتهم ، ومحاولة بث الشكوك حول العقيدة الاسلامية ، واغرائهم بوسائل التقدم المدنى الباهرة فى ... حتى يفتنوا عن دينهم ، فبذلك يعودون الى بلادهم وقد تغيرت أفكارهم وقيمهم ونظرتهم الى الدين والى الحياة والناس والى الماضى والحاضر والى النظم والشرائع والآداب والتقاليد وبذا يتضح ذلك فى سلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم وفيما يكتبون وينتجون فى ميدان الفكر والثقافة والتوجيه .

٢ — المدارس التبشيرية والأجنبية :

اتخذ المبشرون من المدارس العديدة التى انشأوها فى الشرق الاسلامى والتى حاولوا أن يضيقوا بها الخناق على المدارس والمؤسسات الوطنية أن يأخذوا الطفل منذ نعومة أظافره عجينة لينة ، فيبعدوه عن الاسلام بقدر ما يقربوه من النصرانية ، ويحببوه فى حضارة الغرب بقدر ما يبغضوه فى حضارة الشرق(١١) .

---

(١١) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٢٣ .

وقد صرحت المبشرة « آنا ميلجان » عن هدف هذه المدارس ومهمتها في بلاد العرب والمسلمين فقالت(١٢) :

« ان المدارس أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحى وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة » .

وتقول أيضا عن كلية البنات الخاصة بالقاهرة :

« فى كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن « باشوات وبكوات » وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنـــــات المسلمات تحت النفوذ المسيحى ، وليس ثمة طريق الى دحض الاسلام أقصر من هذه المدرسة » .

وكانت كل المذاهب المسيحية تقوم بجهودها التبشيرية فى جميع بلدان المســلمين .

ومن المنشور الذى أصدرته الجامعة الامريكية فى بيروت سنة ١٩٠٩م ردا على احتجاج الطلاب المسلمين لاجبارهم على الدخول يوميا الى الكنيسة يتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها ونص المادة(١٣) : « ان هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحى، هم اشتروا الأرض وهم اقاموا الأبنية وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه ، ولا يمكن للمؤسسة ان تستمر اذا لم يساعدها هؤلاء ، وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الانجيل من مواده فنعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب ان يعرف سابقا ماذا يطلب منه » .

٣ — المدارس الحديثة :

وهو انشاء مدارس تقوم الدراسة فيها على أسس غربية ، يشرف عليها المبشرون ويراقبونها ويوجهونها ، ويضع لها المبشرون المناهج والكتب التى تدرس فيهـــا .

---

(١٢) محمود شاكر « أباطيل وأسمار » ص ٤٢ .

(١٣) محمد البهى « المبشرون والمستشرقون » ص ١٠/٩ .

يقول المبشرجون تكلى(١٤) :

« يجب أن نشجع انشاء المدارس ، وان نشجع على الاخص التعليم الغربى ان كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانجليزية ، ان الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس امرا صعبا جدا » .

وهذا التصريح من جانب هذا المبشر يدلنا على أن غاية هؤلاء المبشرين ليست دينية خالصة كما يظن بعض الناس وانهم لا يرجون بعملهم هذا الله والدار الآخرة . فلو كان هذا هدفهم لاتجهوا أول ما يتجهون الى الملحدين والماديين الذين يكونون معظم سكان أوربا أو انجهوا الى الشعوب الوثنية . بدل أن يتجهوا الى اعظم أمة مؤمنة موحدة فى الأرض وهى أمة الاسلام .

ومما يؤكد هذا قول القس « زويمر » فى وصاياه للمبشرين :

« ينبغى للمبشرين ألا يقنطوا اذا رأوا نتيجةتبشيرهمللمسلمين ضعيفة اذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد الى علوم الاوربيين وتحرير النساء » .

والغريب أن المبشرين الذين اتخذوا من التعليم وسيلة هامة للتبشير لا نجدهم يهتمون بالعلوم العلمية ، بل حاولوا أن يجعلوا جميع مواد التعليم تخدم المسيحية والفكر المسيحى . ويرىهنرىجيسوب(١٥) « ان التعليم فى مدارس الارساليات المسيحية انما هو واسطة الى غاية فقط ، هذه الغاية هى قيادة الناس الى المسيح ، وتعليمهم حتى يصبحوا أفرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية ، ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية فى نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات، وخير الجراحين والأطباء فى سبيل الزهو العلمى ، فاننا لا نتردد حينئذ فى أن نقول ان رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيرى المسيحى الى مدى علمانى محض ، الى مدى علمى دنيوى ، مثل هذا العمل يمكن أن

---

(١٤) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٩٨ .

(15) H.H. Jessup. op cit. P. 378.

تقوم به جامعات هايدلبرج وكمبردج وهارفارد وشيفيلد ، لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى الى اهداف روحية فحسب » .

ويؤكد هذه الفكرة المستر نبروز الذي جاء سنة ١٩٤٨ م لتسلم زمام الجامعة الامريكية في بيروت فيقول(١٦) « لقد ادى البرهان الى ان التعليم اثمن وسيلة استغلها المبشرون الامريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان ومن أجل ذلك تقرر أن يختار رئيس الكلية البروتستانتية الانجيلية « الجامعة الامريكية اليوم » من مبشري الارسالية السورية » .

لذلك نرى ان المبشرين استغلوا التعليم لأن له أثرا فعالا بل هو أقوى وسائل التبشير ، وعلى هذا الاساس بدأ المبشرون في انشاء مدارسهم وكلياتهم ليؤثروا في قادة الراى في البلاد وفي الجيل الناشيء في الشرق الادنى خاصة .

٤ — استغلال الطب كوسيلة للتبشير :

كان المبشرون يتخذون من زيارة المسجونين ومن العمل في المستشفيات وسيلة الى التبشير ، وفي الحرب العالمية الأولى أخذت الدولة العثمانية عددا من الراهبات للعمل في المستشفيات ، فقال الكتاب المئوى اليسوعى عن هؤلاء « وفي منصبهن الجديد بقيت الاخوات مبشرات يلقن التعليم المسيحى ، ويعددن للمناولة الأولى ويعلمن الصلوات على الرغم من التحذير والتهديد اللذين كان المفتشون الاتراك يوجهونها اليهن »(١٧).

وهناك طريقة اخرى وهو انشاء مستشفيات مسيحية ، فيتوافد المرضى على العيادات الخارجية بها ، فيقوم الكاتب وهو واعظ انجيلي بتحرير بطاقة للمريض ، كما تقوم المرضة بمعرفة شخصيته المريضه وظروفها الخاصة ، وهذه التحريات كلها تصل تباعا الى مكتب قسيس المستشفى لتبويبها وتصنيفها .

ويلقى واعظ من قبل قسيس المستشفى قصة دينية قصيرة على

---

(١٦) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٦٧ .
(١٧) المرجع السابق ص ٤٩ .

جمهور المرضى المنتظرين ، فاذا دخل المريض المستشفى ، فانه يستمع لدرس دينى فى أصيل كل يوم ، وقد يتبعه عرض للفانوس السحرى ، ثم توزع على المرضى النشرات لقراءتها والتسلى بها .

وفى هذا كله تعقد بمكتب القسيس أو بمنزله ندوات تبشيرية فردية لمن يقبل على المسيحية ، واذا وثق القسيس باخلاصه أغدق عليه الهبات ما ينسيه الأهل والأصدقاء(١٨) .

٥ — الصحافة والاعلام والنشرات الدورية والمكتبات :

لم يقتصر نشاط الاستعمار الغربى على ميدان التعليم بمختلف طرقه واساليبه ، بل تعداه الى ميدان الاعلام والصحافة والمكتبات فهذه الميادين لا يقيدها ما يقيد المدرسة من مناهج ، ولا تختص بعدد محدود من التلاميذ، بل هى وسائل توجه الراى العام .

ويرى المستشرق جب فى كتابه « وجهة الاسلام » متحدثا عن أهمية الصحافة فى مجال الغزو الفكرى(١٩) .

« والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفى ، فليست هى فى حقيقة الامر الا الخطوة الاولى فى الطريق ، لانها لا تعنى شيئا فى قيادة الاتجاهات السياسية والادارية والوصول الى هذا التطور الابعد — الذى يدونه تظل الاشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية — يجب الا ينحصر الامر فى الاعتماد على التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية ، بل يجب أن يكون الاهتمام الاكبر منصرفا الى خلق رأى عام . والسبيل الى ذلك هو الاعتماد على الصحافة . ويقرر جب أن الصحافة هى اقوى الادوات الأوربية واعظمها نفوذا فى العالم الاسلامى .

٦ — الغزو الاجتماعى :

المقصود به ادخال العادات والتقاليد والأذواق الغربية فى حياة الأسرة المسلمة ، والمجتمع المسلم ، واستغلال الوسيلتين السالفتين

---

(١٨) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٦٠

(١٩) محمد حسين « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر » ص ٢٠٢ .

نى نحبيب ذلك الى النفس . واضفاء نعوت الرقى والتمدن على كل من بسلخون عن شخصيتهم الدينية والقومية ويمشون فى ركاب غاصبيهم تابعين مقلدين(٢٠) .

ومن مجموع الوسائل السابقة التى يتخذها المبشرون لنشر مبادئهم وافكارهم لخدمة الدين المسيحى . نجدهم يحاولون ان ينفذوا داخل المجتمع الاسلامى ليفتنوا المسلمين عن دينهم ، والحقيقة ان معظم المبشرين حينما يتعرضون فى كلامهم للدين الاسلامى ، نجد أنهم يخضعون لآفة هى آفة الجهل بالحقائق والعجز عن فهم الشرق والشرقيين . كما يفهمون هم أنفسهم فى حاضرهم وماضيهم .

والعجيب أن هؤلاء المبشرين حينما يكتبون عن الاسلام لا يكتبون من واقع المصادر التاريخية الاصيلة القديمة ، وانما يتركونها فى مكتبات علماء الدين وورثة اللاهوتيين من ابناء القرون الوسطى ، ويخرجون انتاجا لا يعتمد على أصول صحيحة فيكون مملؤا بالاباطيل والاغاليط ، فيسمم عقول الدارسين من المبشرين ، فيتخرجون مؤمنين بصدق دعوات التبشير ، وصواب الحملة على الاسلام كما فهموه ، ولو انهم فهموا أسرار اباطيلهم لارتدوا على أنفسهم واستطاع الاسلام أن يغزوهم فى معاقلهم ، فاذا هم يشرون أنفسهم ان يتفرقوا بين أنحاء العالم مستبسلين فى تبشير المسلمين وتنفير غير المسلمين من الاسلام(٢١) .

ولذلك أصبح التبشير بالنسبة للعالم الغربى وللبابوية بالذات مهنة يستدرون بها الرزق ، وكل هدفهم تشويه الاسلام ، فهم أصحاب مصلحة فى تشويه الدين الاسلامى وتمثيل المسلمين فى الصورة التى تذكى عند القوم جذوة التعصب وتملى لهم فى الجهالة والغفلة ، فلا يسرهم ان تظهر الحقيقة لهم ولم يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير(٢٢) .

---

(٢٠) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٣٢ .
(٢١) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ٢٠٦ .
(٢٢) المرجع السابق ص ١٠ .

الفصل الثالث

الإسلام وموقف المستشرقين منه

الإسلام وموقف المستشرقين منه

عمل المستشرقون منذ بدء ظهور حركة الاستشراق فى الغــرب على الهجوم على الدين الاسلامى ، وعلى النبى الكريم محمد صلى الله عليــه وســـلم .

والحقيقة التى لا جدال فيها ان الاسلام الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم وكان القرآن مصدره الأول ليس — كما يظن الحاقدون — دينا لاهوتيا وليس عقيدة فقط تعنى بالجانب الروحى للانســان دون أن تعنى بتنظيم علاقته بالكون ، وعلاقته بالحياة وعلاقته باخوانه بنى الانســـان افرادا واسرا ومجتمعا ودولا .

كلا ان الاسلام عقيدة شاملة ينبثق عنها نظام عالمى كامل : تقوم على اساسه أمة عالية متوازنة أبرز سماتها ما وصفها به القــرآن « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »(١) وقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٢) .

وللعقيدة الاسلامية مزايا وخصائص لا تتوفر لـ غيرها من العقـــائد الدينية فهى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها تتلخص فى ان وراء هذا العالم المنسق البديع المحكم ربا واحدا خلقه ونظمه وقدر كل شىء فيه تقديرا وهذا الرب والاله ليس له شريك ولا شبيه ، ولا صاحبة ولا ولد ، بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون .

وهذه عقيدة واضحة مقبولة ، فالعقل دائما يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ؛ ويريد أن يرجع الاشياء دوما الى سبب واحـــد والواقع المطرد يثبت ابدا أن تعدد الارادات لا ينتج عن أثر متكامل أو نظام

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٦٠ .

منسق ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة فيقول « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا »(٣) « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض »(٤) .

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ، ولا مناقضة لها ؛ بل هى منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ؛ لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون »(٥) .

وهى عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل فليس لحاكم من الحكام او مجمع من المجامع العلمية أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية أن يضيف اليها او يحور فيها وكل تحوير أو اضافة مردود على صاحبه ونبى الاسلام يقول « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد »(٦) أى مردود عليه والقرآن يقول : « أم لهم شركاء وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله »(٧) وعلى هذا فكل البدع والخرافات والاضافات التى لصقت بعقائد المسلمين أو دست فى بعض كتبهم أو اشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الاسلام ولا تؤخذ حجة عليه . وكل ما هو معمول به فى الاسلام انه قد اتصلت بالقرآن — بعد أن انتقل الرسول الكريم الى الرفيق الاعلى — افهام العلماء والائمة ، فما لم يكن من آياته نصا فى معنى واحد . ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر الانسانى وكثرت الاراء والمذاهب فى النظريات والعمليات لا على انها دين يلتزم وانما هى آراء وافهام فيما هو من القرآن محتمل للاراء والافهام يرد منها كل ذى راى مذهبا رأية الى الدلالة التى فهمها هو من النص القرآنى بمعونة ما صح عنده من أقوال الرسول أو افعاله أو من القواعد العامة التى ترمى اليها روح الدين عامة ، وهذا الصنيع لم يكن من هؤلاء الائمة وفى معتقدهم الا اجتهادا فرديا

(٣) سورة الانبياء ، آية ٢٢ .
(٤) سورة المؤمنون ، آية ٩١ .
(٥) سورة الروم ، آية ٣٠ .
(٦) القرضاوى والعسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ١٥ .
(٧) سورة الشورى آية ٢١ .

لا يوجب واحد منهم على احد من الناس ان يتبعه . بل تركوا لغيرهم ممن له أهلية الفهم حرية التفكير والنظر .

أما العقائد الاصلية كالايمان بالله واليوم الآخر وأصـــول الشريعة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة النفس والعرض والمال ، فان نصـــوصها جاءت فى القرآن بينة واضحة لا تحتمل اجتهادا ولا افهاما .

ومن هنا كثرت الآراء والمذاهب فيما يتصل بالفروع التابعة للعقائد الاصلية وفيما يتصل بالعمليات التابعة لأصول الشرائع والأحكام (٨) .

واذا دلت طبيعة الاسلام هذه على شىء فانما تدل على أنه دين يتسع للحرية الفكرية الكاملة . وانه لا يقف فيما وراء عقائده الأصلية وأصول تشريعه على لون واحد من التفكير أو منهج واحد من التشريع . وقد كان بتلك الحرية دين ايســاير جميع أنواع الثقافات الصحيحة والحضارات النافعــة التى يتفتق عنها العقل البشرى فى صـــلاح البشرية وتقدمها مهما ارتقى العمل وعنت الحياة .

وقد بدا المستشرقون يجدون فى هذا الدين القوى المتين مادة خصبة لاستعراض آرائهم وعرض ردودهم على الاسلام ، كل منهم كما ذكرنا له دافع قوى وراء كتاباته هذه ، فمنهم من يخدم السياسة ويصطنع لغـــة الدعاية تارة ، ولغة الدبلوماسية تارة أخرى ، ومنهم هؤلاء المستشرقون الذين نشأوا فى العصر الحديث بمعزل عن دوائر التبشير ودوائر السياسة ومنهم من ينشد الرأى خالصا لوجه الحقيقة العلمية ولكنه مشوب بالقصور الذى لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب فى لغة أخرى وهو ليس من أبنائها ، ولا هو من الأدباء فى لغتـــه التى نشأ عليها . وبعضهم لا رأى له فى أدب بلاده لانه لم يشتغل به . ولم يتأهب له بعدته من الذوق والفطنة التى تؤهله للمختص فيه ، فليست معرفته بالعربية لمدة كافية له فى تقدير الادب العربى لانه يعرف لغته . ولا معول على رأيه فى أدبها بين قومه(٩) .

---

(٨) ابراهيم اللبان : المستشرقون والاسلام ص ٣٤ .
(٩) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ٦ .

ويكتب عن الاسلام فى الغرب أناس يتشيعون له بمقدار ثورتهم على سلطة الدين فى بلادهم . فهم يطلعون محاسنه ويقابلون بها مساوىء السلطة التى يثورون عليها ، ولا يندر فيهم من ينصف الاسلام ويهتدى الى محاسنه السمحة ، وان لم يدن به ولم يكن على دين غيره(١٠) .

ومن حقنا — بل من واجبنا أن نعرف ما يقال عنا ، وان نعرف كل قول من تلك الأقوال بقيمته وقيمة من يصدر عنه ، لأننا قد نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر اليها الغرباء عنا . وعرفنا مبلغ الصدق والفهم فيما يصفوننا به من هوى وجهالة وعن دراية وحسن نية .

ورأيت ان ابدأ كلامى عن موجة الهجوم التى يقوم بها المستشرقون ضد الاسلام بعرض لآراء بعضهم وهى آراء تنصف الاســــلام ونبى الاسلام والمسلمين ؛ بل اننا اخذناها كشهادة لنا من عدونا ؛ (والفضل ما شهدت به الاعداء) .

وآثرت أن أبدأ بعرض لوجهة نظر حديثة وبأحدث كتاب صـــدر فى نهـاية ســـنة ١٩٧٨ م وهـــو « الخـــالدون مائة » (١١) والذى الفـــه ميخـــائيل هارت العــــالم الأمريكى الذى بدأ ينقب فى جميع مشـــاهير العـــالم من رســـل وانبيـــاء ورجال دين وعلمـــاء وفنانين وأدباء الى غير ذلك من أنواع المشـاهير ، وبعد أن درسهم دراسة محضة ودقيقـــة على اعتبارات كثيرة وجد ان رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم على راس الشخصيات المـائة التى اختارها لـــكتابه . وان ما جاء به هذا الرسول هو الحق على الرغم من أن هذا الكاتب مسيحى ولا يدين بالاسلام ، يقول ميخائيل هارت :

« لقد اخترت محمدا (صلى الله عليه وسلم) فى أول هذه القائمة ولابد ان يندهش كثيرون لهذا الاختيار ، ومعهم حق فى ذلك ، ولكن محمدا

---

(١٠) المرجع السابق .

(11) M. Hart. The 100 A Ranking of the m st—influntial persons—in History.

عليه السلام هو الانسان الوحيد فى التاريخ الذى نجح نجاحا مطلقا على المستوى الدينى والدنيوى .

وهو قد دعا الى الاسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات ، وأصبح قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا وبعد ثلاثة عشر قرنا من وفاته . فان أثر محمد عليه السلام لايزال قويا متجددا » .

وظل الكاتب يستعرض تاريخ الرسول صلعم منذ ولادته ونشأته وتربيته وأخلاقه ووضعه فى قومه ثم زواجه وبعثته ودوره فى نشر الاسلام وما لاقاه من اضطهاد فى الدور المكى ثم هجرته وما قدمه من جهد فى نشر الدعوة ومحاربة مشركى مكة حتى انتشر الاســـلام فى جميع أرجاء الجزيرة العربية ، ويذكر ضمن كتابه قوله « والاسلام مثل كل الديانات الكبرى كان له أثرعميق فى حياة المؤمنينبه ، ولذلك فمؤسسوا الديانات الكبرى ودعاتها موجودون فى قائمة المائة الخالدين .

وربما بدا شيئا غريبا حقا أن يكون الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على رأس هذه القائمة ، رغم أن عـــدد المسيحيين ضعف عـــدد المسلمين ، وربما بدا غريبا أن يكون الرسول عليه السلام هو الرقم الأول فى هذه القائمة ، بينما عيسى عليه السلام الرقم الثـالث وموسى عليـه السلام الرقم السادس عشر .

ولكن لذلك أسباب : من بينها أن الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم كان دوره أخطر وأعظم فى نشر الاسلام وتدعيمه وارساء قواعـــد شريعته وأعظم وأكثر مما كان لعيسى عليه السلام فى الديانة المسيحية، وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادىء الأخلاقفى المسيحية ، الا أن القـديس بولس هو الـذى أرسى أصـــول الشريعـــة المسيحية ، وهو أيضا المسئول عن كتابة الكثير مما جاء فى كتب « العهد الجديد » . أما الرسول صلى الله عليه وسلم فهو المسئول الأول والأوحد من ارساء قواعد الاسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعى والأخلاقى وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم الدينية والدنيوية ، كما أن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده وفى القــران الكريم وجـــد المسلمون كل مايحتاجون اليه فى دنياهم وآخرتهم . والقرآن الكريم نزل على الرسول

صلى الله عليه وسلم كاملا ؛ وسجلت آياته وهو مايزال حيا وكان تسجيلا فى منتهى الدقة ، فلم يتغير منه حرف واحد وليس فى المسيحية شيء مثل ذلك . فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن الكريم وكان اثر القرآن الكريم على الناس بالغ العمق ولذلك كان اثر محمد صلى الله عليه وسلم اكثر واعمق من الاثر الذى تركه عيسى عليه السلام على الديانة المسيحية .

فعلى المستوى الدينى كان أثر محمد صلى الله عليه وسلم قويا فى تاريخ البشرية وكذلك كان عيسى عليه السلام. وكان الرسول عليه السلام على خلاف عيسى عليه السلام ، رجلا دنيويا ، فكان زوجا وأبا وكان يعمل فى التجارة ويرعى الغنم وكان يحارب ويصاب فى الحروب ويمرض . ثم مات .

ولما كان الرسول صلعم قوة جبارة فيمكن أن يقال أيضا أنه أعظم زعيم سياسى عرفه التاريخ .. فهذا الامتزاج بين الدين والدنيا هو الذى جعلنى أومن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو أعظم الشخصيات أثرا فى تاريخ الانسانية كلها » .

هذا رأى حديث ينصف الاسلام ورسول الاسلام ويعطيه حقه ؛ وأصبح رسول الله بشاهدتهم أعظم انسان فى الوجود .

وهناك مؤرخ آخر أنصف الاسلام وتعاليم الاسلام وحضارته وهو العالم سير توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » (١٢) .

يقول : « لم تجيء مهمة تبليغ الرسالة فى تاريخ الاسلام بعد تريث وتفكير ولكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية ؛ وقد نرى ذلك واضحا فى هذه الآيات القرآنية التى ننقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها . « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٣) .

---

(١٢) توماس أرنولد « الدعوة الى الاسلام » ص ٢٧—٢٨ .

(١٣) سورة النحل آية ١٢٥ ذكرت خطأ فى الترجمة العربية ١٢٦ .

« وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا واليه المصير » (١٤) .

وفى الآيات المدنية نجد مثل هذه التعاليم . وقد نزلت على محمد بعد أن أصبح على رأس جيشه الكبير فى ذروة سلطانه .

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (١٥) .

« كذلك يبين الله لكم اياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ».

وهكذا كان الاسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية أو الناحية التطبيقية . وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها . وكان النبى نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين . الذين وفقوا الى ايجاد سبيل الى قلوب الكفار ؛ على أنه ينبغى الا نلتمس على روح الدعوة الاسلامية فى قسوة المضطهد — أو عسف المتعصب ولا حتى فى مآثر المحارب المسلم ، ذلك البطل الأسطورى الذى حمل السيف فى احدى يديه وحمل القرآن فى اليد الأخرى وانما نلتمسها فى تلك الأعمال الوديعة الهادئة التى قام بها الدعاة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم الى كل صقع من الأرض ، على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا الى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية فى نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والاقناع ، بخلاف مازعم بعضهم حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرا مستحيلا، يتنافى مع الأساليب السياسية ، فلقد جاء القرآن مشددا فى الحض على هذه الطرق السلمية فى غير آية منه مثال ذلك :

---

(١٤) سورة الشورى آية ١٤—١٥ ذكرت خطأ فى المرجع السابق آية ١٣ — ١٤ .

(١٥) سورة آل عمران آية ٢٠ ذكرت خطأ فى المرجع السابق آية ١٩

« واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ، وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » (١٦) .

« الا بلاغا من الله ورسالاته » (١٧) .

« قل للذين آمنــوا يغفروا للذين لا يرجــون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » (١٨) .

« وقال الذين اشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين » (١٩) .

« فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين » (٢٠) .

ولا تجادلوا أهل الـكتاب الا بالتى هى أحسن الا الـذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينـا وأنزل اليكم . والهكم واحد ونحن له مسلمون » (٢١) .

« فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ »(٢٢)

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٢٣) .

« وما أرسلنك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٢٤) .

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المـكية ، وانما وردت بكثرة فى الآيات المدنية كقوله تعالى : « لا اكراه فى الدين » (٢٥) .

---

(١٦) سورة المزمل آية ١٠ .
(١٧) الجن آية ٢٣ ذكرت خطأ فى المرجع آية ٢٤ .
(١٨) الجاثية آية ١٤ ذكرت خطأ ١٣ .
(١٩) النحل آية ٣٥ ذكرت خطأ ٣٧ .
(٢٠) النحل آية ٨٢ ذكرت خطأ ٨٤ .
(٢١) العنكبوت آية ٤٦ ذكرت خطأ ٤٥ .
(٢٢) سورة الشورى آية ٤٨ ذكرت خطأ ٤٧ .
(٢٣) سورة يونس آية ٩٩ .
(٢٤) سورة سبأ آية ٢٨ ذكرت خطأ ٢٧٩ بالرغم من أن عدد آيات هذه السورة ٥٤ آية .
(٢٥) سورة البقرة ٢٥٦ ذكرت خطأ ٢٥٧ .

« واطيعوا الله واطيعوا الرســـول فان توليتم فانما على رسولنـــا ابلاغ المبين » (٢٦) .

« قل يا أيهما الناس انما أنا لـــكم نذير مبين » (٢٧) .

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » (٢٨) .

وهناك ايضا من المستشرقين امثال المستشرق فنلى فى كتابه « اليونان تحت حكم الرومان » (٢٩) « أن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم واثبت البلدان قــدما فى القــانون مدى أجيــال طويلة فى شتى نواحى الهيكل الاجتماعى دليل على ان هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات ممتازة » .

أما وليم موير الانجليزى فيقول فى كتـــابه « حيـــاة محمد » (٣٠) « ومن صفاته عليه السلام الجديرة بالتنويه والاجلال الرقة والاحترام اللتان كان يعامل بهما اتبـــاعه حتى اقلهم شأنا ، فالتواضع والرأفة الانسانيـــة وانكار الذات والسماحة والاخاء تغلغلت فى نفسه ووثقت به محبـــة كل من حوله » .

أما السير توماس كارليل فيقول فى كتابه « الأبطال » (٣١) « لقد أصبح من العار على أى فرد متمدن من أبنـــاء هذا العصر أن يصغى الى تلك الاتهامات التى وجهت الى الاسلام والى نبيه ، وواجبنـــا أن نحارب ما يشـــاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التى أداها ذلك الرســـول الـــكريم مازالت السراج المنير لنحو أربعمائة مليـــون من النـــــاس »

---

(٢٦) سورة التغابن آية ١٢ .
(٢٧) سورة الحج آية ٤٩ ذكرت خطأ آية ٤٨ .
(٢٨) سورة المــائدة ١٣ ذكرت خطأ آية ١٦ .
(٢٩) منير البعلبكى « دفاع عن الاسلام » ص ٤٧ .
(٣٠) المرجع الســـابق .
(31) T-A Carlel. The Herows and Herows Warshig P. 13

أما برنارد شو فيقول (٣٢) « لقد وضعت دائما دين محمد (صلعم) موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جوابا لكل جيل من الناس » .

وبذلك نرى ان هناك فريقا من المستشرقين المنصفين حاولوا أن يكونوا وجهة نظر محايدة . وأن يكونوا أمناء فى دراساتهم ، وأن يتخلوا عن العصبية والتعصب فى عرضهم للاسلام ومبادئه .

ولكن منهم فريقا ألقوا عن المسلمين عامة وعن المسلمين العرب خاصة ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية أو النازية فى السياسة والاجتماع وطائفة أخرى هى طائفة الماديين الملحدين الذين يدعون الى هدم المجتمعات القائمة . ويقولون بأن الاديان كافة عقبة تعترض الاصلاح الاجتماعى الذى يلغى الروحيات ويستبدل بها الماديات فى كل مطلب من مطالب الدنيا ولا حياة غيرها لانسان .

ونصيب الاسلام عند هؤلاء الملحدين الماديين أوفر الانصبة وأولاها بالتقديم فى خطة الهدم والتشويه لأن المسيحية لاتزاحم مذهبهم الاجتماعى بمذهب شامل لمسائل التشريع والنظم الاجتماعية والحكومية . ولكن الاسلام يقيم المجتمع على نظامه ، ويقرر الحقوق والواجبات بنظامه ويحيط بشئون الدين والدنيا فى حياة الاحاد وحياة الجماعات وتغيير البناء الجديد على أساسه الخالد دون أن يضطر المسلم الى انكار قاعدة من قواعد العبادات فيه والمعاملات (٣٣) .

لهذا لابد أن نصل الى نتيجة هامة وهى أن عمل المستشرقين يناقض فى كثير من الأحوال الطابع العلمى الصحيح . لهذا السبب ولغيره من الأسباب . ولم يكن الانحراف عن جادة البحث العلمى خاصا بطائفة من المستشرقين دون أخرى ، فقد كان من الصعب عليهم وأكثرهم مسيحيون متدينون أن ينسوا أنهم يدرسون دينا ينكر عقيدة التثليث وعقيدة الصلب

---

(٣٢) منير البعلبكى « دفاع عن الاسلام » ص ٤٨ .

(٣٣) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ٩ .

والفداء . وهما أسس الدين المسيحى . كما كان من العسير أيضا أن يتغافلوا عن الفتوحات الاسلامية التى بدأت فى عهد الخليفة الاول أبى بكر فقضت على المسيحية واحلت الاسلام محلها .

الحقيقة أن هذه الحقائق عملت عملها فى نفوسهم فدفعتهم الى الانحراف والتخلى عن مبدأ الحيدة التامة فيما يتعاطون من دراساتهم ومن هنا صار من الطبيعى الا نأخذ نتائجهم بروح التسليم والثقة وأصبح من الواجب أن ننظر اليها بعين الحذر والتحفظ .

ومما يؤكد قولنا هذا هو أن هناك فريقا آخر من المستشرقين الذين حاولوا أن يتجردوا من العواطف الدينية . وقد أعربوا عن انكارهم للانحراف العلمى الذى وقع فيه كثير من زملائهم وسنورد بعضا مما قالوه من هذا الصدد .

يقول الأستاذ مونتجمرى وات (٣٤) .

« جد الباحثون منذ القرن الثانى عشر فى تعديل الصور المشوهة التى تولدت فى أوربا عن الاسلام : وعلى رغم الجهد العلمى الذى بذل فى هذا السبيل ؛ فان آثار هذا الموقف المجافى للحقيقة التى احدثتهاكتابات القرون الوسطى فى أوربا لازالت قائمة : فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها » .

ويقول الاستاذ برنارد لويس فى كتابه « العرب فى التاريخ » (٣٥) « لا تزال آثار التعصب الدينى الغربى ظاهرة فى مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة فى الغالب وراء الحواشى المرصوصة فى الأبحاث العلمية » .

ويقول الاستاذ المستشرق الانجليزى جب فى كلامه عن بحوث المستشرقين « لقد قامت فى صفوفهم فى السنوات الأخيرة محاولةايجابية

---

(٣٤) ابراهيم اللبان « والمستشرقون والاسلام » ص ٣٦ .

(٣٥) برنارد لويس « العرب فى التاريخ » ص ٦٢ .

تحاول النفوذ بصدق واخلاص الى اعماق الفكر الدينى للمسلمين ، بدل السطحية الناضجة التى اصطفت بها دراساتهم السابقة » (٣٦) .

وعلى الرغم من ذلك ، فان التأثر بالأحكام التى سبق أن صدرت عن الاسلام واتخذت صورة تقليد منهجى فى الغرب مازال قويا فى بحوثهم » .

ويقول الأستاذ نورمان دانيل « على رغم المحاولات الجدية المخلصة التى بذلها بعض الباحثين فى العصور الحديثة للتحرر من المواقفالتقليدية للكتاب المسيحيين عن الاسلام ، فانهم لم يتمكنوا ان يتجردوا منها تجردا تاما كما يتوهمون (٣٧) .

لا نريد ان نمضى الى ابعد من هذا فى ايراد الأحكام التى صدرت من بعض المستشرقين المنصفين على زملائهم المتعصبين ، فهذا القدر كاف بالنسبة لغرضنا .

---

(٣٦) ابراهيم اللبان « المرجع السابق » ص ٣٦ .
(٣٧) المرجع السابق ص ٣٧ .

هجوم المستشرقين على الإسلام

من أهم من كتب فى الهجوم على العقيدة الاسلامية المستشرق اليهودى الاصل المجرى المولد جولدزيهر والذى يعتبر من اشهر علماءالغرب فى مجال الاستشراق ، لانه قد قصد اشهر مدارس الاستشراق للدراسة فى برلين وليبزج وبودابست ، وسافر الى سوريا سنة ١٨٧٣ وصحب فيها الشيخ طاهر الجزائرى ، ثم توجه الى فلسطين ومصر ، حيث تضلع فى العربية على شيوخ الأزهر (١) وعلى الرغم من ذلك الا انه فى جميع آرائه واحكامه عن الاسلام لم يتخل عن نزعته اليهودية فألف كتابا عن « تاريخ الجنس البشرى » صور فيه الاسلام انه من وضع محمد عليه الصلاة والسلام وأن محمداً كان تلميذا لليهود » .

والواقع أن فكرة استمداد الرسول القرآن من اليهودية قد استخدمها المستشرقون أوسع استخدام ، فانهم لم يقتصروا على أن ادعوا أن الرسول استمد القصص القرآنى من قصص التوراة ، بل ذهبوا الى ابعد من هذا ، فادعوا أن الرسول استمد كثيرا من احكام الشريعة الاسلامية وفى قاموس الاسلام لهيوز نرى نماذج كثيرة لهذه المحاولة ففى مادة اليهودية يحاول هيوز أن يرينا كيف اعتمد الرسول على اليهوية فاقتبس منها كثيرا من احكام الطهارة وغيرها (٢) .

ويشارك جولدزيهر رأيه « جورج سيل » وهو أحد مترجمى القرآن المبكرين يقول فى مقدمة ترجمته :

« ان محمدا كان فى الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسى له فأمر لايقبل الجدل ، وان كان من المرجح ، مع ذلك أن المعاونة التى حصل

---

(١) نجيب العقيقى « المستشرقون » ص ٢٨١ .

(٢) اللبان « المرجع السابق » ص ٤٥ .

عليها من غيره فى خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة ، وهذا يوضح فى أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك نفسه » (٣) .

واذا كان جورج سيل قد بت فى مصدر القرآن على النحو السابق فجعل الرسول مؤلفه دون مواربة ، فان الاستاذ « ريتشارد بل » مؤلف كتاب مقدمة القرآن قد سد النقص الذى تركه جورج سيل فى تلك الأكذوبة فاستظهر أن الرسول قد استمد من الكتاب المقدس كثيرا مما جاء فى القرآن وبخاصة القصص فهو يقول :

« واعتماده على الكتاب المقدس وبخاصة العهد القديم فى قسم القصص فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية ولكن الجانب الأكبر من المادة التى استعملها محمد لبفسر تعاليمه يدعمها قد استمده من مصادر يهودية ومسيحية . وعنده انه حصل على أوسع فرصة للاستمداد من الكتاب المقدس حينما هاجر الى المدينة فهو يقول « وفى المدينة كان محمد بالنسبة لمعرفة مافى كتاب العهد القديم فى وضع افضل من وضعه السابق فى مكة فقد كان على اتصال بالجاليات اليهودية التى كانت دون شك تضم ربانيين ومثقفين ، وهنساك دلائل على أنه انتفع بهذه الفرصة فحصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل » (٤) .

الى جانب ماكتبه جورج سيل ، فهناك ماكتبه ج. ايزاك فى كتابه « محاضرات للشرق الأدنى فى العصور الوسطى » جاء فيه ص ٣١ . واتفق لمحمد فى أثناء رحلاته أن يتعرف شيئا قليلا من عقائد اليهود والنصارى ، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولا .

ص ٣٢ : والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما هو يتكلم " وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم على الاسلام بالسيف اذا اقتضت الضرورة .

---

(٣) اللبان « المرجع السابق » ص ٤٣—٤٤ .
(٤) المرجع السابق — ص ٤٥ .

ص ٣٦ : وبينمــا كان محمــد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلمــاته على عجل .

ص ١٢٦ : ودخلت فلسطين في سلطان الــكفرة منذ القرن السابع الميــلادى (٥) .

وهنــاك كتاب اخر اسمه « تاريخ فرنســا » تأليف هـ. غيومان ، ف. لوستيي .. جاء فيه :

ص ٨٠ — ٨١ : « ان محمدا مؤسس دين المســلمين ، قــد أمر اتباعه ان يخضعوا العالم ، وان يبدلوا جميع الأديان بدينــه هو ، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين ، وبين النصارى . ان هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس « اسلموا أو تموتوا » فى حين أن أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم واحسانهم . ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا ، اذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين » (٦)

وفى مسألة وضع القرآن يسير المستشرقون فى هذا الاتجاه الخاطىء ويؤكدون على آرائهم فى أن القرآن الــكريم موضوع وليس وحيــا من عند الله ، وأنه مرآة لأفق خاص بين الحياة هو افق من عقائد تلك العقائد المنتشرة فى رقعة الجزيرة العربية لا ســواها . ومن هؤلاء المستشرقين المستشرق الانجليزى جب استاذ الدراسات العربيــة بجامعــة هارفارد بالولايات المتحدة . فى كتابه « المذهب المحمدى » وكتاب سنكلير تســدل « مصادر الاسلام » فهما يؤكدان أن شرائع الاســلام تأسســت من شرائع الأديان المعاصرة له والمنتشرة وقتئذ فى الشرق الا وهى اليهودية والمسيحية والهندية والصابئة والفارسية والجاهلية (٧) .

ويحسن بنــا ان نورد نموذجا لافتراءاتهم فى هذا الموضوع ليتبين لنا مدى خطورة مايكتبون فى كتبهم .

---

(٥) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٧٤ .
(٦) المرجع الســابق ص ٧٥ .
(٧) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٣٠ .

لقد زعموا أن الاسلام اخذ من الجاهلية صلاة الجمعة وصوم عاشوراء وتطييب البيت الحرام وحظ الذكر فى الميراث مثل حظ الأنثيين ، التكبير ، الأشهر الحرم ، والحج والعمرة ، نتف الابط والوضوء والاغتسال والختان وتقليم الأظافر .

واخذ من الصابئة الصلوات الخمس ، والصلاة على الميت ، وصيام شهر رمضان ، والقبلة وتعظيم مكة ، وتحريم الميتة ولحم الخنزير ، وتحريم الزواج من القرابات .

واخذ من الهندية والفارسية ، قصة المعراج والجنة والحور والولدان والصراط .

واخذ من اليهودية ، قصة قابيل وهابيل ، وقصة ابراهيم وقصة ملكة سبأ وقصة يوسف .

واخذ من النصرانية قصة اهل الكهف وقصة مريم العذراء وقصة طفولة يسوع .

ومن هذا يخلصون بآرائهم الى القول بأن القرآن ليس وحيا من الله اذ أنه لو كان وحيا من عند الله لكان للناس جميعا فى كل مكان وكل زمان (٨) وأمام هذه النزعات الخطيرة ضد الاسلام يقول الله سبحانه فى شأن القرآن « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٩) ويقول عن الرسول الكريم وعن العرب الذين بعث فيهم « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لم يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (١٠) ويقول « انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون تنزيل من رب العالمين » (١١) ويقول « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل

---

(٨) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٨٤ .
(٩) سورة الحجر آية ١٥ .
(١٠) سورة الجمعة آية ٢ : ٤ .
(١١) سورة الحاقة آية ٤٠—٤٣ .

يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » (١٢) ويقول جل وعلا فى عموم رسالته « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١٣) .

ويرى الأستاذ عباس العقاد فى هؤلاء الذين ينقدون القرآن « المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الاسلام آفة من هذه الآفات ، فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط فى التفكير كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية ، او يملكه التعصب الذميم فيقوده الى المغالطة ، ويسول له ان يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه ، أو يعمل عمل المحترف الذى يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ، ولا يعنيه الا أن يعرض بضاعته ويهيىء لها اسباب النفاق فى السوق ، وربما اكتفى من النفاق باقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة فى العرض والترويج »(١٤) فالقرآن الكريم معجزة خالدة لرسالة خالدة ، ودراسته تنفى أن يكون شىء من كلام البشر ، والموازنة بينه وبين الأحاديث النبويه تؤكد أن النبى محمدا صلى الله عليه وسلم لا قدر له على الاتيان بقرآن مثله وما فيه من تشريع دينى واجتماعى وسياسى وقوانين ومعاملات وشئون اسرة وعلاقات خارجية ونظام حروب لايمكن أن يقوم به فرد واحد مهما كانت دراسته ، الى جانب اخبار القرآن بأقاصيص الأمم السابقة وأنباؤه بحوادث مستقبلة ، وتحدثه عن خواطر أنفسنا ونوازعنا وغرائزنا مالم نهتد اليه الا فى ضوء علم النفس الحديث ، وقد ألفت كتب عديدة لدرس الاعجاز القرآنى (١٥) .

فمن ذلك نخلص الى أن جميع هذه الافتراءات التى يفترى بها المستشرقون على القرآن الكريم ، الذى هو مصدر الهى بلفظه ومعناه ، ليس من عمل محمد ، وانما هو قول وحى كريم هو جبريل تلقاه من لدن حكيم عليم ثم اوحاه بلسان عربى مبين الى قلب محمد فتلقفه محمد منه كما يتلقن

---

(١٢) سورة الأعراف آية ١٥٧ .

(١٣) سورة سبأ آية ٢٨ .

(١٤) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٦٩ .

(١٥) عبد الجليل شلبى « الاسلام والمستشرقون » ص ٦٩ .

التلميذ من استاذه نصا من النصوص ولم يكن له من عمل بعد ذلك الا :

١ ــ الوعى والحفظ « سنقرئك فلا تنسى » .

٢ ــ الحكاية والتبليغ « وقــرآنا فرقناه لتقرأه على النــاس على مكث ونزلنــاه تنزيلا » .

٣ ــ البيان والتفسير « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم » .

٤ ــ التطبيق والتنفيذ « انا أنزلنا اليك الــكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله » (١٦) .

وقد نقل الينــا هذا القرآن كاملا متواترا نقلته أجيــال عن أجيــال تلاوة بالالسنة ، وحفظا فى الصدور ، وكتابة فى المصاحف وشهادة فى التاريخ بتواتر هذا الــكتاب شهادة ناصعة لا يماثلها ولا يدانيها شهادة لــكتاب غيره ظهر على وجه الارض . هذا الــكتاب هو المصــدر الوحيد لعقائد الاســلام والمصدر الأول لنظمه وتشريعاته وآدابه وتوجيهاته وقد تلقاه المسلمون بالشرح والتفسير والتحليل ، كل فى مجال عمله واختصاصه واستنبطوا منه أحكام دينهم وأصــول مجتمعهم ، هذا فى مجال العقيدة، وذاك فى مجال الفقــه والتشريع وثالث فى مجال الآداب والأخلاق .وقد وضعوا الأسس السليمة والقواعد المتينة لفهم هذا الــكتاب والاســتنباط منه وفق ماعرفوه من اساليب لغتهم العربية وما خطبه لهم النبى من توجيهات وما فهموه من جملة تعاليم الاسلام وروحه العامة .

ولم يجد هؤلاء العلماء فى آيات هذا الــكتاب الا التناسق والائتلاف فهى يصدق بعضها بعضا ويفسر بعضها بعضا وما يظنه القاصرون الذين يجهلون اسرار اللغة العربيــة واساليبها تعــارضا أو اختــلافا فما هو بالتعارض أو الاختلاف ، وانما هى نصوص عامة تقيدها نصوص خاصــة أو آية مطلقة تفسرها آية مقيدة وهكذا (١٧) .

نعم ان فى القرآن آيات محكمات واخر متشابهات ، كما قال تعالى : « هو الذى انزل عليك الــكتاب منه آيات محكمات هن أم الــكتاب واخر

---

(١٦) القرضاوى والعسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص٣٥
(١٧) المرجع السابق ص ٣٦ .

متشابهات . فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الى الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب » (١٨) .

ويقف المستشرقون المعاصرون عند نصوص معينة من القرآن يتخذون من فهمهم الخاطىء لها دليلا على أن محمدا استقى تعاليمه من الكتابيين وليس فيها دليل على مايريدون . فقد ذكر المستشرق الانجليزى الفرد جيوم (١٩) والمستشرق الأمريكى فردريك بلس أن الآية التى تقول : « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوأ وما كانت أمك بغيا » (٢٠) قد اختلطت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول جيوم ان محمدا كان دارسا مبتدئا للكتاب المقدس فظن أن مريم أم عيسى عليه السلام هى مريم أخت هارون ، مع أن بين عيسى وهرون زمنا طويلا . ويقول بلس « خاطب القرآن الكريم مريم على لسان قومها بعد أن ولدت عيسى ولم يكن لها زوج بقوله يا أخت هارون ما كان ابوك امرأ سوأ وما كانت أمك بغيا ،ويقول كيف تكون مريم أخت موسى هى التى عاشت قبل المسيح بألف وأربعمائة عام هى أم المسيح » .

ومن العجيب أن يتناقل الفكرة آخرون ويتمسكوا بها ؛ وكلمة أخت فى اللغة العربية لاتعنى فقط الأخوة فى النسب ، وانما تعنى مع ذلك الشبيه والمماثل . وقد كانت مريم أم المسيح معروفة بورعها وتقواها وهى الأنثى الوحيدة التى تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا . وكانت تشبه بهارون فى ورعها وتقواها (٢١) .

وعندما أساء أدولف فنزمار وهو دكتور فى الفلسفة فهم قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٢٢) ولم يفهم المعنى الصحيح البسيط وأن الجملة استفهام إنكارى لا استفهام عادى » (٢٣) .

---

(١٨) سورة آل عمران آية ٧ .

(19) A. Guillume The legacy of Israel. P. 18.

(٢٠) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .

(٢١) سورة مريم آية ٢٨ .

(٢٢) سورة يونس آية ٩٩ .

(٢٣) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٤١

وعلى الرغم من هذا الهجوم المستعر الا أن هنـــاك عقولا مستنيرة حاولت أن تقف موقف الجـــدية والبحث العلمى النزيه ، فنرى المستشرق ديزيريه بلانشيه مؤلف كتاب « دراسات فى التاريخ الدينى » يقول « لقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله فقعد بهم العجز وشملتهم الخيبـــة وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى اغلق فى وجوههم كل باب » (٢٤) .

ويقول الأستاذ ديرمانجيم « لقد تحدى محمد الانس والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر فى القرآن متعلقا بقيمة ادبية استثنائية . فان محمدا كان يحتقر الشعراء ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم . ولـــكن الأمر متعلق بشىء آخر غير هـــذه القيمة وهو الفرق بين وحى الاله وتلقين الشياطين » (٢٥) .

فبذلك فالقرآن برىء وأكبر من أن ينـــال منه هؤلاء الحاقـــدون فهو معجزة دالة على صـــدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغـــه عن ربه ، فالقرآن كلام الله تحدى به العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صـــادقين » (٢٦) وقوله تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنـــا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » (٢٧) وقوله تعالى : « لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ،ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٢٨) وقوله تعالى « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعو من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (٢٩) .

وفعلا لم يجرؤ أحد على مر العصور على التحدى وعلى الاتيان بمثله، خاصـــة وأن القرآن نزل على قوم يتمتعون بالبـــلاغة والفصـــاحة ومنهم الشعراء والخطباء ، فلم يبق الا كلام الله وليس كلام البشر ، وظل القرآن يتحدى على مر العصور ، فالقرآن اذا معجزة خالدة نشهدها حتى الان كما

---

(٢٤) محمد غلاب « نظرات استشراقية » ص ٣١ .
(٢٥) محمد غلاب « نظرات استشراقية فى الاسلام » ص ٣١ .
(٢٦) سورة الطور اية ٣٤ .
(٢٧) سورة البقرة آية ٢٣ .
(٢٨) سورة الاسراء آية ٨٨ .
(٢٩) سورة يونس آية ٣٨ .

شهدها الذين أنزل القرآن فيهم لم تغب منه كلمة ،ولم تضم اليه اخرى. وكما جاء فيه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٣٠) وجاء ايضا « وقرآنا فرقناه لتقراه على الناس على مكث » (٣١) .

موقف المستشرقين من السنة النبوية :

يزعم المستشرق المجرى جولدزيهر أن الاسلام دين تطور على يد المسلمين ، وذلك بكثرة الاضافات التى جعلت كيان هذا الدين يصل الى حد لم يعرفه محمد صلى الله عليه وسلم . واول هذه الاضافات السنة ، فان الوف الأحاديث التى ثبت ان الرسول صلى الله عليه وسلم نطق بها هى من صنع العلماء الذين أرادوا أن يجعلوا من الاسلام دينا كبيرا شاملا، فخلقوا هذه الأحاديث ويذكر « ان تعاليم القرآن نجد تكملتها واستمرارها فى مجموعة الأحاديث المتواترة ، وهى وان لم ترو عن النبى « صلى الله عليه وسلم » مباشرة ، تعتبر أساسية لتميز روح الاسلام » (٣٢) .

ويقول ايضا « ان هذه الأحاديث وغيرها من النصوص المماثلة والتى يسهل علينا جمعها لاتمثل الأخلاق فحسب بل انها لتعبر عن العاطفة العامة لفقهاء المسلمين ، ولكن الاسلام خلال توسعه التالى وبفعل التأثيرات الأجنبية ترك مجالا لدقة العلماء المعنيين ولعلماء العقائد » (٣٣) .

ولابد لنا قبل ان نرد على هذا الهجوم ان نعرف معنى السنة، فالسنة ليست الا الطريقة العملية المضطردة التى نقلت عن الرسول نقلا متواترا عمليا معروفا عند الكافة ، ومن الوصايا بها على هذا المعنى ماورد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » وقوله صلى الله عليه وسلم « من رغب عن سنتى فليس منى » فان سبيلها فى هذين هو سبيلها فى الوصية السابقة (٣٤).

---

(٣٠) سورة الحجر آية ٩ .
(٣١) سورة الاسراء آية ١٠٩ .
(٣٢) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ص ٣١ .
(٣٣) المرجع السابق ص ٣٣ .
(٣٤) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٤٩١ .

وقد اخذت كلمة سنة عند علماء الأصول معنى آخر وهو ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أقوال أو افعال أو تقريرات . وكانت بهذا المعنى المصدر الثانى من المصادر التشريعية ، يستنبطون منها كما يستنبطون من المصدر الأول وهو القرآن ،ويرجعون اليها فى فهم المراد منه.

اما الفرق بين القرآن والسنة فيرجع أولا الى أن القرآن قد اتخذ له الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يكتبونه ، ويرتبونه بآياته وسوره حسب ما امر به من الله ، بينما السنة لم يتخذ لها كتابا ، ولم يكتب منها الا القليل ، بل ورد النهى عن كتابتها بحفظها فى الصدور .

ثانيا : القرآن لم ينقل منه شىء بالمعنى . ومنع ذلك فيه منعا باتا فى حين أن السنة قد أبيح فيها ذلك ، ونقل كثير منها بالمعنى ، ولا يخفى تفاوت الناس فى فهم المعنى واسلوب التعبير والنقل .

ثالثا : القرآن نقل الينا بالتواتر حفظا وكتابة ، ولكن السنة قد نقل معظمها بطرق الآحاد ، ولم يتواتر منها الا القليل .

رابعا : كان الأصحاب يراجعون النبى صلى الله عليه وسلم عند اختلافهم فى حرف من القرآن ، وكان يحكم بينهم فيه ، اما بتعيين احدى القراءتين أو باجازتهما ، ولكن السنة لم يعهد فيها شىء من ذلك (٣٥) .

هذه هى حقيقة السنة المحمدية التى حاول هذا المستشرق وغيره الحط من شأنها ورميها باتهامات كثيرة كما رأينا . فكيف تكون هذه الاتهامات والرسول الذى أثرت عنه هذه السنة ظل قرابة ربع قرن يعظ الناس ويعلمهم ويربيهم ويفتيهم ويبصرهم بما يدعون ويفعلون .

وكان عمله وقوله بداهة يسيران بين يدى الوحى النازل عليه من السماء ، وهذا التراث من الأقوال والأعمال تلقفه المسلمون بعناية ونقدوه بحكمة والموازين التى وضعوها لقبول السنن وردها لاتعرف الدنيا أدق ولا أعدل منها .

---

(٣٥) محمود شلتوت « المرجع السابق » ص ٤٩٨ .

فالسنة كما ذكرنا هى المصدر الثانى فى الاســلام ، واذا ثبت أن محمدا رسول الله يوحى اليه كان لمـا يقوله ويبدى اليه فى تبيين هــذا الاسلام وتوضيح معالمه وتطبيقه فى الحياة منزلة الوحى المعنوى .

« وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه السنة مشت فى رحاب القرآن ، وعبرت عن روحه شارحة موضحة ، وتركت للنـــاس أبواب الفهم والتجديد فى أمور حيــاتهم المتطورة التى تتصــل بوسائل المعايش التى تتغير بتغير البيئــات والازمان ، وفى ذلك يقــول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بشئون دنياكم » (١٦) .

وقد وجدت هذه السنة من الرعاية فى حفظها وجمعها وتقنينها من الدخيل عليها ، مالا يزال التاريخ العلمى يذكره بالفخر والاعجاب .

فقد حاول أعداء الاسلام أن يدسوا فيها ماليس منها ليكدروا نقاءها فوضعوا أحاديث مكذوبة ، وروايات ملفقــة ، ونسبوها زورا الى رسول الله منتهزين ماحاق بالمسلمين من فتن فى فترة من الدهر ، ولــكن سرعان ما وقف الأفذاذ من سلف هذه الأمة الذين كرسوا حياتهم يطوفون البــلاد ويجوبون القفار بحثا عن صحيح السنة ، وكشفا عن زائفها ، وكان العهد قريبا بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، والأمة العربية أمة حفظ ووعى ، فوضع هؤلاء العلماء الأصول والقواعد للرواية وبحثوا عن الرجال وجرحوا وعدلوا ، والفوا الــكتب الــكثيرة فى التاريخ والســير والأسماء ، ولم يأخذوا الا عن ثقة عدل حافظ ضــابط ، حتى لقد افردوا كتبا للثقـــاة من الرواة ، وكتبا للضــعفاء ، وذلك جهد لم يعرف لأمة فى صــيانة تراثها وتراث نبيها .

وما يقال انهم اهتموا بسند الحديث ورواته دون موضوعه أو متنه فهذا كلام غير صحيح ، لأنهم اهتموا بالموضوع فردوا الحديث الشاذ المخالف لمـا عرفوا من أصول وردوا الأحاديث لعلل قادحة تتصل أحيانا بالموضوع كما تتصــل بالسند ، نعم انهم وجهوا جل همهم الى السند والرواة لأن الموضوع تختلف العقول فى قبوله ، ورده حسب عصورهم وثقافاتهم وما

---

(٣٦) القرضاوى والعسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٢٧

كان يعتبر صحيحا مقبولا بالأمس قد يعتبر خطأ مرفوضا اليوم وبالعكس(٣٧) فقاموا بما عليهم فى نقد الرواه وتجلية حالهم وتركوا لمن يأتى بعدهم مهمة الحكم على موضوع الحديث بما يتفق وما عندهم من وسائل الفهم وموازين النقد . وهناك رد على جولدزيهر من قبل الأستاذ الغزالى يقول : وهنا نتساءل نحن : كيف يتصور هذا المستشرق أن الاسلام ينمو ؟ ان المتطوع به لدينا وفق النصوص المجمع عليها . ان الاسلام فى حياة الرسول اكتمل فى عقائده وعباداته وأخلاقه وأحكامه ، ونصوصه وقواعده ، وان الرسول انتقل الى الرفيق الأعلى وترك الاسلام على هذا النحو ، وأن المسلمين من القرن الأول الى يوم الناس هذا يعتبرون أى تزيد على الدين بدعة تحارب ، ويرفضون من أى مخلوق ومن أى جماعة ان يضموا الى هذا الدين جديدا ، فكيف ساغ لهذا المستشرق أن يركب هذا الشطط ؟؟ (٣٨) .

الفقه الاسلامى والمستشرقون :

لم ينج الفقه الاسلامى من هجمات المستشرقين بل انهم بدأوا يشككون فيه ، ويذكرون ان هذا الفقه مستمد من القانون الرومانى ومعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، كما أنهم عدلوا مواد هذا القانون طبقا للظروف المحلية وان هذا التراث الذى خلفوه ليسوا بأربابه وان الامامين مثلا الأوزاعى والشافعى قد درسا القانون الرومانى فى مدرسة بيروت القانونية (٣٩) .ومن المستشرقين الذين يزعمون ذلك جولدزيهر فى كتاب « العقيدة والشريعة فى الاسلام » وكذلك دى بور الذى يقول « بعد أن فتح المسلمون بلادا ذات مدنيات قديمة نشأت حاجات لم يكن للاسلام عهد بها وحلت محل شئون الحياة العربية البسيطة عادات وأنظمة لم يرشد لها التشريع ارشادا دقيقا الى وجه الحق فيها ، ولم يرد فى السنة بالنفى ولا بالتأويل مايبين الطريق الى معالجتها . ثم اخذ عدد الوقائع الجزئية يزداد يومابعد يوم وهى لم ترد فيها نصوص ولم يكن للمسلمين بد من الحكم فيها ، اما بما يتفق مع العقل ، واما بما يهديهم اليه ادراكهم لمعنى الخير ، ولابد من

---

(٣٧) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٣٨ .
(٣٨) محمد الغزالى « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٦٤ .
(٣٩) محمد الدسوقى « الاسلام والمستشرقون » ص ٤١ .

أن يكون القانون الرومانى قد ظل زمنا طويلا يؤثر تأثيرا كبيرا فى هـذا الاتجاه فى الشام والعراق وهما من ولايات الامبراطورية الرومانية »(٤٠)

ويقول المستشرق ايموس « ان الشرع المحمدى ليس الا القـانون الرومانى للامبراطورية الشرقية معدلا وفق الأحوال السياسية فى الممتلكات العربيـة » (٤١) .

ويغالى المستشرقون فى حكمهم على الفقه الاسلامى حتى نرى منهم طائفة تذكر أن الفقه اعتمد اعتمادا كبيرا على الاجتهادات التى تجعله بذلك دينا مصنفيا ، كما أنهم وعلى رأسهم المستشرق الأمريكى ارنست جاريسون فى كتابه « The march of faith » يذكرون أن الاسلام ماهو الا عمليات نتهية وهى عبارة عن مزيج مشوه من الاراء والمدركات الخاطئة (٤٢) .

ومن هؤلاء المستشرقين أيضا سالون اسنرتزن الذى تخصص فى الفقه والتاريخ الاسلامى ، وكذلك المستشرق الفرنسى دى كوروا المتخصص فى التشريع الاسلامى والمذاهب الاسلامية وكذلك المستشرق الفـرنسى بوتييه الذى درس مذاهب المسلمين ، مبلين الذى ترجم الاجازه فى فنون التدريس عند الاسلام فى المذهب الحنفى والجهـاد والزكاة والشـرائع الاسلامية (٤٣) .

ولـكن هناك بعض المنصفين مثل المستشرق الايطالى نلينو الذى كتب موضوعا عن « نظرات فى علاقات الفقه الاسلامى بالقانون الرومانى وفيه يذكر أن دومنييكو غانيسكى كان أول من زعم أن القانون الاسـلامى فى جوهره مستمد من القانون الرومانى ، ولـكنه كان لايعرف العربيـة ولا التركية بل اهتم بالمسائل القانونية والقضائية » (٤٤) .

---

(٤٠) محمد الدسوقى « الاسلام والمتشرقون » ص ٤٩—٥٠ .

(٤١) محمد الدسوقى « الاسلام والمسرتشرقون » ص ٥٠ .

(42) Garrison. The March of faith P. 66.

(٤٣) نجيب العقيقى » المستشرقون « جـ ٢ متفرق .

(٤٤) صلاح الدين المنجد « المنتقى فى دراسات المستشرقين »ص٤٦ .

وانتشر هذا الرأى حتى قالوا ان هناك مقارنة بين قوانين جستنيان والتشريع الاسلامى ، وزعموا أن القواعد الرومانية دخلت فى الاسلام فى زى الأحاديث الموضوعة التى نسبت الى محمد .

ومن هؤلاء هنرى هيوك الذى قال ان الفقه الاسلامى فى الأساس ليس الا القانون الرومانى بتعديل لا يذكر (٤٥) .

ويذكر الأستاذ نلينو أدلة مقنعة على خطأ هـذه الاراء بين ذلك أنهم يتصيدون بكل جهد المتشابهات ويهملون الاشارة الى الاختلافات التى تعتبر محطا بين قيمة المتشابهات وقدرها ، كما أنهم اهملوا الفرق العظيم الذى يوجد بين الغرب القديم وبين العالم الاسلامى فى تصور القـانون وفى مصادره ، كما أن الغرب كان يخلط عندما يتكلم عن القانون الوضعى بينه وبين الفقه الاسلامى لأنه لاتوجد ترجمة حرفية للانجليزية مثلا لكلمة فقه الا Law بمعنى قانون وشتان بين الفقه الذى يبحث علاقة المؤمن بالله وبنفسه وبسائر أبنـاء جنسه وبالعبـادات والأحوال الشخصية والوراثة والحقوق المالية والأوقاف والحدود والسير ، ولذلك نجد أن مايفهمه علماء أوربا عن الفقه الاسلامى هو اختلاف بين القضايا الفقهية » (٤٦) .

والحقيقة ان المزاعم الضالة التى نادى بها المستشرقون ان دلت على شىء فانما تدل على جهل الباحثين بحقيقة الشريعة الاسلامية وكنا نعـذر هؤلاء المستشرقين لو أن القانون الرومانى والتشريع الاسلامى يتفقان فى المنابع والغايات أو يتشابهان فى الحقوق والواجبات او يتقاربان فى المبادىء والعقوبات .

اما الشريعة الاسلامية فهى تنـاقض القـانون الرومانى فى القيم الأخلاقية والاجتماعية وتخالفه مخالفة واسعة الأمد فى النظرة الى الانسان والى الحياة كلها ، فان القول باستفادة الفقه الاسلامى من الرومان قول بين البطلان .

فالفقه الاسلامى يستقى أولا وآخرا من الوحى ، وقد أمده الـكتاب

---

(٤٥) المرجع السابق .
(٤٦) المرجع السابق ص ٤٧ .

والسنة بأحكام كلية وجزئية لا تحصى ، أحكام تتناول الانسان منذ نعومة اظفاره الى مثواه الأخير (٤٧) .

والمعروف أنه لم توجد فى الحضارات القديمة أية كتب فى الفقه واشتغلت بالشئون التشريعية الى حد الاسراف مثل ماأثر ذلك عن الحضارة الاسلامية والأمة الاسلامية ، فالفقه الرومانى لايعدو أن يكون شيئا ضعيفا خطؤه أكثر من صوابه لمجتمع تحكمه علاقات فوق البدائية حينا ودونها حينا آخر . وقد قدم ابن خلدون فى مقدمته تفسيرا للفقه الاسلامى بأنه « هو معرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة وهى متلقاة من الكتاب والسنة ، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة ، فاذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه ، وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ، ولابد من وقوعه ضرورة أن الأدلة من النصوص وهى بلغة العرب ، وفى اقتضاءات ألفاظها الكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف ، وايضا فالسنة مختلفة الطرق فى الثبوت وتتعارض فى الأكثر أحكامها فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف ايضا ، فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وايضا فالوقائع المتجددة لاتوفى بها النصوص وما كان منها غير ظاهر فى النصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما ، وهذه كلها اشارات للخلاف ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم » (٤٨) .

ومن هذا النص يتضح لنا أن هناك فرقا واضحا بين الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى فالشريعة هى النصوص المقدسة من الكتاب والسنة والفقه هو استنباطات الفقهاء فى دائرة النصوص أو فيما لانص فيه . والشريعة ثابتة لاتتغير ولا تتطور أما الفقه فهو مرن متحرك يتغير ويتطور والشريعة وحى الله والفقه عمل الانسان اجتهادا لتفسير الشريعة الله ولكن مهما قلنا الفقه من صنع العقل الاسلامى ؛ فان فقهاء المسلمين كانوا يحرصون حسب طاقتهم على أن يكون اجتهادهم داخل اطار الشريعة، وتبعا لها محاولين التحرر من الأهواء الذاتية ما استطاعوا ولم يهدف الفقهاء فى فقههم الا الى ماهدفت اليه الشريعة من رعاية مصالح العباد

---

(٤٧) محمد الغزالى « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٨٦

(٤٨) ابن خلدون « المقدمة » حـ٤ ص ٨٠٤ .

كما عبر عن ذلك الشاطبى ، لم يهدفوا الى رعاية مصلحة خاصة لطائفة أو فرد أو خليفه ، كيف وكلهم رفضوا المناصب والتربى من الخلفاء وتحملوا الأذى فى سبيل تجردهم العلمى .

رفض ابو حنيفة القضاء ، وتقبل السجن راضيا ، وضرب مالك بالسياط فى سبيل أن يغير أو يكتم رأيا رآه فأبى ، وأوذى الشافعى من اجل تجرده وامانته ، واحتمل أحمد بن حنبل من العذاب مالا يحتمله الا المؤمنون الأبطال .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم مؤسسو المذاهب السنية المشهورة عند المسلمين . وهذه المذاهب الأربعة وغيرها لا تلزم المسلمين باتباع احدها ، وانما هى اجتهادات لأصحابها الذين لم يزعموا لأنفسهم العصمة ، ولم يلزموا الناس بتقليدهم يوما ، ولم ينظر واحد من هؤلاء الفقهاء الى غيره نظرة التعقب أو الخصومة ، بل نظرة ملؤها التسامح والمودة وتقدير آراء الآخرين (٤٩) .

أن فى الفقه الاسلامى ثروة من القواعد والتطبيقات والنظرات العميقة فى كل مجال من مجالات الحياة اسرية ومدنية وجنائية ودستورية ودولية ، اعترفت بقيمتها وصلاحيتها المؤتمرات الدولية التشريعية الحديثة وهناك عديد من المستشرقين ممن يدخلون فى تفاصيل النظم الفقهية الاسلامية يحاولون أن يركزوا على الخلاف الشديد بين السنة والشيعة ، والخلاف بين الشيعة والوهابية محاولين بذلك ان يثبتوا أن الاسلام ليس دينا موحدا وانه لا فرق بينه وبين المسيحية المتعددة المذاهب .

واننا فى هذا المجال لابد أن نقرر أن الخلاف بين المذاهب السنية وبين الشيعة المعتدلة ليس خلافا جوهريا يمتد الى أصول العقيدة ، وانما وسع الهوة بينهما أهواء الحكام ودسائس خصوم الاسلام ، فالجميع من سنيين وشيعة يؤمنون بالله واحد ، ويقدسون كتابا واحدا ، ويتبعون رسولا واحدا ، ويتجهون الى قبلة واحدة ، هم جميعا يقيمون الصلاة ، ويؤدون

---

(٤٩) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٣٩ .

الزكاة ، ويصومون رمضان . ويحجون البيت ان استطاعوا الى ذلك سبيلا (٥٠) .

أما بالنسبة للقانون الرومانى فهو يختلف كلية عن الشريعه الاسلامية. فلنأخذ مثلا على ذلك بالنسبة لجريمة القتل فى القانون الرومانى . فقد كان لنظام الطبقات المعروف عند الرومان اثر فى تطبيق العقوبة . فاذا كان الجانى من الأشراف رفع عنه القتل واكتفى بنفيه ، واذا كان من أواسط الناس كانت عقوبته قطع الرقبة ، واذا كان من الطبقة الدنيا كانت عقوبته الصلب ، ثم غيرت بالقائه فى حظيرة حيوان مفترس ثم غير هذا بالشنق وعلى الجملة فقد مرت الجرائم عند الرومان بأربعة ادوار كان آخرها تدخل الحكومة تدخلا مباشرا فى المعاقبة على الجرائم باعتبار أن المصلحة العامة التى تمثلها تقتضى ذلك ، ولم يكن هذا التدخل قاصرا على الجرائم الماسة بالحكومة كالخيانة العظمى والثورة، بل كان شاملا للجرائم الواقعة على الأفراد كالقتل والسرقة .

وبذلك جعلت الجرائم الخاصة جرائم عامة ، ووقعت الحكومة عليها عقابا جسمانيا والغت الدية كما الغت الثأر ، وبمقتضى هذا الوضع الذى صارت اليه الجرائم الواقعة على الأفراد فى الأمم الحديثة صار العقاب عليها من خصائص الحكومة أيضا ، ومنحت الدساتير رئيس الدولة حق العفو وحق تخفيف العقوبة (٥١) .

معنى ذلك أن القانون الرومانى القديم يعطف على الجانى اذا كان من الاشراف ويقسو عليه اذا كان من غيرهم ، وكان غير الشريف فى نظرهم لا يلتقى مع الشريعة فى صلب رجل واحد ، ولا تنتظمها الانسانية الواحدة، فهو مع نفسه فى جانب التفريط بالنسبة الى الشريف ، وجانب الافراط بالنسبة لغيره .

أما الاسلام ، فقد قرر التكافؤ بين الناس جميعا فى الدماء ، ولم يجعل لدم أحد فضلا على آخر ، ولم ير فى المجموعة البشرية من هذه

---

(٥٠) المرجع السابق .
(٥١) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٣٠٧ .

الناحية « شريفا » لاتمس حياته بجريمته « غير شريف » يلقى بجريمتــه للحيوانات المفترسة .

وهذه التسوية بين السلطان والرعية لا براها الاسلام فى حقــوق العبــاد خاصــة كالقصاص والاموال ، وانما يراها كما سبق فى حقوق الله الخالصة ايضا كحد الزنا والسرقة .

وبهذا الاصل العظيم الذى تنكمش أمام روعته جميع التشريعــات البشرية ، اهدر الاسلام نظام الطبقات الذى كان اساس التشريع عنــد الرومان ، والذى لايزال الطغيان البشرى يحتفظ ببعض آثاره (٥٢) .

المستشرقون وانتشار الإسلام

ومن بين الأخطاء الدالة على جهل المبشرين ، تأتى سلسلة طويلة من التحامل والافتراء ، واشهرها ان الاسلام انتشر بحد السيف . فقــد ذكر المستشرق الانجليزى نلسون « لقد اخضع سيف الاسلام شعوب افريقية وآسيا شعبا بعد شعب » (٥٣) ويزعم آخر وهو لطفى ليفونيان « ان تاريخ الاسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح » (٥٤) . ويسير على النسق نفسه المؤرخ الانجليزى توماس كارليل الذى كنا نعتبره الى حد ما منصفا للمسلمين ، نجده فى مسألة الجهاد يســير على النهج نفســه وعلى الســيرة نفسها ، فهو يؤكــد أن الاسلام انتشر بالسيف الى الغــاية » (٥٥) .

ولابد لنــا ان نرد ردا مقنعا سليما على هذه الادعاءات ونحــاول ان نؤيد رأينــا ببعض آراء المستشرقين المنصفين الذين كتبوا بالحيدة التامة فنحن نعرف ان الوحى نزل على الرسول الكريم سنة ٦١٠ م وبدأ الرسول

---

(٥٢) المرجع السابق ص ٣١٢ ، ص ٣١٤ .
(٥٣) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .
(٥٤) مصطفى خالدى المرجع السابق .
(٥٥) منير البعلبكى « دفاع عن الاسلام » ص ٣٢ .

صلى الله عليه وسلم كفاحه فى سبيل الدعوة ، ويحدثنا التاريخ انه صلى الله عليه عليه وسلم لم يسير جيشا ، ولم يعلن حربا ، بل جمع الناس عند الصفا بمكة ووقف فى جمعهم لا ليشنها حربا ، ولا ليعلنها جهادا ، ولا أمرا انما وقف يقول :

« يا معشر قريش : ارايتم لو اخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل اكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم . أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط ، قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يا بنى عبد المطلب .. يابنى عبد مناف .. يابنى زهرة .. يابنى تميم .. يابنى مخزوم .. يابنى اسد .. ان الله امرنى ان انذر عشيرتى الأقربين ، وانى لا املك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الاخر نصيبا الا ان تقولوا لا الله الا الله » (٥٦) .

لكنه شأن كل نبى ومصلح كذبه قومه وهجوه وآذوه ، وحاربوه ، بل حاولوا أن يقتلوه بعد ان اعتدوا عليه مرارا . وبالرغم من ذلك لم يشنها حربا ولم يحاول دفع الأذى بمثله بل امر بأن يهاجر اتباعه الى الحبشة بعيدا عن الأذى فهاجروا ، وظل رسول الله يدعو ويجاهد فى سبيل الله متحملا الايذاء وصابرا على مساءات الكفار ثلاث عشرة سنة حتى بدأ يفكر فى رد العدوان وكان الله سبحانه وتعالى قد امره بالقتال فى قوله : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من دبارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » (٥٧) .

وابتدأ الصراع بين جبروت الشرك ودعوة الاسلام الذى استمر عدة اعوام وقعت فيها الغزوات المعروفة ، وكانت كلها ردا على عدوان المشركين وغدر اليهود .

وفى الوقت الذى كان فيه الصراع دائرا داخل الجزيرة العربية بين قوى الايمان والشرك كانت هناك دولتان استعماريتان كبيرتان تتنازعان العالم اذ ذاك وتفرضان سيطرتهما على أجزاء من بلاد العرب هما دولتا الفرس والروم . ولم يكن المسلمون فى هذا الوقت بحيث يفكرون فى فتح امبراطوريات ضخمة مثل فارس والروم ، والعدوان عليها ، وانما بدأ هؤلاء بالشر والعدوان وقد حاول الرسول عليه الصلاة والسلام عرض

---

(٥٦) ابن سعد « الطبقات الكبرى » حـ١ ص ١٨١ .

(٥٧) سورة الحج آية ٣٩ .

الاسلام على هذه الدول المجاورة بالحسنى ، فلم يلق منهم الا التعنت والتجبر ، بل وقتل المبعوثين وبدأت هذه الدول تتحرش بالدولة الاسلامية الناشئة فما كان منها الا أن بدأت فى رد العدوان وحماية الدعوة الاسلامية .

ولم يكن فتح المسلمين للدول المجاورة فتح استعمار أو سلب أو نهب وانما كان ازالة للسلطات الطاغية ، وتأمينا للحريات ، ونشرا لمبادىء العدل والمساواة .

ومما يؤيد قولنا فى أن الاسلام كان يحارب ردا للعدوان ولحماية الدعوة الاسلامية ونشرها بين أمم الكفر قول الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين » (٥٨) .

ويقول كذلك « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٥٩) وفى سورة التوبة يقول سبحانه وتعالى « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (٦٠) .

وفى سورة البقرة « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (٦١) .

وقوله تعالى فى سورة الأعراف « ادعو ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين » (٦٢) .

وقوله فى سورة ق « القيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب » (٦٣) (*)

ومن أخلاق الاسلام فى الحروب انه قد نهى عن الخيانة فيقول تعالى فى سورة الأنفال « واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء » (٦٤)

---

(٥٨) سورة البقرة آية ١٩٠ .
(٥٩) سورة البقرة آية ١٩٤ .
(٦٠) سورة التوبة آية ٣٦ .
(٦١) سورة البقرة آية ١٩٣ .
(٦٢) سورة الأعراف آية ٥٥ .
(٦٣) سورة الأعراف آية ٢٤ .
(٦٤) سورة الأنفال آية ٥٨ .

فلابد اذا من اعلان الهجوم حتى يكونوا والعدو على سواء فى الاستعداد ويتسامى الاسلام فى اخلاق الحرب فيطالب بتأمين من طلب الامان فيقول تعالى فى سورة التوبة « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون » (٦٥)

والاسلام دين سلام ، لم يحبذ القوة ، ولم يدع للحرب ، بل انه دعا للسلم فيقول فى سورة الأنفال « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (٦٦) .

فالواضح اذن أن الاسلام يحذر من الحرب لغير هذه الاغراض التى ذكرتها فكل ما سوى هذه الأغراض الانسانية الاصلاحية الحقة من المقاصد المادية والشخصية أو النفعية ، وان الاسلام لا يجيز الحرب من أجلها بحال من الأحوال وذلك واضح كل الوضوح فى اضافة الاسلام القتال أو الجهاد دائما الى سبيل الله ، فلا نجد واحدة من هاتين الكلمتين فى بحث من البحوث الاسلامية الا مقرونة بهذا السبيل ، على أن القرآن الكريم قد صرح بتحريم كل قتال بغير هذه الأغراض المشروعة ، وأكدت هذا التحريم أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وسجل التاريخ ذلك لأصحابه الذين لم يريدوا بقتالهم شيئا أبدا الا وجه الله وتحقيق المقاصد المتقدمة كلها أو بعضها وفى ذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة » (٦٧) .

هذه هى الأسباب التى دعت الى الحروب التى خاضتها الأمة الاسلامية ونشرت بها الدعوة الاسلامية الاصلاحية لصلاح الانسانية مما اصابها من فساد وتدهور ، لذلك سأورد هنا بعض آراء لبعض المستشرقين المنصفين منهم المستشرق بودلى الذى يقول « كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التى دفعت محمدا الى الالتجاء للقوة ، اذ استمر عداء أبى جهل لمحمد فى درجة الغليان ، فقدكان يغير على جماعات المسلمين المتحركة

---

(٦٥) سورة التوبة آية ٦ .
(٦٦) سورة الأنفال آية ٦١ .
(٦٧) سورة النساء آية ٩٤ .

باستمرار ، ويقاتل أية جماعة منعزلة يكمن لها ، وقد اغار على ضواحى المدينة ، وأتلف الزرع والحدائق فأظهر لمحمد أن شعوره لم يتبدل ، وأن هدفه لايزال قتله ، فلم يكن هنـاك الا حل واحد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال » (٦٨) .

ويقول جيمس متشنر فى مقاله « اخترت الدفاع عن الاسلام » .

« لم يحدث فى التاريخ ان انتشر دين بهذه السرعة ، فعنـد وفاة محمد سنة ٦٣٢ م ، كان الاسـلام يحتل جانبا كبيرا من شـبه الجزيرة العربيـة ، ولم يلبث بعد ذلك أن ضم اليها سـوريا وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبيـة لروسيا ، وامتد الى شمال افريقيا حتى بلغ مداخل اسبانيا . وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الاسـلام باهرا ،واعتقد أن توسع الاسـلام ما كان يمكن ان يتم لو لم يعمد المسلمون الى السيف ولـكن البـاحثين لم يقبلوا هذا الرأى . فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوى على ان الاسـلام رحب بشعوب مختلفة الأديان مادام التعـاون مع اهل الـكتاب اى اليهود والنصارى ، ولا شـك ان حروبا قـد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصـارى واليهود وفى بعض الاحيـان وكان سبب ذلك أن اهل هذه الديانات الأخـرى اصروا على القتال . وفى القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم فى هذه الحروب، ولـكن الرهبـان قطعوا بأن اهل الـكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة، وكانوا احرارا فى عباداتهم » (٦٩) .

ومما يؤكد صحة هذا القول ان الاسـلام امر بأن تكون الدعوة له بالسلم وليست بالحرب ، ولم يشرع الزام النـاس بالاسلام بالقوة ، فمن تعاليمه الوارد فى القرآن الـكريم « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (٧٠) .

وقوله « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانمـا يضـل عليهـا » (٧١) .

---

(٦٨) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٢٨ .
(٦٩) عبد الرزاق نوفل — المرجع السابق ص ١٢٧ .
(٧٠) سـورة البقرة آية ٢٥٦ .
(٧١) سورة النمل آية ٩٢ .

وقوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن»(٧٢)

ومما يشهد لحب الاسلام ونبيه فى السلام أن امره اليومى الأول الذى أصدره عندما اضطر الى الحرب كان « لا تقتلوا امراة ، ولا وليدا، ولا شيخا ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تحرقوا نخلا ، ولا تمثلوا بأحد ، ولا تكونوا ناهبين واجتنبوا الوجوه لا تضربوها » (٧٣) .

ومما يؤكد أن الاسلام لم ينتشر مطلقا بالحرب ماذكره الأستاذان ج. فاج ورولاند اوليفر . « من أن الاسلام لم يتخذ طريقه وراء الصحراء بافريقية الا بعد انحلال دولته الكبرى فى المغرب ، وكانت وسيلةالاسلام لهذه البقاع هى الثقافة والفكر والدعوة ، فانتشر الاسلام بين شعوب البربر وبين الزنوج وقامت خلف الصحراء دول اسلامية لعبت فى التاريخ دورا كبيرا » (٧٤) .

وتقول الباحثة الألمانية أليس ليكننس اديستر « انالتخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الاسلام والسيف وانما بين الاسلام والجزية وهىالخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك فى انجلترا ابان حكم الملكة الياصابات » (٧٥) .

ويذكر المؤلف جوستاف لولبون فى كتابه « حضارة العرب » آراءا كثيرة ومتعددة حول عملية انتشار الاسلام ، ويؤكد آراءه بآراء اخرى لمستشرقين غربيين يقول جوستاف لوبون « العبارات الاتية اقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت ان راينا فى هذه المسألة ليس خاصا بنا قال روبرتسون فى كتابه « تاريخ شارلمان » « ان المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى وانهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا فى التمسك بتعاليمهم الدينية » (٧٦) .

---

(٧٢) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
(٧٣) المقريزى « امتاع الأسماع » حا ص ٥٣٦—٥٣٦ .
(٧٤) Roland oliver. A short history of Africa. P. 77.
(٧٥) Iles. Lictenst, Islam and the modern age, P. 57.
(٧٦) جوستاف لوبون « حضارة العرب » ١٢٨ .

وقال ميشو فى كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » « ان القرآن الذى امر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة ، وقتما دخلوها » .

ويؤكد جوستاف لوبون أن التاريخ أثبت أن الأديان لاتفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الاسلام (٧٧) .

ويستطرد جوستاف لوبون قائلا « ساعد وضوح الاسلام البالغ وما امر به من العدل والاحسان كل المساعدة على انتشاره فى العالم ، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للاسلام كالمصريين الذين كانوا نصارى ايام حكم قياصرة القسطنطينية ، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الاسلام ، كما نفسر السبب فى عدم تنصر اية امة بعد ان رضيت بالاسلام دينا ، سواء كانت هذه الأمة غالبة ام مغلوبه » (٧٨) .

ومصداقا لكلامنا هذا حول عملية انتشار الاسلام ، وما حاول المستشرقون المغرضون أن يذيعوه بين الناس من أنه لم ينتشر الا بحد السيف ماذكره السير توماس ارنولد فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » يقول « اما ولايات الدولة البيزنطية التى سرعان ماتولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ماشاع بينهم من الاراء اليعقوبية والنسطورية ، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم احد ، اللهم الا اذا استثنينا بعض القيود التى فرضت عليهم منعا لاثارة اى احتكاك بين اتباع الديانات المتنافسة ، أو اثارة اى تعصب ينشأ عن اظهار الطقوس الدينية فى مظهر المفاخرة حتى لايؤذى ذلك الشعور الاسلامى . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع من هذه العهود

---

(٧٧) جوستاف لوبون « المرجع السابق » ص ١٢٨ .
(٧٨) المرجع السابق .

التى أعطاها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليهـا ، وتعهـدوا لهم بحماية أرواحهم وممتلكاتهم واطلاق الحرية الدينية لهم فى مقابل الاذعان ودفع الجزية » (٧٩) .

ويقول توماس ارنولد فى موضع آخر « واذا نظرنا الى التسامح الذى امتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صـدر الحكم الاسلامى ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل النـاس الى الاسلام بعيدة عن التصديق ، ومن ثم لم يكن بد من التماس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذى اوحى بالاضطهاد .

ونلمس مصداقا لكلامنا هذا أن اهل الذمة عاشوا عيشة طيبة فى ظل الحكم الاسلامى وناهيك عن أخلاق الخليفة عمر بن الخطاب وموقفه منهم بعد سقوط بيت المقدس وهى المدينة التى يقدسها المسيحيون لمـا بها من آثار دينيةوروحيةعظيمة. فنجد أولا أنه أعطاهم عهدا واماما به « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله امير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان . أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصـلبانهم وسقيمها وسـائر ملتها ، انه لا تسكن كنائسهم ولا تهـدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شىء من اموالهم ولا يكرهـون على دينهم ولا يضـار أحد منهم » (٨٠) اه

واذا أمعنا النظر فى هذا النص لوجدنا أن الاسـلام لم يجبر أحدا على الدخول فيه ، ولو كان بالسيف لفعلوا كما فعل المسيحيون الأوائل لاجبار الناس على الدخول فى المسيحية .

والدليل على سماحة الاسلام بالنسبة لأهل البلاد المفتوحـة وانه لم يجبرهم على الدخول فيـه بالسيف أن المسيحيين عاشـوا فى مجتمعهم آمنين على حيـاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذى منحهم حرية التفكير الدينى ، تمتعوا وخاصـة فى المدن بحـالة من الرفاهيـة والرخاء فى الأيام الأولى من الخلافـة .

---

(٧٩) توماس ارنولد « الدعوة الى الاسلام » ترجمة حسن ابراهيم حسن : ص ٧٤ .

(٨٠) المرجع السابق ص ٨٨ .

وقد توسع معاوية ٤١/٦٠ هـ في الحاق المسيحيين بحدمته وحـذا حذوه في ذلك أفراد آخرون من البيت المـالك ، وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة مثل الأخطل وهو عربي نصراني كان شاعرا للبـلاط ، ومثل ابى القـديس يوحنـا الدمشـقى مستشـار الخليفـة عبد الملك ٦٥/٨٦ هـ .

وكان في خدمة الخليفة المعتصم ٢١٨/٧٧ ٢هـ أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين أحدهما يدعى سلمويه ويظهر أنه كان يشغل منصبا قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث ، وكانت الوثائق الملـكية لا تتخذ صـفة التنفيذ الا بعد توقيعه عليها ، على حين عهد الى اخيه ابراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد اليه بخزانة بيوت الأموال في البـلاد ، وكان المنتظر من طبيعـة هـذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الاشراف عليها الى رجل من المسلمين . وقـد بلغ من ميل الخليفة الشديد الى ابراهيم أنه عاده من مرضه الأخير وغمره الحزن حين وفاته ، وانه أمر في يوم تشييع جنـازته باحضار جثمـانه الى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية في خشوع مهيب .

واختار عبد الملك عالما مسيحيا من مدينة الرها يدعى اثنـاسيوس مؤدبا لأخيـه عبد العزيز وقد رافق أثناسيوس هذا تلميذه الى مصر عندما عين واليـا عليها ، وهنـاك جمع ثروة طائلة قيل أنه امتلك اربعة آلاف من العبيد ، كما ملك كثيرا من الدور والبساتين (٨١) .

وما ذلك الا دليل على أن المسلمين لم يكرهوا احدا على الدخول في دينهم وانما كانوا يسيرون على قوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (٨٢) .

والواقع أن التسامح الاسلامى هذا يخالف ما اتصف به المسيحيون الأوائل من عنف ووحشية ، فنرى المـذابح العنيفة التى قام بها اباطرة الرومان بدءا من الأمبراطور قسطنطين ليجبروا شعوبهم على الدخول في المسيحية بعد ان قبلتها الدولة دينـا رسميا لها . ولا أدل على مافعـله

---

(٨١) توماس ارنولد : المرجع السابق ص ٨١ .

(٨٢) سـورة النحل آية ١٢٥ .

شارلمان مع السكسون الوثنيين ليجبرهم على الدخول فى المسيحية من المذابح العظيمة التى قام بها ضدهم ، ولا ننسى عصر دقلديانوس الأمبراطور البيزنطى الذى سمى عصره بعصر الشهداء وما قام به الامبراطور جالينوس من اضطهاد وتعذيب .

أما اليهودية فتاريخها حافل بالمذابح والحروب العنيفة ، لا لتهود الناس بل لتجليهم عن اراضيهم وتستولى على ممتلكاتهم فهم يرون أنفسهم شعب الله المختار « قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » وبهذا استباحوا دماء الشعوب الأخرى واعتبروهم اتباعا لهم ، اما الاسلام فهو دين الناس عامة ، والناس كلهم فيه سواء . وبهذا نجد ان الاسلام قد سلم من وصمة التعصب كما سلم من وصمة الاكراه .

واول كتاب حديث قرانا فيه تفسيرا « سلميا » لأخلاق المسلمين التى يستوحونها من دينهم هو هذا الكتاب وعنوانه « دولة الباكستان » لمؤلفه البروفسور وشبروك وليامز صاحب الدراسات الواسعة فى شئون الشرق الأوسط وشئون الهند والباكستان ، فقد سبقه كثير من كتاب اللغات الأوربية الأخرى الى تعليل حركات المسلمين فى الهند مع الدولة البريطانية ومع طوائف الوطنيين هناك من غير المسلمين فكانت خلاصة تعليلاتهم لتلك الحركات جميعا أنها وليدة التعصب الدينى أو وليدة الروح العدوانية التى انفردوا بها بين ابناء وطنهم ، ولكن مؤلف هذا الكتاب يعلل هذه الحركات للمرة الأولى بين أبناء لغته وعقيدته بأنها وليدة البحث : لا عن وطن يستطيع فيه المسلم أن ينطلق من قيود المستغلين فحسب بل هى وليدة السعى الى اقامة بلاد تسود فيها آداب الاسلام وتمنع فيها ظلم الأغنياء للفقراء ، ويتبع فيها الولاة وصايا العدل الاجتماعى التى يتعلمونها من سماحة الشريعة (٨٣) .

ويقول عن تقاليد الاسلام : « ان هذه التقاليد تشمل مبادىء المساواة

---

(٨٣) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٣٧ .

بين العنــاصر الانسانية أمام الله وتقرر أواصر الدعوة العالمية بين جميع المؤمنين بغير نظر الى العنصر او اللون ؛ كما تقرر فريضــة الدفاع عن الضعيف وحمايتــه ممن يجورون عليه ، واغاثة المعوزين والمحرومين ، وبذل الحيــاة نفسها فى سبيل الصراط المستقيم ، ومعاملتهم من ثم للبلاد الأخرى لا تجعلهم حريصين على الغلو فى اثبــات وجودهم والتصلب فى املاء تقاليدهم الحرفية أو الوقوف موقف الاحجام والاعتذار (٨٤) .

---

(٨٤) المرجع السابق .

الإسلام والتجديد

يذكر المستشرق جولدزيهر « ان الاســلام يكره التجديد ، وكل بدعة فى نظر الجماعة الاســلامية موضع للشــك والشبهة ، وظهورها مدعاة للاسى اذ انها تهدد وحدة الجماعة وتؤدى الى انهيار الشريعة » (١) .

ولم يبين هذا المستشرق مكان البدعة والفترة المستحــدثة أهى فى الدين أم فى العلوم والأفــكار .

اما فى الدين وفى المعاملات المبنيه على قواعد دينية فهذا أمر طبيعى لأن الاسلام لو اعتنق كل فــكرة مستحدثة لا تقرها قواعــده ، واسسه مابقى منه شىء ولا كان ثمة اسلام .

كان الربا متفشيا فى الجاهلية ، فحرمه الاســلام ، وفى العصور الحديثــة نشط التعــامل بالربا وقامت عليه بنوك ومؤسسات ، اذ ان هذا التعــامل هو ما منعه الاســلام وقضى عليه . وشاع فى الحضــارة الأوربية اتخــاذ الخليلات ، وقل أن تجد فتــاة لا رفيق لها أو فتى لارفيقة له ، وقد جاء القرآن الــكريم بقوله « فانكحوهن باذن اهلهن ، وآتوهن اجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان » (٢) .

فهل يبيح علماء المسلمين لشعوبهم عادة نهى عنها الاســلام ؟ انهم ان فعلوا ذلك خرجوا عن الاســلام ، وقل مثل هدا فى ظــاهرة التبرج والزينة والرقص ، واختلاط الرجال بالنساء فى الشواطىء ، وما الى ذلك من العادات التى يحرمها الاسلام (٣) .

اما المبتكرات فى المعــارف ومستكشفات العــلوم فهــذه يشجعها

---

(١) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ص ٣ ص ٥ ع ٥ .
(٢) سورة النساء آية ٢٥ .
(٣) عبد الجليل شلبى « الاسلام والمستشرقون » ص ٤٦ — ٤٧ .

الاسلام ويدعو لها ، فالاسلام يدعو الى التفكير واعمــال العقل ، فأولى آياته تدعو الى العلم « اقرأ باسم ربك الذى خلق » (٤) وقوله تعالى « ن والقلم وما يسطرون » (٥) وقوله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منـكم والذين أوتوا العلم درجات » (٦) وقوله تعالى « قل هل يستوى الـذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٧) وقوله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة ، فقد أوتى خيرا كثيرا » (٨) .

والأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعو الى طلب العلم منها . « طلب العلم فريضـــة على كل مسلم » (٩) . ومنها « اغد عالما أو متعلما أو مستمعا » (١٠) وقول الرسول الـكريم « فضل العلم أحب الى من فضل العبادة » (١١) أى أنه فضل العلم على العبادة فيها منفعة خاصـــة أما العلم ففيــه نفع للمجتمع ، بل انه عليه السلام فضل العلم على مازاد على فرض الصـــلاة ، فقال « لأن تغدو تتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة » (١٢) .

وكذلك رغبة فى نشر العلم ومنع كتمانه ، قال الرسول « من سئل عن علم فكتمه ، الجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (١٣) .

والدليل العملى على اهتمام الرسول بالعلم والبحث العلمى هو أنه جعل فداء الأسرى فى غزوة بدر تعليم عشرة من أبناء المسلمين ، وذلك يقضوا على الجهل حتى تصبح دولة الاسلام هى دولة العلماء .

والدين الاسلامى يحث دائما على التفكير والبحث ، واعمال العقل ، وليست مصـــادفة أن تتكرر فى القرآن الـكريم آيات الدعوة الصريحة

---

(٤) سورة العلق آية ١ .
(٥) سورة القلم آية ١ .
(٦) سورة المجادلة آية ١١ .
(٧) سورة الزمر آية ٩ .
(٨) سورة البقرة آية ٢٦٩ .
(٩) رواه بن ماجه ، وابن عبد البر .
(١٠) رواه البيهقى .
(١١) رواه الطبرانى فى الأوسط .
(١٢) رواه بن ماجة والطبرانى بسند صحيح .
(١٣) رواه بن ماجة .

الى النظر فى خلق السموات والارض وما فيها قال تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون »(١٤) وقوله تعالى « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء » (١٥) وقوله تعالى « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » (١٦) .

وتتعدد الآيات التى تدعوا الى النظر والعلم والتدقيق ، وسأترك لذلك شرحا وافيا مفصلا فى كلامى عن الاسلام والحضارة العلمية .

وبالنسبة للتجديد الذى يقصده المستشرق فنجد ان المجتمع الاسلامى يطرا عليه تعديل من حين الى حين . وتحدث له مشكلات جديدة ما عرفها السلف فلابد ان يجد لها المجتمع ، على ضوء مبادىء الاسلام ، حلولا ليبقى المجتمع الاسلامى هانئا ، ولا يجد المؤمنون عسرا ، ولا مشقة ولا حرجا فيما استحدث فى مجتمعهم من تطور حضارى ومادى ، لذلك جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » ان الله يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها » (١٧) اى يدلها على أحكام ما استحدث فى المجتمع ويصلح ما أهمل من الدين ، ومما اضيف عليه مما هو ليس منه .

وهذا التجديد ضرورى لحياة المجتمع وضرورى لحماية الدين نفسه لأن التجدبد سنة الحياة ، وكان المجتهدون موجودين فى كل عصر من العصور السابقة ليواجهوا الامور الاضطرارية (١٨) ، قال تعالى « وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه » (١٩) ، سأل رسول الله

---

(١٤) سورة يونس آية ١٠١ .
(١٥) سورة الأعراف آية ١٨٥ .
(١٦) سورة ق آية ٦ .
(١٧) رواه أبو داود عن أبى هريرة .
(١٨) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى » ص ٦٤ .
(١٩) سورة الأنعام آية ١١٩ .

صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل حين ولاه على اليمن : بم تقضى ؟ قال: بكتاب الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فان لم تجد . قال : اجتهد رايى ، فأقره الرسول على ذلك ، وكتب عمر بن الخطاب الى ابى موسى الاشعرى فى هذا الشأن « الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك ، مما ليس فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم اعرف الاشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد الى اقربها الى الله واشبهها بالحق » (٢٠) .

وهذا الاجتهاد للتجديد واجب لأن الدين جاء لرعاية مصالح الناس وتوجيههم وتحسين أحوال معاشهم ، والأمور المستحدثة دائما ، فلابد من الاجتهاد على أن يراعى فيه العدل والمصلحة .

وهذا الأمر هو الذى دفع ابن قيم الجوزية الى القول « يجب أن ننتهى من قول العلماء الذين يقولون ، هذا لا يوافق الشرع ، وهذا لم يقل به الرسول وان نتبع سياسة المصلحة اى ما يوافق الناس ويكون فيه صلاحهم » (٢١) ولابد ان نشير فى هذا المجال الى أن التاريخ الاسلامى منذ نشأته الى يومنا هذا يؤكد على الاهتمام بالتجديد والابتكار والبحث العلمى ، وهل ورث التاريخ فى غير الأمة الاسلامية هذا العدد من الكتب التى كتبها المسلمون على اختلاف الاقطار والعصور ، وهل يعرف التاريخ لغير المسلمين هذا القدر من العلماء الذين سجلت سيرهم فى كتب الطبقات ، وتاريخ البلاد والتراجم العامة ، ثم هل عهد التاريخ من قبل المسلمين أمة حصلت ونفذت وحققت ، ودققت كما فعل المسلمون فى الأحاديث ورواتها ثم فى علوم اللغة ، وعلوم الشريعة ، وعلوم الطبيعة وغيرها وأخرجت من حفظة القرآن وائمة الشريعة حكماء ورياضيين وفلكيين واطباء .

---

(٢٠) ابن حزم « جمهرة أنساب العرب » ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢١) ابن القيم الجوزية « الطرق الحكمية » ص ١٤ .

ومما تميز به المسلمون فى طلب العلم وتلقى الأخبار التحرى والتثبت ، وبذل الجهد فى النقد ، وتمييز الزائف من الصحيح والحق من الباطل .

وكان خلفاء المسلمون وامراؤهم وكبراؤهم يتنافسون فى دعوة العلماء والأدباء اليهم ، ويتفاخرون بمن تضم مجالسهم من كبار العلماء ونابهى الأدباء وقد جعل الاسلام الأرض كلها للمسلم مسجدا وطهورا ، جعل الارض كلها دار تعلم وتعليم ، فالمسلم مأمور أن ينظر فى السموات والأرض وآثار الأمم وسيرها ، وان يطلب العلم حيث كان ويتلقط الحكمة انى وجدها فهو يتعلم فى الحضر والسفر ، وفى المسجد والدار .

وكانت مساجد المسلمين منذ انشئت دار تعليم منذ جلس المعلم الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، يعلم اصحابه فى مسجد المدينة الى يومنا هذا (٢٢) .

ودور العلماء كذلك كانت مقصد طلاب العلم يتلقونه عن نبغ منه وعرف به ويقطعون اليه الفيافى والقفار . ولما بنى المسلمون دورا للعلم خاصة لم تختلف هذه الدور عن المساجد الا بمساكن المعلمين والطلبة فيها ، ولم يبعد التعليم عن المساجد بعد بنائها ، فالمدرسة مسجد والمسجد مدرسة .

وكثير من مساجد المسلمين التى نراها اليوم سميت فى التاريخ مدرسة ، اذ لم يفرق المسلمون بين العبادة بالصلاة والعبادة بالتعليم والتعلم ، فكانوا يبنون الأبنية فهى مساجد للصلاة ، وهى مدارس للعلم (٢٣) .

---

(٢٢) عبد الوهاب عزام « الاسلام والعلم » ص ١٤٣ .

(٢٣) المرجع السابق ص ١٤٤ .

أثر حق العلم فى البيئـــة الاسلامية :

وقد كان لتقرير الاسلام فى هذا الحق الثابت لجميع الناس آثار بعيدة فى المجتمع الاسلامى نذكر منها :

١ ــ ان العلم كان يشمل جميع الفئـــات ، حيث كان يبدأ من الفرد ثم يعم الأسرة ، فقد جاء فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٢٤) .

ومسئولية الرجل فى اهله تشـــمل تأديب أولاده ، وتعليم زوجتـــه وهدايتهم الى سبل الخير والفلاح ، قال على رضى الله عنه فى تفســـير قوله تعالى « قوا انفسكم واهليكم نارا » علموا اهليكم الخير (٢٥) .

٢ ــ ان العلم كان مشاعا فى المجتمع ميسرا لـــكل انســـان ، فى المسجد وفى المدرسة وفى الحلقات العلمية ، وفى المـــكتبات العـــامة ، فلم يعرف المجتمع الاسلامى ارستقراطية العلم أو انحصاره فى فئة معينة ، كما كان محصورا فى رجال الدين عند أكثر الأمم القديمة وخاصة عنـــد الغربيين حتى عصر النهضة .

٣ ــ سارت الحضارة والعلم مع الدين جنبـــا الى جنب فى تاريخ الحضارة الاسلامية ، حتى اعترف بعض مؤرخى الغرب بأن مدينة قرطبة فى ابان ازدهارها ، كانت تحتوى على مليـــونى نســـمة ليس فيهم أمى واحـــد (٢٦) .

٤ ــ بعد افول شمس الحضارة الاسلامية ، لم تقف حركة العلم ، بل استمرت ولو فى نطاق ضيق ــ حتى عصر نهضتنا الحاضرة ، ونعنى بذلك استمرار اقبـــال النـــاس على العلوم الشرعية خاصـــة من تفســـير وحديث وفقـــه وأصـــول وعقيدة وغيرها . وعلى العلوم الأدبية كاللغـــة

---

(٢٤) رواه البخارى ومسلم .
(٢٥) رواه الحاكم .
(٢٦) مصطفى السباعى « من روائع حضارتنا » ص ٩٨ .

والادب والتـــاريخ وســـواها ، وبعض العلوم الرياضـــية كالحســـاب والفلك والهنـــدسة (٢٧) .

لقد استمرت المساجد والمدارس والمـــكتبات تؤدى رسالتها فى نشر هذه العلوم ، ونشير هنـــا بصورة خاصـــة الى علم الفقـــه . فالعقل الاســـلامى رغم ركوده بعد عصور الحضـــارة الاســـلامية الزاهرة لم ينقطع عن التفكير فى التشريع فى اية بيئـــة اســـلامية كانت ســـواء فى العواصم او القرى وســـواء فى مراكز الحضـارة او الأماكن النائيـــة ، كاليمن أو نجد او حضرموت او اواسط افريقيا لم تنقطع ابدا حركة التأليف فى الفقه على مختلف المـــذاهب ، وبذلك اصبح الفقه الاسلامى ثروة نامية لا مثيل لها فى أمة من امم العـــالم .

---

(٢٧) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ٧٠ .

الفصل الرابع

المستشرقون والنظم الاسلامية

المستشرقون ونظم الحكم فى الاسلام

لم يسلم نظام الحكم فى الاسلام من اقلام المستشرقين المغالين الذين حاولوا أن يشككوا المسلمين فى عدل النظم السياسيه التى جاء بها الاسلام ، بل وارادوا ان يجردوا الشريعة الاسلامية من الصفة الكبرى التى اتصفت بها وهى انها دين ودولة . فهذا كتاب صدر سنة ١٩٦٢ م الفه هـ/ب شرابى وهو أستاذ مساعد بجامعة جورجتاون وعنوانه « الحكومات والسياسة بالشرق الأوسط فى القرن العشرين » .

يقول المؤلف عن موقف الشريعة من نظم الحكم « اذا دققنا فى القول لم نجد فى الاسلام نظرية مستقلة للحكومة ، اذ كل مايرتبط بالحكومة والدولة يدخل فى نطاق الديانة ، فلا فاصل بين الدينيات والدنيويات ، والمسلم الذى يدين بالله وبرسالة نبيه محمد عضو من اعضاء الجماعة الاسلامية بحق الانتماء الى الديانة فقط ، لا بحق القرابة أو اللغة أو العنصر ، ومن الوجهة السياسية تتسم الجماعة الاسلامية ؛ او الدولة الاسلامية بسمات أربع وهى :

١ ــ ان الله رأسها والقرآن كما تنزل على النبى دستورها الوحيد .

٢ ــ أن كلمات الله هى الشرع الوحيد وليس للجماعة أن تجرى لها شرعا غيره .

٣ ــ ان وظيفة دستور الحكومة وشكلها واحكامها ابدية ، ولا يمكن تغييرها كيفما اختلف الزمان والمكان .

٤ ــ ان الغاية من الحكومة هى اقامة الدين وتنفيذ كلمات الله تال :

ويتضح من هذا ان الشريعة ــ وهى جملة الأوامر الالهية ــ ليست قانونا بالمعنى المفهوم من القانون فى العصر الحديث ، ولكنها قضايا

معصومة ترسم للمسلم احكام سلوكه فى حياته كلها دينيا وسياسيا واجتماعيا وفى الأسرة والبيت » (١) .

معنى ذلك ان هذا المستشرق يحاول أن يشوه حقيقة الشرع الاسلامى بالنسبة للحكومة الاسلامية ، بل وينفى عنه انه جاء بشىء لتنظيم الحياة الانسانية ، بل وجعل الحكومة حكومة ثيوقراطية بمعنى الكلمة ، اى انها لا تمس النواحى الدنيوية ، ولا يستطيع المسلم او يضيف الى هذه الشريعة شيئا يتلاءم مع تطورات العصر اى انها شريعة دينية جامدة .

ولكننا لابد ان نوضح لهذه الفئة من المستشرقين حقيقة الحكومة الاسلامية ، وطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم فيها .

فالاسلام دين ودولة ، لأنه نظم شئون الدين والدنيا معا ، فكما تكلم عن الملائكة والأنبياء والجنة والنار والعبادات وغيرها من شئون الدين ، تكلم كذلك عن البيع والشراء والزواج والطلاق والميراث وغيرها من شئون الدنيا ، ووضع الاسلام لهذه وتلك القوانين والنظم ، والزم المسلمين باتباعها ، وحدد عقوبة المخالفين .

يذكر جولدزيهر تهمة اخرى وهى « ان سلطة الخليفة كانت مطلقة فى كل مكان ، ولم يكن هناك نظام يتدخل بين الحاكم ورعاياه لتقييد سلطته » (٢) .

اذا اردنا ان نفند هذا الاتهام ، فعلينا أن ننظر الى الدولة الاسلامية عامة ، والى اول خلفائها ابى بكر الصديق الذى يعتبر مثالا يحتذى فى الحكومة الاسلامية المثلى فقد طبق ما جاء به الشرع فى شئون الناس الدينية والدنيوية .

كان هذا الخليفة الحاكم رأس الدولة ، اختير من بين صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واشترط فى اختياره امور شرعية كثيرة ، منها العلم ، والعدل ، والكفاية وسلامة الحواس ، والنسب القرشى .

---

(١) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٣١ .
(٢) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ج٣ ص ٥٤٥ .

واذا استعرضا مجموع خلفاء الاسلام — حسه الراشدين — نجد انهم نماذج مشرفة لتطبيق سياسة الدين والدنيا ، وحسبنا في ذلك عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلى بن ابى طالب ، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم من الخلفاء .

فهؤلاء الخلفاء اذن ليسوا خلفاء دينيين فقط ، وانما هم خلفاء دين ودنيا ، فليست النظم الاسلامية مثل النظم الغربية تفصل بين السلطتين ، فلا يعرف الاسلام سلطة الكهنوت ، ولا يعرف العصمة لأحد الا المرسلين (٣) .

والحاكم والخليفة ليس معصوما من الخطأ فى تصرفاته ، وليس له قداسة مترفعة عن مستوى الناس ، كيف وهو فرد من الأمة جاء عن طريق الاختيار والبيعة وعليه أن يستشيرها ، ويأخذ رأى اهل الحل والعقد فيها .

معنى ذلك أن الحكم فى الاسلام قام على أساس الشورى ، وماهى الا المسمى الحديث « الديمقراطية » قال تعالى « وأمرهم شورى بينهم » (٤) وقوله تعالى « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » (٥) .

وهاتان الآيتان تبينان أن اختيار الحكومة ليس معناه تسليم كل الامور اليها ، وانقطاع رأى الناس ، بل توضحان ان واجب الحاكم أن يستشير ليس فقط ، اهل الحل والعقد ، بل جماعات أوسع من المسلمين، بل المسلمين جميعا فى مهام الأمور اذا أمكن ذلك بطريق الاستفتاء العام او اى طريق آخر ، والاية الأولى تصوغ هذه الفكرة صياغة رائعة فهى لاتتجه الى أسلوب الأمر بالمشاورة ؛ وانما توضح أن المشكلات انما هى مشكلات الامة ، وان الأمور امورها فطرح هذه المشكلات للامة للتشاور

---

(٣) القرضاوى والعسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٢٩
(٤) سورة الشورى آية ٣٨ .
(٥) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

ولرغبة الوصول الى حل سليم أمر عادى ، هو فى الحقيقة وضع الأمور فى نصابها واعطاء الحق لصاحبه .

اما الآية الثانية ، فلم تكتف بالأمر بالمشاورة ، وانما رسمت أخلاق الاسلام وروحه التى يجب ان يتحلى بها الحاكم ، فأوصته بالرحمة ولين الجانب والعفو والتسامح والدعاء للمسلمين بالمغفرة ، وكل هذه المظاهر تمهد للمشاورة (٦) .

معنى ذلك ان الحكومة فى الاسلام تتميز بصفتين :

١ ـ الحرية السياسية ، وهذه تتجلى كما ذكرنا فى مبدأ الشورى ، فلا استبداد فى الراى من قبل الحاكم ولا قلة تتحكم فى الكثرة .

٢ ـ هناك حرية فى التفكير والنصح والنقد وابداء الراى فالحرية مصانة ، وكل مسلم له الحق فى ان يبدى رايه فى اعمال الحاكم واعمال اخوانه اذا كان فيها ضرر على المجتمع الاسلامى ، وله أن ينبه على الخطأ ويدل على الطريق الحسن ، وهذا هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يفعل ذلك دون ان يخاف ظلما او تعذيبا أو سجنا (٧) .

وكذلك فان له أن يقترح على الحاكم ما فيه الخير للمجتمع . خطب عمر بن الخطاب فى الناس عندما أراد القفول من طاعون عمواس فقال : « من علم شيئا ينبغى العمل به فليعلمنا نعمل به ان شاء الله (٨) .

٣ ـ هناك حرية التملك فأنت تستطيع أن تتملك ما تشاء بالحق اى بسعيك ومالك ، ليس بالسرقة أو الرشوة أو الاغتصاب ولا يحق لأحد من الناس ولا للحاكم أن ينزع حق التملك منك ، ولا أن يأخذ من مالك الا برضاك ليس غصبا ولا سرقة ، ولا تأميما قال رسول الله صلى عليه

---

(٦) احمد شلبى « مقارنة الأديان » ص ٢٥٨ حـ ٣ .
(٧) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى » ص ٣٢ .
(٨) ابن كثير « البداية والنهاية » حـ٧ ص ٧٩ .

وسلم « كل المسلم على المسلم حرام — دمه وماله وعرضه » (٩) ولا تقيد الملكية الا اذا ادى استعمالها الى الاضرار بالغير .

واذا تركنا ذلك ونظرنا الى العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى الاسلام نجدها فى قوله تعالى « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم » (١٠) فالحاكم الذى يبايعه المسلمون لضمان حقوقهم ومراجعتهم فى واجناتهم له عليهم حق السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكروه، وهذا يعنى مؤازرة الحاكم فى كل شىء مادام يتقيد بالشرع او مادام متصفا بشروط الامامة فاذا خرج عن الشرع او فقد شروط الامامة فلا طاعة له (١١) .

وهناك نماذج مشرفة فى الاسلام لهذه العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ولا يفوتنا اننا ننوه هنا بعهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب الذى ضرب أروع مثل فى هذه العلاقة الحرة الديمقراطية ، حتى لنراه يوما يصعد المنبر خطيبا فيقول على حسب رواية بن الجوزى « لا تزيدوا فى مهور النساء على اربعمائة درهم من زاد القيت الزيادة فى بيت المال » ثم غادر المنبر فانبرت اليه امراة من صف النساء تقول « ما ذلك لك » فسألها ولم ؟ فاجابت لأن الله تعالى قال « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا اتأخذونه بهتانا واثما مبينا » فقال عمر : اصابت امراة واخطأ عمر، ثم رجع الى المنبر فقال : ايها الناس كنت نهيتكم أن لاتزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب وطابت به نفسه فليفعل (١٢) .

هذا دليل بسيط على ديمقراطية الاسلام ، وكيف كانت العلاقة بين

---

(٩) خطبة حجة الوداع . انظر بن هشام « السيرة النبوية » جـ ٤ ص ١٩٢ — ١٩٣ .
(١٠) سورة النساء آية ٥٩ .
(١١) محمد المدنى « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء » ص ١١٥ .
(١٢) عائشة عبدالرحمن « المراةالمسلمة بين الأمس واليوم » ص٨٦

الحاكم والمحكوم ليس هناك حجابا يحجب بينهم ، ولا مانع يمنع احدا من مجادلة الخليفة بما يراه فى مصلحة الاسلام ، وليس هناك ما يمنع انسانا من ان يأخذ حقه من الخليفة سواء أكان هذا الحق حقا ماديا أم معنويا ، فالاسلام هو دين الديمقراطية الحقة .

وقد افرد بن عبد ربه فى كتابه « العقد الفريد » كتابا للمواعظ والزهد وهو ملىء بما وعظ به العباد رجال الحكم من الخلفاء .

ويكفى أن نثبت صلاحية الحكم فى الاسلام بما يثبت من تقدم الشعب ورفاهينه فى عهد الخلفاء الراشدين فالفساد الذى طرأ فى عهد متأخر لا يرجع الى قانون الاسلام ، وانما الى التخلى عنه .

ويكفى أن نؤيد رأينا هذا برأى فيليب حتى المستشرق المعادى للاسلام ، والذى عاب من قبل شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه انصف الحكومة الاسلامية فى قوله : « لم تكد تمر مائة عام على وفاة مؤسس الاسلام ، حتى صار اتباعه سادة امبراطورية اعظم من امبراطورية روما ابان مجدها ، امبراطورية امتدت من خليج بسكاى الى نهر السند ، ومن تخوم الصين وبحر آرال الى الشلال الاعليا من النيل » وكان اسم النبى العربى مقترنا بلفظ الجلالة ، تردده الألسنة خمس مرات فى اليوم من آلاف المآذن المتناثرة فوق جنوب أوربا وشمال افريقيا ، وغرب آسيا ووسطها (١٣) .

حقيقة ان الدين الاسلامى لم يهمل النظم السياسية التى سيساس بها العالم ، فقد قرر هذا الدين فى محكم آياته مبدأ المساواة بين الناس

---

(١٣) فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ١١٢ .

عامة ، والمرأة والرجل والصغير والكبير ؛ والغنى والفقير والوالى والعامل كلهم متساوون مساواة تامة ، والله سبحانه وتعالى هو الذى جعل الناس شعوبا وقبائل مختلفة متعددة ، والجميع متساوون امام الله واكرمهم عند الله اتقاهم (١٤) .

قال تعالى : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١٥) وقوله تعالى : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (١٦) .

وبهذا اقر الاسلام بأن الخلق ابناء اب واحد وام واحدة فى اصلهم فمهما كان موطن مولدهم ، ومهما كان وضع طبقتهم فهم متساوون ، فلا تفاخر بالانساب ولاتباهى بالألقاب ، يقول تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب » (١٧) .

ولم تكن المساواة معروفة قبل الاسلام . بل كان يسود المجتمعات البشرية نظام الطبقات ، والتفرقة الكبيرة بين الطبقة والاخرى بل بين افراد الطبقة الواحدة ، فكان اذا قتل لقبيلة عبد اجتمع افرادها ليقرروا ما يساوى عبدهم من افراد القبيلة . وقد جزم القرآن الكريم بالقصاص فى سورة البقرة « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » (١٨) .

---

(١٤) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ١١٣ .
(١٥) سورة الحجرات آية ١٣ .
(١٦) سورة النساء آية ١ .
(١٧) سورة الحجرات آية ٤٩ .
(١٨) سورة البقرة آية ١٧٨ .

وبهذه المساواة التامه بين افراد الجنس البشرى حصن المسلمون ضد الانقسامات التى نشاهدها فى معظم بلاد العالم ، ولعل ما يعترى العالم على فترات الزمن من جور الأمم بعضها على بعض ، وبغى الأفراد بعضهم على بعض يرجع كله الى عدم المساواة . فما زالت بعض الأمم تعتبر أفرادها من جنس مفضل على جنس أفراد غيرها ، وما زالت التفرقة العنصرية واختلاف الأصل بين الدول الكبرى سببا فى اندلاع الثورات وعدم الاستقرار .

المستشرقون والنظم الاقتصادية فى الاسلام

لاقت النظم المالية فى الاسلام من زكاة وصـــدقة وفىء وغنائم وجزية وخراج وضرائب متنوعة وجهات نظر ، وآراء هدامه من قبل المستشرقين، فمنهم من بين قيمة هذه النظم ، وانها نظم عادلة لم تجاف الحق ، ولم تظلم احدا ، ومنهم من تجنى عليها ورماها بالقصور والظلم ، وذكر « ان الاسلام ليس الا دين تشريع ومعاملات ، ولم يأت للنـــاس بنظام منفصل للشـــئون الاقتصادية والحياة السياسية » (١) .

وهنـــاك ماكتبه ماكس بريشم العالم السويسرى فى حديث مجحف يجافى الحقائق التاريخية ، فقد انتهى فيه الى ان نظام الجزية فى الاسلام اضطر الـكثير الى الدخول فى الاســـلام تخلصـــا من الضرائب الثقيلة التى فرضت عليهم ، واعفى منها المسلمون ، وايضا لتكون لهم المـــكانة الاجتماعية التى يتمتع بها المسلمون دونهم » ولم يخل كلامه من تضـــارب واضـــطراب (٢) .

وهنـــاك رأى لاحد المستشرقين يدعى فيليب فونداس خاص بالزكاة فى الاســـلام ، يقول « ان الأموال المادية فى نظر الاسلام هى من اصل نجس شيطانى ، ويحل للمسلم ان يتمتع بهذه الأموال شريطة ان يطهرها، وذلك بارجاع هذه الأموال الى الله » . ويظهر أن الشارح أخذ من قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٣) . أى — فى

---

(١) محمد غلاب « نظرات استشراقية » ص ٥٨ .
(٢) عبد الجليل شلبى « الاسلام والمستشرقون » ص ٩٧ .
(٣) سورة التوبة آية ١٠٣ .

اعتقـادهم ــ ان الأموال نجسة فى اصلها، واذن فالزكاة وسيلة تطهيرها، وبذلك فهم التطهير فهما حرفيا أو حسيا (٤) .

ورايت قبل ان افند افتراءات المستشرقين ، وارد شبهاتهم ان اذكر بعضا من آراء المنصفين منهم ، فالسير توماس ارنولد يقول فى موضوع الجزية « لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبـة على المسيحيين ، كما يريد بعض الباحثين على الظن ــ لونا من الوان العقـاب لامتناعهم عن قبول الاسـلام وانما كانوا يؤدونها مع سـائر اهل الذمة ، وهم غـير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخـدمة فى الجيش فى مقابل الحماية التى كفلتها لهم سـيوف المسلمين ، ولمـا قـدم اهل الحيره المـال المتفق عليه ذكروا صراحة انهم انما دفعوا هذه الجزية على شريطة ان يمنعونا واميرهم البغى من المسلمين وغـيرهم ، وكذلك حدث ان سجل خالد فى المعاهـدة التى ابرمهـا مع بعض اهالى المدن المجاورة للحيرة قوله « فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا » .

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التى وقعت فى حكم الخليفـة عمر ، لمـا حشد الامبراطور هرقل جيشا ضـخما لصـد قوات المسلمين المحـتلة ، كان لزاما على المسلمين نتيجة لمـا حدث ان يركزوا كل نشاطهم فى المعركة التى احدقت بهم ، فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب الى عمال المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ماجبى من الجزية من هذه المدن وكتب الى النـاس يقول « انما رددنا عليكم أموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وانكم قـد اشترطتم علينـا ان نمنعكم ، وانا لانقدر على ذلك، وقـد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ، ونحن لـكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم » وبذلك وردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : ردكم الله علينـا

---

(٤) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاسـتعمار » ص ٥٢ نقلا عن فيليب فونداس « دراسة عن الاسلام فى افريقيا السوداء »

ونصركم عليهم . « أى الروم » فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، واخذوا كل شيء بقى لنـــا ، ويستطرد توماس ارنولد قائلا : ان الجزية فرضت على القـــادرين من الذكور مقـــابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطالبون بادائها لو كانوا مسلمين (٥) .

والى جانب راى توماس ارنولد نضيف ماذكره المؤرخ فيليب حتى فى هذا الصدد — على الرغم من عدائه للاسلام — « كان اهل الذمة يتمتعون فى نظير دفع الجزية والخراج بحظ كبير من التســـامح الدينى ، وكانوا يخضعون حتى فى الأمور المـدنية والقـــانونية جميعـــا الى رؤســـائهم الرئيسيين » (٦) .

والمعروف أن الجزية وجبت على اهـــل الذمة ، كما وجبت الزكاة على المسلمين ، حتى يتكافأ الفريقان ، وهما رعيـــة لدولة واحـــدة فى المسئولية ، كما تكافآ فى التمتع بالحقوق وتساويا فى الانتفـــاع بالمرافق العامة للدولة ، فليست الجزية دينا على الذمى يستوفى منه بالوسائل التى تستوفى بها الديون ، فمن وجبت عليه الجزية ومات او اسلم قبل دفعها ، لم تؤخذ من تركته ، ولم يطالب بها ورثته (٧) .

وانما تجب الجزية على الرجال الأحرار العقـــلاء الأصحاء القادرين على الدفع ، ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا ممن لا قدرة له على العمل ، ولا من الاعمى ، او المقعد او المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ولا من احد من المترهبين فى الأديرة واهل الصوامع الا ان كان غنيا .

ويلاحظ أن الشرع لم يفرض الجزية الا على الأشخاص الذين تجب

---

(٥) توماس ارنولد « الدعوة الى الاســـلام » ص ٧٩ .
(٦) فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ٢٣٣ .
(٧) ابو يوسف « كتاب الخراج » ص ١٣٢ .

عليهم الجهاد لـ وكانوا مسلمين ،وانه اعفى منها الأشخاص الذين يعفيهم من القتـــال .

وفى ذلك يقول الماوردى « واسمها مشتق من الجزاء ، فيجب على اولى الأمر ان يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من اهل الـكتاب ليقروا « يستقروا » بها دار الاســلام ويلتزم لها ببذلها بحقين ، احدهما الـكف عنهم ، والثـانى الحمـاية لهم ، ليكونوا بالـكف آمنين وبالحماية محروسين » (٨) .

اما مقدار الجزية فقد قسمها ابو حنيفة ثلاثة اقسام :

١ ــ اغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما .

٢ ــ ومتوسطون يؤخذ منهم اربعة وعشرون درهما .

٣ ــ وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهما .

وأما جباية الجزية فقد اوصى صاحب الشرع وقادة الاسلام بالرفق والانصاف فى جبايتها من أهل الـكتاب وصـيانة أرواحهم وأموالهم من عبث الجبـاه والولاه ، وتقضى القاعدة الفقهية أو دســتور الاسلام فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعيها بأن « لا يضرب احد من اهل الذمة فى استيلائهم الجزية « اى لحملهم على ادائها ، ولا يقاوموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى ابدانهم شىء من المـكاره ، ولـكن برفق يحبسون حتى يؤدوا ماعليهم » (٩) .

وباستقراء هـذه النظم نجـد انها نظما عادلة راعت حالة الشعب الاقتصادية ، ولو قارنا ذلك بأحوال هذه البـلاد فى العهـدين الرومانى والبيزنطى ، فقد كانت هنـاك نظم جائرة ، فقد كان الروم يجبون منهـا

(٨) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ١٦٣ .
(٩) ابو يوسف « كتاب الخراج » ص ١٣٣ .

عشرين الف الف دينار ؛ وان الفراعنة كانوا يجبون تسعين الف الف .

اما عن الخراج ، فقد وضح انه ضريبة على الأرض التى يفتحها المسلمون فتصبح فيئا لهم ، والواقع ان المسلمين بداوا أولا بالسلم وبعرض الاسلام على اهل البلاد المفتوحة ؛ فاذا لم يجيبوا الى الاسلام فالحرب بينهم ، وبذلك تصبح اراضيهم من جملة الفىء ، وقد ذكر ابو يوسف فى كتاب الخراج ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى سعد بن أبى وقاص حين افتتح العراق « اما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم فيهم مغنمهم ، وما افاء الله عليهم ، فاذا اتاك كتابى هذا، فانظر ما اجلب الناس عليك به الى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء، وقد كنت امرتك أن تدعو من لقيت الى الاسلام قبل القتال ، فمن أجاب الى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم ، وله سهم فى الاسلام ، ومن اجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين ، وما له لأهل الاسلام لأنهم قد أحرزوه قبل اسلامهم فهذا امرى وعهدى اليك » (١٠) .

من هذا النص يتضح لنا مدى سماحة الاسلام ، وكيف ان المسلمين كانوا يراعون أهل الذمة ، وكيف ان الذمى اذا دخل فى الاسلام أخذ نفس حقوق المسلمين لم ينقص منه شىء ، وان هناك أراضى تترك لأصحابها يدفعون عنها الخراج الذى قرره عمر بن الخطاب بعد ان اشار جماعة من المسلمين ، وجميعهم كانوا يرغبون فى ان تؤخذ هذه الاراضى من اصحابها ، وتصبح ملكا لهم ، ولكنه قال : « رايت ان احبس الأرضين بعلوجها واضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية لمن يأتى بعدهم » .

---

(١٠) ابو يوسف « كتاب الخراج » ص ٢٦ .

وبذلك مسح عمر أرض السواد « العراق » فبلغ ستة وثلاثين الف الف جريب ، ووضع على جريب الزرع درهما وقفيزا وعلى الكرم عشر دراهم وعلى الرطبة خمس دراهم ، وعلى الرجل اثنى عشر درهما واربعة وعشرين درهما ، وثمانية واربعين درهما (١١) .

هذا ما ذكره ابو يوسف فى كتاب « الخراج » ، واذ حللنا هذا النص نجد فيه مدى عدل الخليفة عمر ، فانه لم يجعل الخراج مبلغا مساويا من المال يفرض على الأرض عامة ، ولكنه راعى فى هذه الأرض نوعها ، ونوع المحصول الذى تنتجه ، ثم قدر بعد ذلك ، كما أنه راعى أمورا كثيرة منها سهولة ريها وقربها وبعدها للعمار ، كما راعى ظروف الذميين ، فلم يجعل الجزية متساوية ، ولكنها قسمها طبقا لأحوال الفرد المالية .

وقد حاول المستشرق ماكس بريشم أن يدس اتهاما آخر ، وهو أن الذميين « بداوا يقبلون على الاسلام هربا من هذه الالتزامات المالية الكبيرة التى فرضها عليهم الاسلام » (١٢) .

والحقيقة أن هذا الراى خاطىء ، خاصة وأن المسلمين اضطروا فى فترة من تاريخهم الى ابقاء الجزية على من أسلم ومع ذلك فلم تقل حركة الدخول فى الاسلام بل كانت تزداد يوما بعد يوم ؛ فقد حدث أن رأى الحجاج بن يوسف والى العراق أن ايرادات بيت المال تتناقص من جراء دخول عدد كبير من اهل الذمة فى الاسلام ، لذلك خالف سنة ابن الخطاب وابقى الجزية على من اسلم وسار الولاة من بعده على هذا العمل ، فلم تقل حركة الدخول فى الاسلام فقد حاول الوالى على مصر أن يفعل ذلك فى عهد عمر بن عبد العزيز ، فرد عليه بقوله « فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، انما بعث الله محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » (١٣) ورفع الجزية عمن أسلم مرة أخرى .

---

(١١) ابو يوسف « المصدر السابق » ص ٤١ .
(١٢) عبد الجليل شلبى « الاسلام والمستشرقون » ص ٩٧ .
(١٣) الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » ج ٦ ص ٢٠٣ .

الاســـلام والملــكية

اعترف الاسلام بالملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع ، ليشبع بذلك الدوافع الفطرية فى حب التملك والادخار ، ولـكنه لا يشجع الملكية الفردية اذا نشأت عن سبب مشروع ، فقد سمح بمصادرة هذه الأموال مهما طال عليها الزمن .

وقد شجع الاسلام الانسان ليحصل المال وينتفع به ، فأمر بتحصيله عن طريق التجارة وبالرحلة اليمنية والشامية اللتين يسرهما الله لقريش فى تجارتهما يمن عليهم ويذكرهم بفضله ونعيمه ، وأمر بتحصيله عن طريق الزراعة التى بها حياة الأرض واستثمارها ، وبتحصيله من الصناعة والصناعة اقوى العمد التى تقوم عليها الحضارات وفى القرآن الكريم اشارات كثيرة الى جملة من الصناعات مثل الحديد (١٤) .

امر القرآن بتحصيل الأموال عن هذه الطرق وسمى طلبها ابتغاء من فضل الله ، وقد بلغت عنايته بالأموال أن طلب السعى فى تحصيلها بمجرد الفراغ من اداء العبادات الاسبوعية المفروضة ، وانه لم يأمر بالانصراف عن تحصيلها الا لخصوص هذه العبادة ، يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » (١٥) .

معنى ذلك ان المال ليس غاية فى ذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج ، فمن استعمله فى هذا السبيل كان المال فى يده خيرا له وللمجتمع ومن استعمله على انه غاية ولذه انقلب الى شهوة تورث صاحبه المهالك وتفتح على الناس ابوابا من الفساد .

هذا موقف الشرع من المال ، اما موقفه بالنسبة للانتفاع به فقد أمر بالاعتدال فى صرفه ، وقرر بالنهى عن الاسراف فيه ، وبالنهى عن الضن به وجعل الاعتدال فى صرفه من صفات المتربين عباد الرحمن ، وجعل الاسراف فيه ، والضن به عن الحقوق والواجبات مما يوقع فى الحسرة

---

(١٤) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٥٠—٢٥١ .
(١٥) سورة الجمعة آية ٩ .

والملائمة (١٦) فالانسان فى الاسلام ليس مالكا حقيقيا يتصرف فى ماله كيف يشاء لأن المال مال الله ؛ ومعنى هذه العبارة ، أنه مال الجماعة والغنى موظف على رعايته وانفاقه بما يوافق صالح الجماعة « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (١٧) وقوله تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (١٨) .

فالملكية اذا وظيفة اجتماعية ، والغنى اذن مطالب ازاء مجتمعه بواجبات مالية ادناها الزكاة ، وهى ليست تبرعا ولا احسانا يعطيه الغنى للفقير فيشعر بالاستعلاء ، ويشعر الفقير بالمذلة والهوان ، بل هى حق معلوم وضريبة مفروضة تأخذها الدولة بواسطة الجباه العاملين عليها ، وتنفقها على المحتاجين ، وعلى المصالح العامة . قال تعالى :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » (١٩) .

وقد نص الامام الشافعى على أن للفقير احقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشترك بين صاحبه ، وبين الفقير ، ويجوز للفقير ان يأخذ مقدار الزكاة اذا ظفر به ، وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه ، وفى هذا اخراج للزكاة عن ان تكون مظنة للذل والمهانة للفقير ، كما يتوهم بعض الناس (٢٠) .

والنسبة المفروضة من زكاة المال هى ٥ر٢٪ وهى نسبة مقبولة تسخو بها النفس طواعية ، واختيارا وهى مع ذلك تجمع حصيلة كبيرة جدا لأنها نسبة من راس المال والربح الناشىء عنه خلال السنة كلها ، كما ان الزكاة عامل من عوامل توزيع الثورة وانتقالها من ايدى الناس

---

(١٦) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٥٢ .
(١٧) سورة الحديد آية ٧ .
(١٨) سورة النور آية ٣٣ .
(١٩) سورة التوبة آية ٦٠ .
(٢٠) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١٢٨ .

خلال سنوات محدوده بحيث يكون مايملكه الانسان بعدها ثروة جديدة انشاها بجهده وعمله (٢١) .

وقد أشاع بعض المستشرقين كلاما مرذولا حول بيت المال الذى تجمع فيه الزكاة والموارد الأخرى ، وان بيت المال ان هو الا خزينة خاصة ينفقون منها كيف شاءوا ، دون معقب (٢٢) .

هذا رأى بعض المتغالين والحاقدين على الاسلام ، حاولت أن اعارضه برأى لمستشرق آخر منصف فى هذا الموضوع بالذات وهو المستشرق ماسينيون قال « ان لدى الاسلام من الكفاية مايجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التى يدفعها كل فرد لبيت المال ؛ وهو يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات الاولية الضرورية ، ويقف فى نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية وراس المال التجارى ، وبذا يحل الاسلام مرة أخرى مكانا وسطا بين نظريات الراسمالية والبورجوازية ، ونظريات البلشفية والشيوعية » (٢٣) .

ولابد أن نرد هذه الشبهات عن الاسلام ، فالذى يعرفه كل دارس للشريعة الاسلامية وتاريخها ان بيت المال ليس ملكا للخليفة ، وانما هو ملك للامة جميعها ، والخليفة انما هو خازن أمين ليس له منه الا راتبه بالمعروف كما قال أبو بكر رضى الله عنه : « اعطونى كأوسط رجل من قريش » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « انما انا وهذا المال كولى اليتيم ان استغنيت استعففت ، وان افتقرت اكلت بالمعروف » وأبى على ابن أبى طالب أن يأخذ من بيت المال شيئا لنفسه واهله ! (٢٤) .

هذا مسلك الراشدين من حكام المسلمين ، وخلفائهم ، أما انحرافات بعض الحكام ، فليس حجة على الاسلام ولا يسأل عنها .

واذا كان الاسلام قد سمح بالملكية الفردية الا أنه وضع عليها قيودا بل وسمح لولى الأمر أن يعمل جهده بما يحقق للامة الانتفاع بها

---

(٢١) مصطفى السباعى « المرجع السابق » ص ١٢٩ .
(٢٢) القرضاوى والعسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص٢٣
(٢٣) محمد على « مولانا » الاسلام والنظام العالمى الجديد ص ٤٥
(٢٤) الطبرى « تاريخ الأمم والملوك » ج٤ ص٥ ص ٢٠٣ ، ١٧٥ .

ثروة وان يعمل على تنسيقها بحيث لايترك الأموال تتكدس فى تركيز عنصر واحد منها دون سواه . فلا عليـه أن يحول بعضـا من الأراضى الزراعية الى رؤس الأموال تجارية أو شركات صناعية ، على حسب حاجة البلاد المبنية على تقدير مصالحها ؛ ويتم بذلك تنسيقها على الوجه الـذى يجعلها غنية بنفسها عن غيرها (٢٥) .

وقد عنى القرآن الـكريم عناية كاملة بالحث على البـذل للفقراء المساكين والانفاق فى سبيل الله .

كما القرآن عمل على تحقيق الانتفاع بالمـال لخير الجميع . وتطهيرا للنفوس من بواعث الأثرة منها . وحارب الاسلام فى المالكين لها والقائمين عليها خلق الشح الذى يمنع من البذل والانفاق . كما حارب السفه الذى يؤدى بالمال فى غير وجوه النفع . واقامة المصالح يقول الله تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٢٦) .

وقد أرشد القرآن الـكريم الى أن الضن بالأموال عن اداء الواجبات واقامته المصالح القاء بالنفس الى التهلكة .

وكما وقف القرآن وبجانبه اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من الشح بالأموال هذا الموقف ؛ وقف أيضا الموقف عينه من التبـذير فيها ، واضـاعتها فيما لا يعود بخـير على الأمة « ان المبـذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » (٢٧) . وبعد أن أفرد القرآن كلا من الضن والتبذير بما يصور سـوء عاقبة جمعها فى اطار واحـد وارشد الى الطريق السوى الذى يسلـكه ارباب الأموال فى أموالهم ، فيحفظ عليهم حيـاتهم ، ويمكنهم من اقامتها على عمـد قوية ثابتة (٢٨) قال تعـالى :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعـد

---

(٢٥) محمود شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٥٥ .
(٢٦) سورة التغابن آية ١٦ .
(٢٧) سورة الاسراء آية ٢٧ .
(٢٨) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٥٨ .

ملوما محسورا » (٢٩) وقد حظر القرآن الكريم الربا قليلة وكثيرة ، واعتبر آكل الربا محاربا لله ورسوله « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا ان كنتم مؤمنين » (٣٠) .

وحرم عليهم الاحتكار الذى هو سمة الراسمالية فقد قال صلى الله عليه وسلم « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » (٣١) .

وقد حرم الاسلام الوان الترف التى تفسد الأفراد . فالخمر ممنوعة، وأوانى الذهب والفضـــة محظور ، ولبس الذهب والحرير للرجال محرم

قال تعـــــالى « واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيهـا ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٣٢) .

من ذلك نرى أن النظم الاقتصادية الاسلامية نظم عالمية متحضرة ، فقد اقام الاسلام قواعده الاقتصادية على منع الاستغلال بغير عمل ، وان يتداول المجتمع الثروة حتى لاتكون دولة بين الأغنياء ، وقرر ان تـكون للضعفاء والمحرومين حصـــة سنوية ، وهى حق معلوم للسائل والمحروم، قد يزاد عليها بأمر الاقامة واحسان المحسنين .

فاذا كان المسلمون قد دفعوا الزكاة ، فقد دفع الذميون الجزية ، فالمسلم لابد أن يتزكى من ماله حتى لايحبسه ، ويجب أن يتداول هذا المال فى التجارة والصناعة والعمل (٣٣) .

من هذا العرض نرى ان الاسلام يشجع تداول راس المال، وتشغيله فاذا حبسه الانسان حولا كاملا ، وجبت عليه الزكاة وهى ٢ر٢٪ كذلك فرضت الى جانب زكاة المال زكاة الثمار والزروع ، وزكاة الأرض والثمار والذهب والفضـــة ، فالمجتمع الاسلامى هذا مجتمع متكامل متضامن ،ولا

---

(٢٩) سورة الاسراء آية ٢٩ .

(٣٠) سورة البقرة آية ٢٧٨ .

(٣١) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٢٤ .

(٣٢) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٣٣) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٨٨ .

ولا أظن أن النظم الاجتماعية الحديثة من تكافل وتضامن ورعايه اجتماعية الا شيئا قليلا مما اقره الاسلام .

واعتقد أن هذا رد كاف على المستشرق المتغالى الذى تصور أن أهل الذمة قد أسلموا هربا من الضغوط المالية ؛ كيف ذلك وهذه هى نظم الاسلام المالية .

فالنظم الاسلامية نظم عادلة ؛ ومهما رفع دعاة الاشتراكية رؤوسهم ونادوا بمبادئهم ونظمهم ؛ فليس فى نظمهم وقوانينهم مثل هذه الاشتراكية النابعة من ضمير الانسان ؛ والتى جعلها الاسلام دينا تقترن به دعواه من صلاة ؛ وشهادة ؛ وتوحيد ؛ والمال كله ملك للامة تحفظ اليد المستخلفة فيه وتنميه ؛ ثم تنتفع به كلها ؛ يخرج من أحد جانبيها ويقع فى الجانب الآخر فهو منها كلها ، وهو اليها كلها ؛ وما اليد المعطية ، واليد الآخذة الا يدان لشخصية واحدة كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية ؛ وهى شخصية المجتمع الذى لا قوام له الا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه، ولعل معنى الوسيطية التى حل بها الاسلام المشكلة المالية تظهر بذلك، تلكم المشكلة التى ظل بها العالم فى أمسه وحاضره متردد بين طرفى الافراط بالطغيان المالى والتفريط بالغاء الملكية الفردية ؛ وبذلك تقطعت أواصر الرحم الانسانى ، وسخر الأغنياء الفقراء ؛ وثار الفقراء على الأغنياء ؛ ونشبت الحروب المدمرة ؛ وافلست دعاوى المدعين الذين يخدمون أنفسهم من واقع الأمر ؛ ويتظاهرون بخدمة المجتمع الانسانى ، وما ربك بغافل عما يعملون (٣٤) .

---

(٣٤) عباس العقاد « المرجع السابق » ص ٢٣٤ .

المستشرقون والنظم الاجتماعية فى الاسلام

لم يهمل المستشرقون بابا فى النظم الاسلامية الا تدارسوه ، وبداوا فى اصــدار الأحكام الجائرة عليه ، وكما بينت فى كلامى السابق انمرجع كل هذا هو العداء الصريح للاســلام والجهل به ، ولذلك فمن الموضوعات التى شغلت أفكار واقلام طائفة المستشرقين المعادين للاسلام كانت النظم الاجتماعية فى الاسلام ، واهم قضاياها . الفقر ، التعــاون ، المراة وما يخصها من موضوعات ، الرق فى الاسلام .

وسأتناول كل قضية من هذه القضايا على حده . متعرضــة لآراء المستشرقين فيها ، مع تقديم الردود المؤيدة بالقرآن والسنة .

وسأبدا بمشكلة الفقر التى حاول هــؤلاء المستشرقون أن ينسبوها الى بلاد الاســلام متخذين من سوء الاحوال الاقتصادية الموجودة فى كثير من البلدان الاسلامية سببا فىترديد هذا الراى،تخذين منالنظم الاقتصادية الاسلامية سببا لهذه المشكلة .

والدارس للاسلام يرى أن الفقر مرض اجتماعى ، وليسقدرا مقدورا لا حيلة فى دفعه بسعى أو كسب ، لقد أمر القرآن بالسعى فىالأرض قال « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشــوا فى منــاكبها ، وكلوا من رزقه » (١) فلا يكون الفقر بعد ذلك الا لأحد أمرين اما كسل أو خمول وهذا لا يقره الاسلام ، واما العجز عن العمل ، ومثل هذا الفقر الذى لا حيلة للانسان فى دفــعه ، هو الذى وضع له الاسلام من قوانينالتكافل الاجتماعى مايدفع بؤسه ويحفظ للفقير كرامته .

ومما يدل على نفرة الشريعة من الفقر قوله صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر ان يكون كفر » (٢) وكان مندعائه عليه الســلام « اللهم انى

---

(١) سورة الملك آية ٥١ .
(٢) رواه ابو نعيم فى الحليه .

أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل . وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق . واعوذ بك من الصمم والبكم والجنون وسيء الأسقام » (٣) وفي دعاء آخر للرسول عليه السلام « اللهم انى أسألك التقى والهدى والعفاف والغنى » (٤) .

وهذا انتقال من موقف السلبية ، تجاه الفقر الى الايجابية من عكسه وهو الغنى ، وان فى طلب الرسول للغنى وهو قوة الزهاد فى الدنيا لدلالة بعيدة الأثر فى هذا المقام (٥) .

وقد عمل الاسلام على حل مشكلة الفقر ، فشرع تشريعات تعمل على الحد من هذا المرض الاجتماعى الخطير ، فقد رأينا فى دراستنا للزكاة التى فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده القادرين حلا أمثل لهذه المشكلة ، فقد جعلها الله اذن لتوفير العيش والطمأنينة للبائسين والمحتاجين ، واذا امتنع الغنى عن اخراجها اخذتها الدولة منه قهرا ، وجاز لها أن تعلن الحرب عليه .

وقد جاء الاسلام بنظام الارث . وذلك للقضاء على تكدس الثروات فى يد واحدة ، وهو من عناصر الطغيان المالى الذى يثير فى الجماعة حرب الطبقات ، ويعطى بذلك فرصة متكافئة للفقراء ليقفوا مع الأغنياء ، وفتح لهم باب العمل والكسب ، ولم يجعله محتكرا لطائفة ، ولا مسدودا أمام أحد فمن أحيا أرضا ميتة فهى له ومن طرق باب تجارة فربحها فهى له ، ومن عثر فى باطن الأرض على ركاز (٧) يدفع الخمس منه والباقى له (٨) .

ومن لم يجد عملا وجب على ولى الأمر أن يهيىء له عملا ، فان لم

---

(٣) رواه الحاكم والبيهقى .
(٤) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .
(٥) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ٨٢ .
(٦) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٤٥ .

(٧) ركاز : ماركزه الله تعالى فى الأرض من المعادن فى حالتها الطبيعية ، والكنز والمال . انظر المعجم الوسيط .
(٨) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٢٥ .

يهيء له عملا أو كان عاجزا عن العمل أو كان اجره لا يكفيه ، كان واجبا على ولى الأمر أن يرعاه ، وأن يهيىء له ما هو حق لكل مسلم أو ذمى فى ظل دولة الاسلام .

وقد جعل الاسلام نفقة الفقير العاجز واجبة على قريبه الغنى ، وللحاكم اذا لم تكن الزكاة كافية لسد هذه الحاجات أن يفرض على أغنياء اذا لم تكن الزكاة كافية لسد هذه الحاجات أن يفرض على اغنياء المسلمين الضرائب الكافية التى تقيم مصالح المسلمين (٩) .

وقد قرر علماء المسلمين هذا المبدأ ، فاذا احتاج المسلمون . فلا مال لاحد كذلك اوجب الاسلام على اهل كل قرية أن يلتزموا بسد حاجة فقرائها ، ان لم تكف الزكاة ، وقد قرر ابن حزم « أن من ولى الأمر يلزم الأغنياء من أهل كل قرية بذلك فى هذه الحال » (١٠) . وهكذا اقام الاسلام العلاقة بين الغنى والفقير على اساس المساواة والعدل .

فهو يسوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات العامة ، ويتيح الفرصة للجميع ليتكسبوا ، ويقول للاغنياء « انفقوا من طيبات ماكسبتم » (١١) ويقول لولى الامر « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (١٢) ويقول للفقير لا تحقد ، ولا تحسد « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم » (١٣) ثم يقول للجميع ، كونوا عباد الله اخوانا .

والمعروف أن الاسلام اعطى للفقراء مالم يعطه دين آخر ، واهتم بهم اهتماما بالغا لم يهتم به اى نظام اقتصادى عرف من قبل . محاولا بذلك رفع الفقر عنهم لئلا يفسد المجتمع الاسلامى بوجود عناصر حاقدة محرومة فيه فالفقر يدفع الى الكفر ، ولذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يشير الى الفقراء فى أكثر من موضع ، قال صلى الله عليه

---

(٩) محمد ابو زهرة « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٣٠ .
(١٠) المرجع السابق .
(١١) سورة البقرة آية ٢٦٧ .
(١٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .
(١٣) سورة الحجر آية ٨٨ .

وسلم « شر الطعام الوليمه يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء (١٤)» ، وقال « افضل الصدقة ان تشبع كبدا جائعا » (١٥) .

وقال عليه السلام « من منح منيحة لبن او ورق أو اهدى زقاقا كان له مثل عتق رقبة » وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه الكثيرة يفضل الفقير على الغنى ، ليخفف من شأن الغنى فى المجتمع ، وليجعل الشأن للعمل النافع وللايمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لابى ذر اترى كثرة المال هو الغنى ، قال نعم يا رسول الله ، قال فترى قلة المال هو الفقر ؟ قال نعم يا رسول الله ، فقال الرسول : « انما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب » ، وفى حديث آخر « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكى الغنى غنى النفس » (١٦) .

وكان الرسول عليه السلام يحارب مظاهر الغنى حتى لا تؤذىنفوس الفقراء معنى الحديث « لاتشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تلبسوا الحرير والديباج » (١٧) وفى حديث آخر « من لبس الحرير فى الدنيا ، لم يلبسه فى الاخرة » (١٨) وكان عليه السلام يأمر الفقراء الا ينظروا الى من فوقهم ، ولكن الى الذين دونهم ، كيلا يعمل الحقد فى نفوسهم .

وقد أمر الاسلام باخفاء الصدقات التطوعية وعدم اظهارها أو المن بها ابتغاء الشهرة والظهور والا بطل ثوابها ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » (١٩) .

والمعروف أن التعاون من أهم الوسائل التى تقضى على ظاهرة الفقر فى مجتمع من المجتمعات ، لأن التعاون والتكافل يؤديان الى خلق مجتمع سليم ، واننا نرى اليوم فى المجتمعات الحديثة مؤسسات تعاونية، ودور اجتماعية هدفها ربط الناس وتكافلهم بعضهم ببعض .

---

(١٤) رواه الشيخان .
(١٥) رواه البيهقى .
(١٦) رواه البخارى ومسلم .
(١٧) رواه الشيخان .
(١٨) رواه الشيخان .
(١٩) سورة البقرة آية ٢٦٤ .

واذا كانت هذه النظم الحديثة تدعو الى ذلك ، فالدين الاسلامى هو دين التعاون والتكافل الاجتماعى ، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو اول أستاذ لهذه النظريات فى العالم .

وتعتبر دعوة الاسلام هذه اقدم دعوة فى تاريخ العالم من ١٤٠٠ سنة ، والقرآن الكريم يقول فى سورة المائدة محددا التعاون على البر. وقد جاء البر فى القرآن بمعنى حسن المعاملة وطيب العشرة ومكارم الاخلاق ، والبعد عن الطغيان .

وفيه ورد قولهتعالى « وبرا بوالدتى، ولم يجعلنى جبارا شقيا »(٢٠)

وجاء البر بمعنى الانفاق والبذل فى سبيل الله وهو طريق للحق والخير والنفع ، وورد قوله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٢١) .

وجاء البر بمعنى العبادة من صلاة وزكاة ، وفيه ورد قوله تعالى بعد أن امر بنى اسرائيل باقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة « اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم ، وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون » (٢٢) .

وجاء البر بمعنى مجموعة من الفضائل النفسية والاعتقادية والخلقية، وفيه ورد قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر والملائكة ، والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل، والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » (٢٣) .

كما جاء البر ايضا بالدعوة الى التضامن فى اعمال الخير ، وعدم

---

(٢٠) سورة مريم آية ٣٢ .
(٢١) سورة آل عمران آية ٩٢
(٢٢) سورة البقرة آية ٤٤ .
(٢٣) سورة البقرة آية ١٧٧ .

التضامن فى اعمال العدوان فى قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (٢٤) والى جانب البر نجد الاسلام اعلن عن مبادىء كثيرة للتكافل الاجتماعى فى نصوص كثيرة من القرآن والسنة ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى « انما المؤمنون اخوة » (٢٥)

ان اعلان الاخاء بين افراد مجتمع ما يوجب التكافل بينهم لافى الطعام والشراب وحاجيات الجسم فقط ، بل فى كل حاجة من حاجيات الحياة.

فالدعوة التعاونية فى الاسلام قد عمت أكثر من ذلك ، فأمر بأن يكون الخير بلا تحديد فى نواحيه هو هدف المجتمع التعاونى ، كما أمر بالبعد عن الاثم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ونرى الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع أحاديثه يدعو الى هذا المبدأ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » (٢٦) وقوله عليه السلام « من كان فى حاجة اخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة » (٢٧) وقوله عليه السلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » (٢٨) وقوله « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » (٢٩) .

وبذلك تتنوع أنواع التكافل فى الاسلام ، فهنساك التكافل الأدبى ، وذلك ان يشعر كل واحد نحن الآخرين بشعور الحب وحسن المعاملة والتعاون فى سراء الحياة وضرائها ، وقد دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « احب لأخيك ماتحب لنفسك » (٣٠) .

---

(٢٤) سورة المائدة آية ٢ .
(٢٥) سورة الحجرات آية ١٠ .
(٢٦) رواه الشيخان .
(٢٧) رواه البخارى ومسلم .
(٢٨) رواه الشيخان .
(٢٩) رواه الشيخان .
(٣٠) رواه الحاكم والطبرانى .

وهناك التكافل العلمى ، فقد أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم على العالم أن يعلم الجاهل ، وعلى الجاهل أن يتعلم من العالم . ويدخل فى ذلك الا يضن العالم بعلمه على الناس ، وأن يكتم ما ادركه من أسرار الشريعة او الكون ، لكى ينفرد بالرئاسة أو التميز العلمى ، وقد جاء فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « من كتم علما لجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (٣١) .

وهناك تكافل سياسى . فقد قرر الاسلام أن لكل مواطن حقه السياسى وحقه فى المراقبة والنصح لأولياء الأمور، لانه مسئول عن مستقبل الامة وما كان كذلك ، فالمجتمع كله متكافل فى تأييد السياسة الرشيدة ، وانكار الفساد والانحراف فيها ، ويدخل ذلك تحت عموم قوله صلى الله وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٣٢) .

وهناك تكافل دفاعى . وذلك ان كل مسلم فى الدولة عليه أن يتكافل مع بقية مواطنيه بالدفاع عن سلامة البلاد ، وعليه النفير اذا اغار عدو او مغير على ناحية منها بحيث أصبحت الأمة فى حالة استنفار . وفى ذلك نزل قوله تعالى « انفروا خفافا وثقالا » (٣٣) ولا يعفيه من هذا الواجب مقام ولا منزلة الا ان يكون به عذر أو مرض (٣٤) .

وبذلك نرى أن الاسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويهدف الى تكوين مجتمع صالح متعاون متكافل ، متراحم متواص بالخير ، متواص بالرحمة له ولأفراده ، لهم المجد والفلاح فى الدنيا والفوز والنجاح فى الآخرة . واذا كانت بعض المجتمعات الانسانية تسير الآن فى ظروف يعتريها فيها الفقر والحاجة ، مما جعل أعداء الاسلام يتهاولون على نظم الاسلام ويتهمونها ، فاننا بما قدمنا نكون قد اثبتنا ان المسئول عن هذه المشكلة ليس الاسلام ، ولكن سوء تطبيق نظام الاسلام .

---

(٣١) رواه أبو داود الترمذى .
(٣٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣٣) سورة التوبة آية ٤١ .
(٣٤) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١١٨ .

المرأة المسلمة فى نظر المستشرقين

وجه المستشرقون اتهامات كثيرة حول قضية « المرأة فى الاسلام » وحاولوا ان يشوهوا الصورة الكريمة الى رسمها القرآن الكريم للمرأة، ورددوا شبهات واهية ، وصورا مكذوبة .

فقد زعم زاعمون منهم ان الاسلام اهتضم حق المرأة وأسقط منزلتها وجعلها متاعا فى يد الرجل يتصرف فيها كما شاء بما يشاء .

والحقيقة ان المسألة لا ترجع الى حق يريدون تقريره او باطليريدون تزييفه ، وانما هى العصبية الدينية أو الفتنة بالتقليد الأجنبى عن طريق استحسان مايستحسنهالقوى ،ولو كان قبيحا منكرا واستقباح مايستقبحه الضعيف ولو كان حسنا معروفا ، وهذا شأن درج عليه الناس فى استحسان مايستحسنون واستقباح مايستقبحون (١) .

والحقيقة ان الاسلام قد شمل المرأة فى جميع تشاريعه الخاصة بنظام الأسرة برعاية كريمة وعطف كبير ، وسما بها الى مستوى رفيع لم تصل الى ماله ولا الى ما يقرب منه اية شريعة اخرى من شرائع العالم القديمة والحديثة .

فقد رأينا كيف كانت تعامل المرأة قبل الاسلام معاملة مهينة ، فقد كانت تعامل كانها سقط متاع ، فهى لا تشارك فى الرأى أو الحرب ، ولا تدفع الأذى عن قبيلتها (٢) .

يقول ابن عباس رضى الله عنه « كانت الحوامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة ، فمخضت على رأسها ، فاذا كان المولود انثى تذفت بها

---

(١) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢١٨ .
(٢) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٩٠ .

فى الحفرة واذا كان ذكرا استبقته فى حنان وعزه . وكان هناك طريقة أخرى للوأد وهى أن الرجل يترك البنت حتى السادسة من عمرها . فان أراد التخلص منها قال لأمها طيبيها وزينيها . ثم يذهب الى بئر حفرها فى الصحراء ويقول لها أنظرى هذا البئر . ويهيل عليها التراب » (٣) .

يقول الله تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه . ولهم مايشتهون واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » (٤) .

وفى الغرب كانت المرأة فى ظل الحكم الرومانى تعامل معاملة الرقيق. وتمتهن كرامتها وعفتها . وليس هناك أى تشريع عندهم يرفع منشأنها. وقد اجتمع فى روما مجمع كبير وبحث شئون المرأة ؛ فقرر انها كائن لانفس له ، وانها لهذا لن ترث الحياة الاخرية . وانها رجس يجب . الا تأكل اللحم والا تضحك . وعليها أن تمضى وقتها فى الصلاة والعبادة والخدمة. وليس لها الحق فى أن تتكلم ، ولمنعها من الكلام وضعوا على فمها قفلا من الحديد ، فكانت المرأة من اعلى الأسر تروح وتغدو فى الطريق أو فى دارها وعلى فمها قفل ؛هذا غير العقوبات البدنية التى كانت توقع عليها باعتبارها اداة الاغواء يستخدمها الشيطان لاغواء القلوب (٥) .

والعجيب ان اهل الغرب الذين أصبحت نساؤهم تعيش تحت ظل المدنية الزائفة هم الذين يتكلمون عن مكانة المرأة فى الاسلام . ويقولون ان حقها هضم ، وان منزلتها أسقطت وجعلها الاسلام متاعا فى يد الرجل. فالاسلام جعل المرأة شريكة الرجل حينما تحدث عن الأصل الذى تفرع منه الانسان . فكان الرجل أبا والمرأة اما فلا تفاضل بينهما فى جانبالانسانية. يقول الله تعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ؛ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (٦) .

---

(٣) المرجع السابق .
(٤) سورة النحل آية ٥٨ — ٥٩ .
(٥) عفيف طباره « روح الدين الاسلامى » ص ٢٨١ .
(٦) سورة الحجرات آية ١٣ .

كما عنى الاسلام ببيـــان وحدة الزوجين وتســـاويهما من الناحية النفسية ليقضى على جميع النظريات الخاطئـــة التى كانت تزعم أن المراة جنس منحط بذاته عن جنس الرجل (٧) . ويؤيد ذلك ما افترضه اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » ان الرجل يتمسك بالاسلام اشـــد من تمسك المراة المسلمة بالاسلام ويعلل هذا الافتراض على انه ظاهرة فى الحياة الاسلامية ، وبانه يرجع الى اختلاف وضعية كل من الرجل المراة فى الاســـلام (٨) .

والرد على ذلك قوله تعالى « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (٩) .

فالاسلام يؤكد وحدة الزوجين ، وتساويهما من ناحية علاقتهمـــا بربهما وجزائهما عنده « فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض » (١٠) .

وليقف المتامل عند هذا التعبير الالهى « بعضكم من بعض » ليعرف كيف سما الاسلام بالمراة حتى جعلها بعضا من الرجل ، وكيف حـــد من طغيان الرجل فجعله بعضا من المراة ، وليس فى الامكان مايؤدى به معنى المساواة اوضح ولا اجمل من هذه الكلمة التى تفيض بها طبيعة الرجل والمراة ، والتى تتجلى فى حياتهما المشتركة دون تفاضـــل وسلطان قال تعالى « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » (١١) واذا كانت المراة مسئولة مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها فهى فى نظر الاسلام ايضا مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والارشاد الى الفضائل والتحذير من الرذائل .

اضف الى ذلك أن الاسلام احترم راى المراة فيما تبدو وجاهته شأن راى الرجل تماما ســـواء بسواء ، واذا كان الاسلام جاء باختيـــار آراء

---

(٧) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٦٤ .
(٨) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث » ص ٥٣ .
(٩) ســـورة النســـاء آية ١ .
(١٠) ســـورة آل عمـــران آية ١٩٥ .
(١١) ســـورة النســـاء آية ٣٢ .

بعض الرجال ، فقد جاء ايضـــا باختيار رأى بعض النساء ، وذلك مثلما حدث عندما تحاورت خولة بنت ثعلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن زوجها الذى ظاهرها ، فسمع الله تحاورهما وانزل سبحانه وتعالى الآية الــكريمة « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحوركما ، ان الله سميع بصير » (١٢) فنرى كيف رفع الله شأن المرأة ، وكيف احترم رأيها ، وجعلها مجادلة ومحاورة للرسول وجمعها واياه فى خطاب واحد ، « والله يسمع تحاوركمـــا » وكيف قرر رأيها وجعله تشريعا عاما (١٣) .

والى جانب ماذكرناه ، فان الاسلام لم يسلب المرأة حق التعليم فقد امرها ان تتعلم كل ما يمكنها من القيام بهذه المسئولية على الوجـــه الذى حددت فيـــه ، وطلب منها عليه وهو تحرى الخير والصلاح والبعد عن الشر والفساد ومن هنا أوجب الاسلام عليها — كما اوجب على الرجل معرفة العقائد والعبادات ومعرفة الحلال والحرام فى المأكول والمشروب وسائر التصرفات ، ولا نعرف بينها وبين الرجل فارقا دينيـــا فى التكليف واهليته سوى ان التكليف يلحقها قبل ان يلحق الرجل ، وذلك لوصولها بطبيعتها الى مناط التكليف وهو البلوغ قبل ان يصل الرجل اليه ، وفى ميدان الجهاد فقد سمح للمرأة بالاشتراك فيه بدون تكليف ، وقد وضع الاســـلام ذلك وقرره من اول يوم دخل فيـــه ميدان الحرب والجهاد ، غير ان اختـــلاف النظم وتبـــدل الأحوال والشئون يوجب فى هذه الأيام حفظـــا لـــكرامة المرأة اذا أرادت أن تساهم فى هذا الواجب العام أن يتخذ لها الوضـــع الذى يصونها ، ويقيها شر العابثين مرضى القلوب الـــذين لا يسلم منهم جيش ولا مجتمع (١٤) .

وخلاصة ذلك ان الاسلام منح المرأة انسانيتها المساوية لانسانيـــة الرجل ، وظهر ذلك فى كثير من نواحى التشريع الاسلامى ، فـــكان دمها مساويا لدمه والحكم فيهما واحد وهو القصاص ، قال تعالى « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس » (١٥) وبذلك كان الجزاء الأخروى فى الاعتـــداء

---

(١٢) ســـورة المجـــادلة آية ١ .
(١٣) عائشة عبد الرحمن « المرأة المسلمة بين أمس واليوم » ص٧٥
(١٤) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٢٧ .

على حياة المراة من نوع الجزاء فى الاعتداء على حياة الرجل : كما أن القرآن نزل واحدا فى مسألة قتل الرجل خطأ ، وقتل المراة خطأ « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله » (١٦) وواضح انه لافرق فى وجوب الدية بالقتل الخطأ بين الذكر والأنثى (١٧).

وكذلك نجد ان القرآن الكريم لا يفرق بين الذكر والأنثى حينما حث الأبناء على البر بالوالدين « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » (١٨) واذا انتقلنا من القرآن الكريم الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجد انه ميز المراة اكثر من الرجل ، فقد أجاب على سؤال احد الرجال عن احق الناس بحسن الصحبة فقال أمك ،وكررها ثلاث مرات ، ثم قال فى الرابعة أبوك .

والواقع أن الاسلام لم يحرم المراة من الحقوق المدنية : فأباح لها التملك والتصرف فيما تملك ، وأباح لها توكيل غيرها فيما لاتريد مباشرته بنفسها وأباح لها أن تضمن غيرها وأن يضمنها غيرها .

وهذه منزلة قد منحها الاسلام للمراة باعتبارها انسانا كامل الانسانية منذ ان اشرقت الأرض بنوره ، فى حين أن المراة الغربية فى عصر الحضارة ، وحقوق الانسان — كما يقولون — لم تصل الى التمتع بهذا الحق الانسانى الذى تمتعت به المراة فى ظل الاسلام (١٩) .

واذا نظرنا الى الحقوق التى منحها الله سبحانه وتعالى للمراة فى موضوع زواجها ، نرى أنها حقوق تثبت مدى تقدير الشريعة للمراة ، وكيف أن لها حقوقا قبل الزواج وفى فترة الزوجية ، وعند فصم العلاقة بين الطرفين .

فاذا ما جاء المراة دور زواجها وهى بالغة عاقلة ، فان لها أن تختار الزوج الذى تريده اختيارا حرا ، على أن يشترك معها وليها بالرأى

---

(١٥) سورة المائدة آية ٤٥ .
(١٦) سورة النساء آية ٩٢ .
(١٧) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٣٧ .
(١٨) سورة الاسراء آية ٢٣ .
(١٩) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٦٦—٦٧ .

والمشورة فيمن تختاره . ولكن ليس له ان يجبرها على زوج معين وان اختار هو زوجا لا يتم زواجها به الا برضاها .

ويلزم الاسلام الزوج ان يقوم بتقديم مقدم صداق للمرأة ، ويعد منزل الزوجية ولا يحرم الاسلام أن تجهز المرأة بفاخر الثياب والزينة ولا ان يزود منزلها بالثمين من الأثاث والمتاع قال تعالى « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢٠) .

اما فى مرحلة الزوجية . فقد اعفى الاسلام المرأة من أعباء المعيشة، والقاها جميعا على كاهل الرجل ، واحتفظ للمرأة مع ذلك بحقوقها المدنية كاملة غير منقوصة ،فللمرأة المتزوجة فى الاسلامشخصيتها الكاملة وثروتها الخاصة المستقلتان عن شخصية زوجها وثروته ، ولا يجيز الاسلام للزوج أن يأخذ شيئا من مال زوجته قل أو كثر (٢١) قال تعالى : « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » (٢٢) وهذه المنزلة فى المساواة بين الرجل والمرأة لم يصل الى مثلها بعد احدث القوانين فى الأمم الديمقراطية المدنية (٢٣) .

وفى مرحلة الزوجية يعطى الاسلام الرجل الحق فى القوامة على زوجته واسرته وقد بنى ذلك على سببين رئيسيين :

احدهما ان الرجل مكلف بالانفاق على الأسرة ، ولا يستقيم مع العدالة فى شيء ان يكلف فرد الانفاق على هيئة ما بدون أن تكون له القوامة عليها والاشراف على شئونها .

والسبب الثانى : أن المرأة مرهفة العاطفة ، قوية الانفعال ، وان ناحية الوجدان لديها تسيطر سيطرة كبيرة على مختلف نواحى حياتها النفسية ، وقد سوى الله المرأة على هذا الوضع حتى يكون لها طبيعتها مما يتيح لها القيام بوظيفتها الأساسية ، وهى الأمومة والحضانة على خير

---

(٢٠) سورة الأعراف آية ٣٢ .
(٢١) عبد الواحد وافى « نظام الأسرة فى الاسلام » ص ١٦٧ .
(٢٢) سورة النساء آية ٢٠ .
(٢٣) سيد قطب « المرجع السابق » ص ٦٦ .

وجه ، فلا يخفى أن هذه الوظيفة تحتاج الى عاطفة مرهفة ووجدان رقيق أكثر مما تحتاج الى التفكير والادراك والتامل (٢٤) يشير القرآن الكريم الى ذلك « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما انفقوا من أموالهم » (٢٥) .

وقد حاول بعض المستشرقين ان يبنوا فكرة قوامة الرجل على المراة بفكرة التفوق Superiority ويجعل منه دلالة على نظرة الاسلام الى وضع كل من الرجل والمراة فى الحياة ، فهو يسمو بالرجل الى ذرى الرفعة بينما يهبط بالمراة الى هاوية الضعة ، أما عن طاعة المراة للرجل فتعرض على أنها نوع من الاذلال ، وسبب لفرض الرق والعبودية على نصف البشرية الى غير ذلك مما يترتب على هذا الشرح المغرض (٢٦) .

ولابد أن نبين ان هذه الآراء جاءت من أجل تشويه الاسلام ، لأن الاسلام قد جعل قوامة الرجال فى الأسرة قوامة رحيمة قائمة على الموده والمحبة والارشاد ، وقيدها بقيود كثيرة تحفظ للمراة كرامتها ، وبذلك منح المراة مجال العلم ، ومجال العمل ، فقد تعلمت المراة فعرفنا المراة العالمة، والأديبة ، والطبيبة ، والفقيهة ، والمتصوفة القانتة ، وما اليهن من كل ماعرف مثله عن أخيها الرجل .

شهادة المراة وميراثها :

يرى كثير من المستشرقين الأجانب أن المراة فى الاسلام قد أهدرت انسانيتها ، لأنها ترث نصف حظ الرجل، كما أن شهادتها كذلك تعتبر نصف شهادة الرجل ، وذلك فى قوله تعالى « للذكر مثل حظ الأنثيين » (٢٧) وقوله « فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » (٢٨) .

والواقع أن السبب فى تفضيل الرجل بالميراث أنه مطالب بنفقات المعيشة ومطالب بدفع المهر لزوجته، وعليه نفقتهاوكسوتها وجميعماتحتاج

---

(٢٤) عبد الواحد وافى « المرجع السابق » ص ١٧٠ .
(٢٥) سورة النساء آية ٣٤ .
(٢٦) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث » ص ٥٣ .
(٢٧) سورة النساء آية ١٧٦ .
(٢٨) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

اليه بالمعروف ببينها حتى أوجب الخدمة والخادمين ، واوجب عليه أن يدفع العدة اذا ما طلق زوجته . فهو اذا مطالب بنفقته على نفسه وأولاده وعليها ، ومكلف بوالديه وأقاربه ، اذا كانوا ضعافا او فقراء اذا فبماذا يتميز الرجل عنها ؟ الرجل مطالب بكل شيء والمرأة لاتطالب بشيء (٢٩) .

أما موضوع الشهادة فى قوله تعالى « فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » فليس واردا فى مقام الشهادة التى يقضى بهـا أمام القـاضى ويحكم وانما هو وارد فى مقام الارشاد الى طرق الاستيثاق والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل ، فالمقـام مقام استيثاق الحقوق لا مقام قضـائى .

ليس معنى هذا ان شهادة المرأة الواحدة أ وشهادة النسـاء اللاتى ليس معهن رجل لا يثبت بها الحق ، ولا يحكم بها القـاضى ، فان أقصى ما يطلب القضاء هو البينة ، وقد حقق العلامة ابن الجوزى ان البينة فى الشرع أهم من الشهادة ، وان كل مايتبين به الحق ويظهره هى بينه يقضى بها القاضى ويحكم (٣٠) .

الاســلام وتعدد الزوجات :

لم تلق أى مسألة من مسائل الاســلام مالاقته هذه المساله بالذات من طعن المستشرقين فى الديانة الاسلامية فقد بثوا دعايات مسمومة ضد هذا الموضوع وحركوا الفكر الغربى ، بل والفكر الشرقى لينظر فى هذا الموضـوع لأنه يعده امتهانا لكرامة المرأة واشعارا لها بعدم أهميتها فى الأسرة ، وان ذلك يؤدى الى مشاكل اجتماعية وخيمة والى تشريد للاطفال والى قطع أواصر الرحمة والقرابة ومن الآراء التى أمامى الآن رأى الكاتبة الألمـانية « اليس ليختنستادتر » (٣١) تقول « انه من الامثلة التى طـال بحثها واشتهر أمرها مثل النظام الذى يبيح تعـدد الزوجات ، فليس فى البلاد الاسلامية ماعدا البلاد التركية قانون يحرم هذا النظام بحكم القضاء

---

(٢٩) شلتوت « المرجع الســابق » ص ٢٣٨ ، محمـد أبو زهرة « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٣٣ .

(٣٠) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٤٠ ، أبو زهره « نفسه » .

(٣١) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ٢١ .

العام او القضاء الخاص بالأحوال الشرقية والمحاكمات الشرعية : فلايزال تعدد الزوجات عملا مشروعا فى ج٠ع٠م والباكستان وايران والعراق وأندونيسيا وأن العرف ليتجه ، بتأثير القدوة الغربية وتأثير متاعب تعدد الزوجات الى النفور منه : ويزداد هذا النفور مع الزمن ، فنظر المسلم المعاصر الى البناء بأكثر من زوجة واحدة كأنه طراز عتيق ، وتختلق هذه النظرة بشىء من الترفع لأنه عمل يكاد أن ينحصر فى الطبقة الوضيعة وان المصلحين ليجدون السند الأقوى للاكتفاء بالزوجة الواحدة فى آيات الكتاب اذ تدل الكلمات الأخيرة من الآية المشهورة فى السورة الرابعة ، على أن الزواج المفضل هو البناء بزوجة واحدة » .

والحقيقة أن الاسلام سمح بتعدد الزواج لأغراض عمرانية سامية واغراض انسانية نبيلة ، وأباح ذلك لضرورات حيوية لايسع مشرع حكيم الا ان يقيم لوزنها اكبر وزن فى تشريعه وخاصة اذا كان يشرع لجميع شعوب العالم كما هو الشأن فى الاسلام .

فمن الأبحاث التى أقرها علماء الاجتماع أمثال جينزبرج ووستر مارك أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع فى الشعوب المتمدينة فى حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة وان الشعوب التى كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة ، انما كانت تتبع تقاليد لاتتصل بالدين ، كما أن الشعوب التى اجازت الزواج بأكثر من واحدة ، انما اجازته طبقا لما رات فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون النظر الى ذلك الدين ، فلم يرد فى الانجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج بأكثر من واحدة ، وان الاسلام فى اباحته تعدد الزوجات قد أباحه فى حدود بعينها ولظروف حددها وبقيود تجعل من العسير الأخذ به الا فى حالات اضطرارية (٣٢) .

كما انه ثبت من علم الاحصاء أن نسبة الوفيات من الذكور اكثر منها فى الاناث وذلك من ساعات الولادة حتى اول مراحل الشباب الأمر الذى يؤدى الى زيادة نسبة الأحياء من الاناث على الذكور وفى مرحلة الشباب

---

(٣٢) عبد الرزاق نوفل ص ٩٢ .

تظل النسبة ثابتة ، اذ يموت من الشبان اكثر من الشابات وذلك يرجع أولا الى الحروب والى اخطار الأعمال التى يقوم بها الرجال فى المصانع والمعامل حيث نجد الوفيات بين الرجال أكثر منها بين النساء وكذلك فان كافة الأعمال التى تسبب الأمراض الخطيرة والموت المفاجىء والحوادث القاتلة يتعرض لها الرجال مثل رجال المطافىء والغواصون ورجال الانقاذ ورجال الملاحة وغيرهم مما يجعل نسبة الأحياء من النساء أكثر من الرجال(٣٣)

واذا فرضنا جدلا أن جيلا من الأجيال انعدمت فيه الحروب والحوادث وتساوت نسبة الأحياء من الذكور والاناث فى العمر حتى مرحلة الشباب فان كل فتاة فى سن الزواج لن تجد الفتى الذى يلائمها فى العمر على درجة الاستعداد للزواج نسبة لتكاليف المعيشة والزواج (٣٤) .

وبمناسبة هذه الأسباب الانسانية العامة التى تبرز نظام تعدد الزوجات كثيرا ماتطرأ على الحياة الزوجية أسباب خاصة تجعل التعدد ضرورة لازمة فقد تكون الزوجة عقيما عقما اصليا أو قد تصاب بالعقم بعد زواجها ، فلا تحقق فى كلتا الحالتين اهم غرض من اغراض الزواج ،وقد تصبح على اثر اصابتها بمرض جسمى أو عصبى او بعاهة غير صالحة للحياة الزوجية فى اخص شئونها وفى هذه الأحوال واحوال اخرى كثيرة من نوعها ، يكون زواج الرجل بغير زوجته ضرورة لازمة لضمان الاستقرار العائلى ، وتحقيق الأغراض العمرانية من الزواج وللوقاية من الوقوع فى الرذيلة (٣٥) .

وقد أوجب الاسلام على الزوج فى حالة تعدد زوجاته ان يعدل بينهن واشترط على من يريد تعدد الزوجات أن يكون واثقا بقدرته على هذا العدل وأمره فى حالة خشيته من الجور أن يقتصر على واحدة قال تعالى « وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى الا تعولوا » (٣٦) .

---

(٣٣) عبد الواحد وافى « الأسرة والمجتمع » ص ٤٣ .
(٣٤) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٩٣ .
(٣٥) عبد الواحد وافى « نظام الأسرة فى الاسلام » ص ١٧٦ .
(٣٦) سورة النساء آية ٣ .

ولكن العـدل الذى أمر الله به مقصـور على الأمور التى يستطيع الرجل أن يعدل فيها بين زوجاته كالأمور المتعلقة بالمأكل والمشرب والملبس والمسكن والمبيت والوقت الذى يقضيه الرجل مع كل زوجة من زوجاته أما الأمور التى لايستطيع الرجل بحسب طبيعته البشرية أن يعدل فيها كالميل النفسى والحب ، وما يترتب على ذلك من آثار فى العلاقات الخاصة بين الزوج وزوجته ، فلا تدخل فى نطاق العدل المأمور به .

وهذا هو ما وضحه الكتاب الكريم اذ يقول « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقـة ، وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما » (٣٧)

ومعنى ذلك ان الرجل لايسـتطيع سـبيلا الى العدل المطلق بين زوجاته مهما حرص على تحقيقه ، لأن ثمة أمورا لا سلطان للانسان عليها كالحب والميل النفسى فلا يستطيع تبعا لذلك سبيلا الى العدل فيها بحسب طبيعته البشرية ، وليس الرجال مكلفين بالعدل فى هذه الأمور لأن البشر لا يكلفون الا مايستطيعون القيام به ، وهم مكلفون بالعدل بين زوجاتهم فيما يستطيعون العدل فيه (٣٨) .

المرأة المسلمة والطلاق :

يعتبر موضوع الطلاق من الموضوعات الهامة التى بدأ الغرب يصوب اتهاماته نحوها ، ويذكرون أن المسلمين يستخدمون هذا التشريع الالهى أسوأ استغلال ، ويتزوجون النساء ويطلقوهن بدون أسباب أو مبررات ، مما أدى الى تدهور الحياة الاجتماعية بين الشعوب الاسلامية .

والحقيقة أن الاسلام شرع الطلاق من أجل استقرار حيـاة الانسان لان كثيرا مايحدث فى هذه الحياة مايقتضى الطـلاق ، بل مايجعله ضرورة لازمة ووسيلة متعينة للاستقرار العائلى والاجتماعى .

ولـكن الاسلام لم يبحه على الاطلاق ، بل قيده بقيود تكفل تحقيق

---

(٣٧) سـورة النساء آية ١٢٩ .

(٣٨) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ١٨٤ .

المصالح العام وصالح الأسرة نفسها ، ويكفل تحقيق التوازن فى حقوق كل من الزوجين وواجباته والمساواة بين كفتيهما فى هذه الشئون .

ولذلك بغض الاسلام الناس فى الطلاق ، وصوره فى ابشع صورة ، وحث المسلمين على اتقائه مااستطاعوا الى ذلك سبيلا ، وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة السلام « أبغض الحلال الى الله الطلاق » (٣٩) « تزوجوا ولا تطلقوا ، فان الطلاق يهتز له عرش الرحمن » (٤٠) .

ولم يكتف الاسلام بهذا الزجر وهذا الوعيد ، بل اتخذ من النظم فى شئون الأسرة مايكفل تحاشى الطلاق الا لأسباب قوية قاهرة .

فقرر أنه لايصح الالتجاء الى الطلاق لأسباب يمكن علاجها أو لأمور يمكن ان تتغير فى المستقبل أو لا تحول بطبعها دون استقرار الحياةالزوجية على وجه ما. وحتى الأمور التيتتعلق بعاطفة الزوج نحو زوجه أو بكراهيته لبعض أحوالها لايعدها الاسلام من مبررات الطلاق .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى « وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (٤١) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لايفرك مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها آخر » (٤٢) .

ومن النظم التى قررها الاسلام لتحاشى الطلاق أنه أمر الزوجين عندما يحدث بينهما شقاق او نفور ان يعملا على ازالته باثارة دواعيالرحمة والوئام (٤٣) وفى هذا يقول الله تعالى « وان امراة خافت من بعلها نشوزا

---

(٣٩) رواه البخارى باب الطلاق .
(٤٠) ذكره الكاسانى فى كتابه « بدائع الصنائع » باب الطلاق .
(٤١) سورة النساء آية ١٩ .
(٤٢) رواه مسلم فى صحيحه .
(٤٣) عبد الواحد وافى « نظام الأسرة فى الاسلام » ص ١٨٤ .

او اعراضا . فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » (٤٤) .

ومن النظم التى قررها الاسلام كذلك لتحاشى الطلاق . أنه أوجب على الزوجين اذا لم يستطيعا أن يصلحا ما بينهما بنفسيهما وبوسائلهما الخاصة ان يعرضا أمرهما على مجلس عائلى يتألف من حكمين ، حكم من اهل المراة ، وحكم من أهل الرجل ، اى من رجلين لايرى كلا الزوجين غضاضة فى الافضاء اليهما بذات نفسيهما وبأسباب شقاقهما .

وهما يعملان على بحث اسباب الشقاق والتوفيق بين رغبات الزوجين حتى يحل الصفاء والوئام (٤٥) .

يقول الله تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » (٤٦) .

ومن الأمور التى قررها الاسلام لتحاشى الطلاق انه قد رتب عليه من الناحيتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة والتى بسببه على كاهل الزوج أعباء ثقيلة . وان من شأن هذه النتائج والأعباء أن تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبير الأمور قبل الطلاق . فقد قرر أنه يجب على الزوج اذا طلق زوجته أن يوفيها مؤجل صداقها ويقوم بنفقتها من مأكل وشرب وملبس ومسكن مادامت فى العدة . وتكون حضانة أولادها الصغار لها ولقريباتها حتى يكبروا ، ويقوم بنفقة أولادها منه وأجور حضانتهم ورضاعتهم ، حتى لو كانت الأم نفسها هى التى تقوم بذلك (٤٧) قال تعالى « فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن » (٤٨) .

فاذا لم يستطع مجلس التحكيم أن يوفق بين الزوجين ، ولم تجد الوسائل السابقة جميعا ، ولم تثن الزوج عن عزمه على الفرقة كان فى ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تهدد استقرار الأسرة .

---

(٤٤) سورة النساء آية ١٢٨ .
(٤٥) شلتوت المرجع السابق ص ١٦٨ .
(٤٦) سورة النساء آية ٣٥ .
(٤٧) عبد الواحد وافى « نظام الأسرة » ص ١٨٦ .
(٤٨) سورة الطلاق آية ٦ .

عندئذ يجيز الاسلام للزوج الطلاق لمصلحة الاسرة ، ولتحقيق الصالح العام .

وحتى فى هذه الحالة قد احتاط الاسلام للامر فوضع الطلاق نظما تتيح للزوج فى اثناء اجراءات الفرقة فرصة طويلة ليراجع نفسه ويعدل عما شرع فيه ، ان كان ثمة سبيل للابقاء على الحياة الزوجية فأباح للزوج أن يراجع زوجته بعد كل من الطلاقين الأولين .

فاذا تكرر الطلاق مرة ثالثة كان ذلك دليلا على ان الحياة الزوجية قد اصبحت غير محتملة بين الزوجين وانهما حاولا جبرا اختل عليهما نظامهما ، فحينئذ يقرر الاسلام الفرقة بينهما نهائيا ، ولا تحل له بعد ذلك حتى تنمحى آثار العقد الأول والحياة الزوجية الأولى انمحاءا تاما ذلك لا يكون الا اذا تزوجت من شخص آخر ، وانتهى الأمر بطلاقها منه طلاقا عاديا ، وراى كلاهما بعد هذه المدة الطويلة ، وبعد تغير الاحوال على هذا الوجه انه من الممكن استعادة الحياة الأولى على وضع أدوم وأمثل (٤٩) .

وفى هذا يقول الله تعالى « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » (٥٠) الى أن قال « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون » (٥١) فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها هذا الزوج طلاقا عاديا « فلا جناح عليهما أن يتراجعا أن ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » (٥٢) .

هذا ولم يدخر الاسلام وسعا فى احاطة المراة المطلقة بعطف كريم ورعاية كريمة وفى العمل على حفظ حقوقها وحمايتها من الأضرار بها ، وذلك بما سنه من نظم رشيدة فى النفقة والحضانة والعدة والارضاع وطرق ايقاع الطلاق وزمنه وما الى ذلك .

هذه هى تعاليم الاسلام والسمة التى تعمل على المحافظة على الأسرة

---

(٤٩) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .
(٥٠) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
(٥١) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
(٥٢) سورة البقرة آية ٢٣٠ .

قوية متماسكة متحابة . فاذا اختل بنـاؤها وتماسكها اوجد الحلول ،فاذا عجزت أوجب الطلاق كما راينا ايعيد البناء والتماسك .

واذا كانت هذه القضية قـد شغلت بال الغرب ، وبدأوا يتخذونها مادة لهجومهم على الاسلام .لذلك آثرت أن آتى برد على هذه الاتهامات من قبل مستشرق انجليزى منصف من رجال القانون يسمى مستر بنتام فى كتابه « اصول الشرائع » وفيه ينقد النظام الكنسى المسيحى الذى يمنع الطلاق ،جاء فيه « حقا ان الزواج الابدى هو الاليق بالانسان والملائم لحاجته ، والأوفق لأحوال الأسرة ، والأولى الاخذ به ، ولـكن ان اشترطت المراة على الرجل ألا تنفصل عنه ، حتى لو حلت فى قلبيهما الـكراهية الشديدة مكان الحب والثقة لـكان ذلك أمرا منكرا لايستسيغه احد من الناس ، على ان هـذا الشرط موجود بدون ان تطلبه المراة ، اذ القـانون الـكنسى يحكم به ، فيتدخل بين العاقدين حال التعاقد ويقول لهما ، أنتما تقترنا لتكونا سعيدين، فلتعلما انكما تدخلان سجنا سيحكم غلق بابه ، ولن أسمح بخروجكما ، وان تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء (٥٣) .

ويعلق المستر بنتـام على هذا بقوله « ولو كان الموت وحده هـو المخلص من زواج هذا شأنه لتنوعت صنوف القتل ، واتسعت مذاهبـه ، ولـكن لحسن الحظ استحدث المسيحيون من القوانين مايفتح لهما ابواب الطلاق ، ويعفيهم من أن يلجأوا الى القتل أو الانتحار للخروج من هـذا السجن » (٥٤) .

لذلك راينا ان القوانين الوضـعية فى الغرب بدات تشرع الطلاق لتقضى على كثير من الانهيار والفساد الذى عم الأسر الغربية، ولكن جميع هذه الحالات من الطلاق لا ترضى عنها الكنيسة ، ولكنها تقف صامتة امامها، فنجد أن آلافا من حالات الطلاق وزواج المطلقين والمطلقات الذين يعدون فى نظر الـكنيسة زناه ، تحكم بها المحاكم الأوربية والأمريكيـة . وتنفـذها الهيئات المدنية فى مختلف شعوب الغرب المسيحى على مراى من الكنيسة ومسمع من رجال الدين ، دون أن تحرك ساكنا .

---

(٥٣) منير البعلبكى « دفاع عن الاسلام » ص ١٢٥ .
(٥٤) المرجع السابق .

الرق فى الاســــــلام :

يذكر الاستاذ عباس العقاد فى كتابه « ما يقال عن الاســلام » ان مسألة الرق فى الاسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لايتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات وهم الماديون المنكرون للاديان وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة الى هذا الدين او ذاك (٥٥) .

والواقع ان الرق كان امرا شائعا منذ قديم الزمان ، ولم يذكر التاريخ بداية استعباد الانسان لأخيه الانسان واسترقاقه الا انه عرف ان الهنـد كانت من قديم الزمان تعيش على الحكمة التى تقول « من ايسر برهميـا فهو عبد للبرهمى » كما أن الفراعنة بنوا الأهرام بسواعد الرقيق (٥٦) .

والرق كان معروفا عند جميع الامم القديمة خاصــة عنـد اليونان والرومان ، كما ان التوراه اباحت الاسترقاق بطريق الشراء او سبيا فى الحرب ، وكذلك المسيحية ، فقـد سـمحت بالرق ، ويؤكد ذلك قول توما الأكوينى فى أن الرق حال من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعيـة ، وليس مما ينـاقض الايمان أن يقنع الانســان من الدنيـا بأهون نصـيب (٥٧) .

وقد انتشر الرق عند العرب قبل الاسلام انتشـارا كبيرا ، وكانت الحروب التى لاتنقطع فى الجزيرة العربية ، وكان الغالب يأسر من المغلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيدا ، ومن وسائل الرق عنـد العرب القوة فاذا تقابلت قبيلة قوية قبيلة ضعيفة استسلمت القبيـلة الضـعيفة للقوية ، وخضعت لها واصبح افرادها عبيدا .

ومن وسائل الرق عند العرب الهجـوم السريع ، فالشخص الذى يمشى وحده أو الجماعة من الناس التى تمشى دون أن تستطيع حمـاية نفسها كانت عرضة للخطف نتيجة هجوم سريع فيصبحون بذلك عبيدا (٥٨)

---

(٥٥) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٥١ .
(٥٦) احمد زكى « الرق فى الاسلام » ص ٩٨ .
(٥٧) العقاد « حقائق الاسلام واباطيل خصومه » ص ٢١٥ .
(٥٨) احمد شلبى « مقارنة الأديان » ص ٢٣٥ .

والرقيق يعتبر مملوكا لسيده اذا اشتراه كمتاعه . له الحق فى بيعه أو قتله واذا كانت أنثى فله ان يستمتع بها كيف شاء ، وليس للرقيق قبل سيده ولا قبل المجموعة . ولا الدولة أى حق ، بل عليه كل الواجبات مشروعة أو غير مشروعة كانت فى الاستطاعة ام لم تكن ، بل بلغ من الاستخفاف بأمر هؤلاء الرقيق أن كانت الفلاسفة والحكماء يقررون أن أرواح الرقيق غير خالدة (٥٩) .

وجاء الاسلام الذى صوره المستشرقون على أنه أباح الرق . وأباح استرقاق الأسرى وقتلهم ، كما انه جعل هذا النظام نظاما مشروعا . فهذا كتاب يحمل اسم « الاسلام فى اثيوبيا » يقول كاتبه « وتجارة الرقيق ، وما تدره من أرباح تفوق حد التصور . تغرى كثيرين على احترامها . ولهذا اشتغل بها عدد كبير من العرب . فيمكننا اذن أن نتصور العدد الكثير من العرب الذى اشتغل بهذه التجارة ، وكون المراكز التجارية الكبيرة والصغيرة ، واستقر فى هذه المراكز المنتشرة بين قرى شرق افريقية صغيرها وكبيرها » (٦٠) .

وهكذا يحصر مؤلف هذا الكتاب تجارة الرقيق فى العالم كله فى افريقيا ، ثم يحصرها فى العرب ، كأن الرقيق لم يكن يسود العالم كله .

ثم يستطرد فيقول : « ولكن الاسلام وحد بين العرب وحد من خصوماتهم ، وأوقف غزواتهم التى كانوا يشنونها على بعضهم ، كما حرم أن يسترق مسلم مسلما وبذلك نقص مورد من موارد الرقيق الذى كان يعتمد عليه العرب فى حراسة قوافلهم وزراعة أرضهم وخدمتهم وليس هناك من مكان يستطيع أن يسد هذا النقص سوى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، وما يسكنه — من مورد لاينقطع — من شعوب سوداء » (٦١) .

وبذلك يعمد المؤلف الى الوقيعة بين المسلمين والأفريقيين الذين يريدون اعتناق الاسلام .

---

(٥٩) المرجع السابق .
(٦٠) عبد الكريم الخطيب « الاسلام فى مواجهة الملحدين والماديين » ص ١٦٣ .
(٦١) المرجع السابق .

والحقيقة التى لاشك فيها أن الاسلام حرر البشرية من عبودية الرق ، واوصى بتحرير الرقيق ، وكما هى سنة الاسلام بعدم الأخذ بمبدا الطفره فقد عالج مشكلة الرق بمحاولة الغائها على مراحل ، لأن المجتمع العربى كان يعترف بهذا النظام ويسير عليه ، ومن الصعب أن يجيىء الاسلام ويلغى هذا النظام ويحررجميع العبيد الموجودين فى العالمالاسلامى دفعة واحدة مما يؤدى الى ثورات السادة الكبار ، وتخلخل المجتمع وخلق مشكلة جديدة ازاء هذه الفئة المحررة .

لذلك قضت الحكمة الالهية بأن يتدرج الالغاء ، ورسمت له خطة محكمة تتالف من النقاط التالية :

١ — لا يرد فى القرآن الذى هو النصوص الأصلية الأساسية ، اى فصل يدل على الأمر بالاسترقاق او اتخاذ الاماء سرارى ، ان كان ذلك لا يمنع ان يتحدث القرآن عن هذا حديث من يعرفه ويقره كواقع ويرتب الأحكام التشريعية على اساس واقعيته التى تقضى الحكمة بأن تترك مؤقتا (٦٢) .

٢ — تتكفل النصوص من الكتاب والسنة ببيان أن الرق واقع مكروه، وتشريع مايكفل تصفيته من العتق فى مناسبات متعددة ، لما عرض فى سوق المعارضات مايسع كل من فى يدهم رقيق ليحرره وليأخذوا العوض المجزى لهم ، من صور تلك المعاوضات .

ا) العوض المالى :

وذلك بأن يشترى العبد نفسه من سيده ، ومالك رقبته نظير مال يتفقان عليه ، فان اتفقا على الثمن المطلوب ، اعطى السيد عبده كتابا بهذا يحدد فيه المال الذى كاتب عبده عليه ، ويسمى الرقيق فى تلك الحال مكاتبا ، لايتحرر من الرق حتى يؤدى المال الذى كوتب عليه . وقد دعا الاسلام الى هذه المكاتبة ، وجعلها امرا ملزما لمالك الرقيق اذا طلب

---

(٦٢) محمد المدنى « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء »

الرقيق ذلك منه فقال تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا » (٦٣) وهى دعوة الى مالك الرقيق أن ينظر فى حاله ، وأن يتحرى قدرته على الحياة ، اذا هو تحرر من اسر الرق، فان بعض الأرقاء قد افسد الرق وجودهم الانسانى وفى خروجهم من يد مالكيهم ضياع لهم .

ولما كان الرقيق المكاتب لا يملك مالا ، فقد جاء أمر الاسلام الى المسلمين ان يخفوا لمساعدته ، وتخليصه من قيد الرق بتقديم المال المطلوب منه فقال تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (٦٤) وقال سبحانه « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » (٦٥) .

وقال جل شأنه « فلا اقتحم العقبة ، وما ادراك ماالعقبة ، فك رقبة ، او اطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة او مسكينا ذا متربة » (٦٦) .

ولم يكتف الاسلام فى شأن الرقيق المكاتب بهذا ، بل جعل فى الزكاة المفروضة فى مال اصحاب المال من المسلمين نصيبا لهؤلاء المكاتبين، فقال تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله » (٦٧) .

(ب) العوض بما يقابل المال والجهد :

وهناك اعمال يرتكبها المسلم مخالفا فيها شريعة الله ، فاذا اراد ان يكفر عنها كان كفارة ذلك مالا ينفقه فى سبيل الله ، وعبدا يعتقه او

---

(٦٣) سورة النور آية ٣٣ .
(٦٤) سورة النور آية ٣٣ .
(٦٥) سورة البقرة آية ١٧٧ .
(٦٦) سورة البلد آية ١١ — ١٦ .
(٦٧) سورة التوبة آية ٦٠.

اياما معدودات يصومها فمن ذلك : الحنث فى اليمين وكفارته كما يقول القرآن « اطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون اهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم » (٦٨) .

وهناك القتل الخطأ ، وكفارته كما نص القرآن الكريم « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى اهله الا ان يصدقوا . فان كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة . وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فدية مسلمة الى اهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » (٦٩) .

وهناك الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته « انت على كظهر أمى » يريد تطليقها وتحريمها بهذا البدع من القول ، وفى هذا يقول الله تعالى « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا ذلك توعظون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا » (٧٠) .

فهذه ثلاثة وجوه ملزمه للمسلمين ، فتحها الاسلام لتحرير العبيد من اسر العبودية ، وقد كان لهذه الوجوه اثر ظاهر فى تحرير اعداد لاحصر لها من الرقيق (٧١) .

٣ — يقصر الاسلام مورد الرزق على الأسر فى حرب لاعلاء كلمة الله تعالى ، وفى هذه الحرب لا يجوز للمسلمين أن يتخذوا أسرى حتى يثخنوا أى حتى يظهروا فيها ، وتعلوا كلمة الحق والتوحيد ، واذا اثخنوا فى حرب وانتصروا كان لهم أن يأسروا حينئذ ، ثم كان لأولياء الأمر الخيار المقرر بقوله تعالى « فاما منا بعد واما فداء » أى فاما ان تمنوا عليهم منا ،

---

(٦٨) سورة المائدة آية ٨٩

(٦٩) سورة النساء آية ٩٢

(٧٠) سورة المجادلة آية ٣ ، ٤

(٧١) عبد الكريم الخطيب « الاسلام فى مواجهة الماديين الملحدين » ص ١٧٧ .

فتطلقوهم تفضلا عليهم واحسانا بغير مقابل ، واما أن تتخذوا منهم فداء أى تطلقوهم بمقابل ، وعلى هذا فلا ذكر صراحة للاسترقاق ، وانما يتكلف بعضهم فيجعل الاسترقاق داخلا فى المن لأن المن اما أن يكون كاملا باطلاقهم دون اى مقابل ، واما أن يكون جزئيا باعفائهم من القتل مع استرقاقهم ، وبعضهم يحاول ادخال الاسترقاق تحت الفداء فيقول ان فداء حياتهم اما أن يكون بمقابل مايبذلونه أو بنفس الأسير حيث يستعبد ويسترق ثمنا لابقائه حيا دون قتله (٧٢) .

والخلاصة التى ننتهى اليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر ، وانه هو الأصل الدائم للمسالة ، وما وقع بالفعل خارجا عنه كله لمواجهة حالات خاصة واوضاع وقتيه ، فقتل بعض الأسرى كان فى حالات فردية يمكن أن يكون لها دائما نظائر ، وقد اخذوا بأعمال سابقة على الأسر ، لا بمجرد خروجهم للقتال ، ومثال ذلك أن يقع جاسوس أسيرا فيحاكم على الجاسوسية لا على أنه أسير ، وانما كان الأسر مجرد وسيلة للتبض عليه .

ويبقى الاسترقاق الذى كان لمواجهة اوضاع عالمية قائمة ، وتقاليد فى الحرب عامة ، ولم يكن ممكنا أن يطبق الاسلام فى جميع الحالات النص العام « فاما منا بعد واما فداء » فى الوقت الذى يسترق أعداء الاسلام من يأسرونهم من المسلمين ، ومن ثم طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض الحالات فأطلق بعض الأسارى منا ، وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال وفى حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لاتعالج بغير هذا الاجراء (٧٣) .

تلك هى الخطة التى وضعها الاسلام لتصفية الرق ، وتضييق مداخله وتوسيع مخارجه ، ولا ينبغى ان يؤخذ الاسلام بفعل المسلمين ، فيما بعد حينما كان الاسترقاق خارجا على هذه الخطة ، وكان الخلفاء من أمويين وعباسيين وغيرهم من الاغنياء يتخذون السرارى بغير تقييد ،

---

(٧٢) المدنى « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء » ص ١٤٨.
(٧٣) سيد قطب « فى ظلال القرآن » حـ ٦ ص ٣٢٨٥ .

بل بتوسع واسراف فان ذلك كله مناف لروح الاســلام ، وان ادخل على النصوص بالاراء والأقوال وتأويل الرجال .

وقــد راينــا فيما ذكرناه من آيات أن الأرقاء قــد فتح الله امامهم باب العتق لأن الاسلام يعتبر ان الرق ماهو الا أمرا عارضا .

أما موقف الاسلام من الأرقاء فى حالة استرقاقهم فقد كان موقفــا كريما اصــيلا .

فقد ذكرت أحاديث كثيرة للرسول صلى الله عليه وسلم فى هــذا الشأن منها جاء فى الحديث « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين » ذكرتهم « ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم ادبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها » (٧٤) وقوله صلى الله عليه وسلم « من لطم مملوكا له او ضربه فكفارته عتقه » (٧٥) وقوله صلى الله عليه وسلم « الا انبئكم بشراركم ؟ قالوا نعم يارسول‌الله ، قال من‌أكل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده » (٧٦)

وقد أوصى رسول الله صــلى الله عليه وسلم بالرقيق خيرا قال : « اتقوا الله فى الضعيفين المراة والرقيق » (٧٧) .

ويؤيد هذا الــكلام مستشرق هو ستانلى لين بول وهو يتحدث عن الأرقاء بأسبانيا عقب الفتح الاسلامى للاندلس قال : أما فرح العبيد بما طرأ على نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيما حقا ، بعــد أن لاقوا من ضروب العسف والقسوة من القوط والرومان ماتقشعر له الأبدان ، فان الرق فى رأى المسلمين نظام انسانى رقيق ، حتى أن النبى « صلى الله عليه وسلم » حينما لم يجد بدا من الابقاء على هذا النظــام العتيق الذى يعارض مبادىء الاسلام بذل كل جهد لتخفيف ويلاته فى كثير من الوصايا والأحاديث (٧٨) .

---

(٧٤) رواه البخارى جـ ٨ .
(٧٥) رواه مسلم وابو داود .
(٧٦) رواه الطبرانى .
(٧٧) رواه ابن ماجه .
(٧٨) لين بول « العرب فى أسبانيا » ص ٤٠ .

ونرى مصداقا لجميع هذه الآراء ماعرضهالمستشرق جوبستاف لوبون بقوله « واعترف جميع السياح الذين درسوا الرق فى الشرق درسا جديا بان الضجة المغرضة التى أحدثها حوله بعض الأوربيين لاتقوم علىاساس صحيح ، وأحسن دليل يقال تأييدا لهذا هو أن الموالى الذين يرغبون فى التحرر بمصر ينالونه بابداء رغبتهم منه امام أحد القضاة ، وانهم لايلجأون الى حقهم هـذا » . قال المسيو ابير مشيرا الى ذلك « يجب عد الرقيق فى الاسلام منجوتا على قدر الامكان » (٧٩) ويذكر السير توماس أرنولد ، مايؤكد كلامنا هذا بقوله « كان للرقيق كما كان لسائر المواطنين حقوقهم، بل قيل انه كان للعبد أن يقاضى سيده اذا أساء معـاملته وانه اذا تحقق القاضى من اختلاف طبـاعهما اختلافا بينا الى حد تعذر الاتفاق بينهما ، فله أن يرغم السيد على بيعه » (٨٠) .

وقد اوصى الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم بحسن معاملةالرقيق « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسـانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (٨١) .

ويقول الأستاذ العقاد فى هذا الموضوع (٨٢) « ان الأديان جميعـا قبل الاسلام اباحت الرق ، والزمت الأرقاء طاعة سادتهم وتسخيرهم فى فى خدمتهم وخدمة ذويهم واعتبره بعض الدعاه قضـاء مبرما يعـاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله ، فشرع العتق ولميشرع الرق ، وقد ندب المسلمين الى فك الأسار عن الأسرى فجعله فريضة من التكفير عن ذنوب كثيرة .

أوجب الاسلام قبول الفداء مع استحسان فك الاسـار بغير فـداء وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث فى يمينـه ، ومن يظاهر من زوجه ، ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ومنها فدية الرقاب .

---

(٧٩) جوستاف لوبون « حضارة العرب » ص ٣٧٧ .
(٨٠) توماس ارنولد « الدعوة الى الاسلام » ص ٢٠٠ .
(٨١) سـورة النساء آية ٣٦ .
(٨٢) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٥٤ .

ولم يبق الاسلام من قيود الرق الا ماهو باق الى اليوم سائر اق الدول وسيبقى بعد اليوم الى ان يشاء الله .

فالقوانين الدولية اليوم تبيح تسخير الأسرى واعتقالهم الى ان يتم الفداء بتبادل الأسرى او يبذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة . وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الاسلام . وأوجبه على الدولة الاسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب » .

فاذا كانت الدول غير الاسلامية ، لم تعرف لها نظاما تتبعه لاطلاق اسراها من الرق ، فهى المسئولة عن هذا التقصير ، وليس على الاسلام او الدولة الاسلامية ملامة فيه ، وقد نعود الى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الاسلامية ، وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمته من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى ، وحكومات المسلمين التى تجاورها . ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد ، كما وجدت عند الحكومة الاسلامية لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق اكثر من عشرة قرون .

ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة ، ماذا يحدث فى هذا العصر . لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين اصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند اعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعا أكرم من صنع الاسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح او يقبلوا الفداء والعتق او يوجبوه فى مقام التكفير والاحسان .

ان صنيع الاسلام الذى أوجبه قبل أربعة عشر قرنا هو غاية ماتستطيعه دول الحضارة اليوم فى انصاف اسراها واسرى اعدائها ، فأما أن يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية ان يستقر عليه .

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الاسلامى فى تشريعات الرق ، باستثناء دولة منها فى احدث تشريعاتها الانسانية كما تسميها ، أما

الاسلام فقد أنصف الأرقاء ابتداء بغير اضطرار الى الانصاف اتقاء لثورة سياسية أو منازعة اقتصادية أو ازمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

ان اول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة الى تحرير الأرقاء جاءت على اثر النزاع بين اصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع ، وبين أصحاب الصناعات حيث تدار بأيدى الأرقاء ، ولا تنفق عليها اجور ، فان اصحاب الأموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الانسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية يوم احتاجت الدول الى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت ، وجاءت بعدها آخر الخطى يوم نهضت القارة الافريقية نهضتها تحررت شعوبها من سادتها وخاف أولئك السادة أن يسمال السود الى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين الى هذا الفريق أو ذاك الفريق ، فلما وصلت الحضارة الأوربية الى هذا المدى بعد طول التعثر والمحال ، لم تكن قضية الرق عندها قضية سماحة وانصاف وكذا كانت ولا تزال قضية مساومة واضطرار وحيلة من حيل السياسة والادارة ، وخطة من خطط التأخير والاستغلال .

والفارق الأكبر فى مسألة الرق من جانب الواقع التاريخى هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الاسلامية وعددهم فى البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين ، فان الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الاسلامية — بعد ثلاثة عشر قرنا — على ثلاثة ملايين او نحو هذا العدد القليل بالقياس الى سعة البلاد وطول الزمان واقتراب المكان ولكن عدد السود فى الامريكتين قد يبلغ العشرين مليونا ولما لم يمض على قيام الحكم الأبيض هناك أكثر من ثلاثة قرون . وأبعد من هذا الفارق فى العدد فارق فى المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الاسلامية والمعاملة التى لقيها اخوانهم فى الامريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة ، وحقوق الدم والمال وبين

تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم انتقاما من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته البيض .

ان مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الاسلامية والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها الى عقيدة مثلى ، وحضارة يصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ؛ ولكنها دعاية للاسلام ؛ وليست بالدعاية التى يحارب بها الاسلام ، فاذا انعكست الاية ؛ وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الاسلام ، بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين » (٨٣) .

---

(٨٣) عباس العقاد « المرجع السابق » ص ١٥٥ .

الفصل الخامس

الإسلام والعلوم الحديثة

الإسلام والعلوم الحديثة

يعجب المسلم عندما يقرا ماكتبه الغربيون المستشرقون عن الاسلام والمسلمين وموقفهم من العلوم العلمية .

فهذا هو المسيو رينان احد اعضاء جمعية المعارف بفرنسا فى جامعة السوربون بباريس (١) يكتب مقالا عن دين الاسلام والعلم ، وفيه نرى افتراءات واكاذيب وجهلا كبيرا بحقيقة الدين الاسلامى وموقفه من العلوم العلمية .

يقول المسيو رينان فى ثنايا مقاله ص ٤ .

« كل من ذهب معنا الى المشرق او الى افريقيا راى ان عقولهم بلغت من الحمق غايته حتى كأن دينهم صار كنانا على قلوبهم فحجبها عن ان تعى شيئا من العلوم والأفكار الجديدة ، فلا ترى الا القليل من أولادهم من تشاهد فيه النبهة ، لكن اذا بلغ العشر أو الاثنتى عشرة سنة وتعلم العقائد صار متعصبا فى الدين ، واخذ يختال حمقا على غيره ظلنا أن هذا هو الحق فيعد نفسه سعيدا بما اختصه مما هو فى الحقيقة سببا لانحطاطه » (٢) .

---

(١) ارنست رينان احد اعضاء جمعية المعارف بفرنسا فى جامعة السربون بباريس له كتاب « الاسلام وآراء العلم والفلسفة » وهناك محاضرة معربة عن دين الاسلام والعلم قام بتعريبها على يوسف .

(٢) ارنست رينان « دين الاسلام والعلم » ص ٤ .

ويقول فى موضع آخر ص ٨ « قال بعض كتاب المشرق المدعو « أبو الفرج » — وهو مسيحى ملطى — فى اثنــاء كلامه عن طبــاع العرب « ان العلوم التى كانت تفخر بها هذه الأمة « يعنى العــرب » هى علوم اللغة والعروض والقياف والانشاء اما من جهة الفلسفــة فما علمهم الله منها شيئا وما جعلهم اهلا لها » ويستكمل مسيو رينان كلامه بقوله « وهذا هو نفس الحقيقة اذ البدو وان كانوا اكثر الناس كــلاما وهم اقلهم فى التأمل والبحث عن الخفى والعربى المتدين يكتفى فى تعليل حوادث الكون بقوله : ان الله تعالى خالق العالم هو الذى يدبر الأمور مباشرة ، يرسل لنــا انبياء يرشدونا اليه . ولهذا لاترى فى المدة التى كان فيها الاسلام منحصرا فى الأمة العربية — أعنى مدة الخلفاء الأربعة الاولين ومدة بنى امية ادنى فكرة خارجة عن الديانة » .

ويقول رينان فى موضع آخر ص ٣٩ .

« ان الدين الاسلامى اخر العقل البشرى وحجبه عن التامل فى حقائق الأشياء بنفوذ زاد مفعول تأثيره عن الأديان الاخرى حتى جعل بعض البلاد التى انتشر فيها كميدان لايعبر البحث عن حقائق الأشياء الذى به يتسع العقل ؛ وزد على ذلك أن عقول اهل هذه البلاد قاصرة من نفسها ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم ؛ واعتقاده ان البحث كفر وقــلة عقل لا فائدة فيه » (٣) حتى أن هذا المستشرق يشــير الى أن رفاعــة رافع الطهطاوى عندما عاش فى باريس أثناء بعثته ثم عاد الى مصر الف كتابا ادعى فيه أن العلوم مضادة للدين الاسلامى .

والى جانب هذه الاتهاما ت يقول : عندما دخل الاسلام بلاد الفرس أوقف النشــاط العلمى حيث كانوا منفردين بالطب وعلى المسام بالفلسفة الاغريقية واساقفتهم كانوا من أهل الهندسة والمنطق فترى فى قصــائد

---

(٣) رينــان « دين الاســلام والعلم » ص ٣٩ .

الفرس التى اشتهروا فيها ووقائع رستم انه كان يدعو جاتليك كلما احتاج لعمل تنطرة ، وهذا الاسم كان يطلق على أساقفة وبطارقة النصارى . حتى انه يقول ان بغداد اسست عاصمة لهذه الدولة الفارسية ، لكن ما أمكن تعويض لغة الفاتحين أى لغة العرب باللغة الفارسية ٪ حتى انه يشك فى اسلام الخلفاء المشهورين اعنى المنصور وهارون الرشيد والمأمون المعاصرين للكارلوسيين عندنا فانهم كانوا يعملون ظاهرا لا باطنا بالديانة التى هم رؤساؤها ، وكانوا يميلون لمعرفة كل شيء خصوصا الأشياء الأجنبية وثنية كانت أو هندسية أو فارسية أو اغريقية (٤) .

هذه جملة افتراءات واكاذيب وجهل صدرت عن مستشرق فرنسى فى القرن التاسع عشر وأبواب القرن العشرين ، يحاول فيها أن يبعد عن الاسلام كل اتجاه علمى — ويرمى الاسلام بالجمود والتخلف ، ويسب المسلمين ويدعى انهم يحرمون الاشتغال بالعلم .

والحقيقة اننى اخترت واحدا من هؤلاء المستشرقين ؟ لأنهم كثر والانحراف فى اقوالهم وأحكامهم الجاهلة يسيء الينا ، ولكن لابد لنا من معرفة مايقال عنا وما نتهم به حتى نستطيع أن نقدم الأدلة والبراهين التى نسوقها جميعا من كتاب الله « دستور المسلمين » .

ويرى الشاطبى فى الموافقات (٥) ان القرآن يشمل علوم الدين وعلوم الدنيا وهى ماتسمى بالعلوم الكونية ، وما يلحق بها من فنون وعلوم للمتقدمين والمتأخرين لعلم المنطق ، ودليل هذا قول الله فى كتابه العزيز « مافرطنا فى الكتاب من شيء » (٦) وقوله « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (٧) .

---

(٤) المرجع السابق ص ١١-١٢ .
(٥) الشاطبى « الموافقات » جـ٢ ص ٥٢ .
(٦) سورة الأنعام آية ٣٨ .
(٧) سورة النحل آية ٨٩ .

ولذلك فان العلوم الحديثة على اختلاف انواعها وتباين موضـوعاتها لم تكن نظرياتها وقواعدها او قوانينها الا ترجمة ناطقة بلسان الحقـائق الصامتة الموجودة فى الـكون . فذات العلوم ومسمياتها موجودة عنـد موضوعاتها منذ خلقت الدنيا ، وانما عمل فيها واضعوها بعد أن استكشفوا حقائقها باستقرار جزئياتها ، عملوا امرين اثنين :

١ ــ تسميتها وجمع قواعدها وترتيبها .

٢ ــ تحقيقها ببراهينها وتطبيقها على افرادها .

ولنضرب لذلك مثـلا الحرارة والبرودة فانهما خلقتـا مع السموات والأرض وكذلك الكهرباء الاستاتيكية مخلوقة مع الغمام وتلك شرارة كهربائية تبدو مشاهدة للعالمين كلما برق البرق ودوى الرعد قبل أن يعلم الانسان علم الكهرباء . والكهرباء الديناميكية موجودة قبل العلم بنظرياتها كلما كان احتكاك بين جسمين صلبين كالصلب والحديد مثلا ، وهكذا ظاهرتا الضوء والصوت ، فانهما من الحقائق حين بدا فى الكون الضياء والأصوات وان الذى استطاع الانسان عمله من ذلك بعد مرور الالاف من السنين هو أنه اهتدى اليها وكشف غطاء الجهالة عن وجهها فتجلت له نظريات وقواعد ونجارب ومسـائل جمعت ورتبت فـكانت علوما ، واختص كل علم بما يناسبه من تلك النظريات ، وان من الخطأ البين القول بأن العلماء اوجدوا باختراعهم طرق تسخير الطبيعة لارادتهم وتيسير سبل الانتفاع بها بعـد كشفها ، وكذلك نقول فى العلوم الاجتماعية كعلم التاريخ مثلا الذى يقرر الحقائق الماضية التى وقعت فى الأزمنة المنقرضة فيجمع المؤرخ شـتاتها ويؤلف بينها ويهذب عبارتها ويرتبها فتكون علما يسمى علم التـاريخ اذا تجلى هذا يتبين لنـا أن القرآن الـكريم ، حينما يعرض لنظرية من نظريات العلوم التى استكشفت ، ولم يكن للعلماء علم بها من قبل ، فاننا نقول أن استكشاف ذلك العلم الذى منـه تلك النظرية اثبتت شـيئا موجودا فى الـكون من قـديم الزمان (٨) .

---

(٨) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ١٩ .

والحقيقة التى احب أن اركز عليها فى هذا الموضوع هو أن الدين الاسلامى يحث المسلمين على البحث والاطلاع والدراسة والتنقيب فهو ليس دين جمود ولم يحارب العلم مطلقا ، فكما ذكرت من قبل فان أولى آياته التى نزلت على رسوله هى « اقرا باسم ربك الذى خلق — خلق الانسان من علق » (٩) . وتتكرر آيات القرآن الكريم فى الدعوة الصريحة الى النظر فىخلق السموات والأرض ولابد ان هذا حض علىالبحث العلمى بقوله تعالى (١٠) « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنىالآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » .

وقوله تعالى (١١) « اولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » .

وقوله تعالى (١٢) « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناهاوزيناها وما لها من فروج » .

وقوله تعالى (١٣) « فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وابا متاعا لكم ولانعامكم » .

ويقرر القرآن أن الله سبحانه وتعالى علم الانسان فيقول فى سورة الرحمن (١٤) « خلق الانسان علمه البيان » وفى سورةالعلق « علم الانسان مالم يعلم » (١٥) وفى سورة البقرة (١٦) « واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم » .

---

(٩) سورة العلق آية ١
(١٠) سورة يونس آية ١٠١ .
(١١) سورة الأعراف آية ١٨٥ .
(١٢) سورة ق آية ٦ .
(١٣) سورة عبس آية ٢٤ — ٣٢ .
(١٤) سورة الرحمن آية ٤ .
(١٥) سورة العلق آية ٥
(١٦) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

معنى ذلك ان آيات القرآن الكريم كلها تحث على البحث والاستقصاء والتعلم والتفكر ومعرفة اسرار الـكون والاطلاع الدائب ، وسنورد أمثلة صريحة لمعظم العلوم العلمية وان الله سبحانه وتعالى حض الانسان على الاهتمام بها بل وشرح نظرياتها التى يتصور الغرب انه صـاحب فضـل فيها ، وينسى أن للاسلام السبق فى ذلك ، فكيف لأمة هذا دينها أن ترمى بالقصور والتخلف .

علم الجرافيـا الطبيعيـة

من نظريات علم الجغرافيا ان الأرض كانت جزءا من الشمس ، ثم انفصلت لأسباب غير معروفة والدليل على ذلك وجود حرارة عظيمة فى جوف الأرض تصهر المعادن التى لاتنصهر الا بحرارة عظمى وتنبعث من باطنها فوارات الماء الحميم مثل ماكان فى طوفان نوح عليه السلام . وهذا يرشدنا الى ان الشمس والأرض كانتا جزءا واحدا وكـذلك الحـال بين الشمس والنجوم (١٧) . وفى ذلك يقول الله تعالى (١٨) « اولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » اى فصل الله تعالى الأرض عن السماء ثم « استوى الى السماء فسـواهن سبع سـموات وبالتالى فان النظريات الحديثة اثبتت ان القبة المضروبة فوق سطح الكرة الأرضية فضاء لميستطع الانسان أنيدرك له نهاية، بل عاين بالآلات نجوما وشموسا لاعداد لها مختلفة فى بروجها متباينة فى حجومها ويدل علىذلك قول الله تعالى فى سورة الرقان (١٩) « تبارك الذى جعل فى السماءبروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » ، والسراج هنا معناه الشمس .

وهنالك مذنبات ذات اذيال ضافيه وافلاك مترامية وهنـالك كواكب اعظم حجما من الشمس لاتكاد هذه الشمس تذكر بجانبها .

وهنالك نجوم تتم دورتها كل مائة سنة ، ومنها مايتم دورته كل الف سنة ، ومنها مايتم كل مائة سنة والفى سنة ومنها مايتمها كل ثلاثة آلاف

---

(١٧) جمال الدين الفندى « قصة الكون » ص ٤٩ .
(١٨) سـورة الأنبيـاء آية ٣٠ .
(١٩) سـورة الفرقان آية ٦١ .

سنة ومنها مايتمها كل مائة الف سنة ، وقد عرف العلماء ذلك بواسطة حساب المثلثات الكروية (٢٠) .

واذا كان الغرب قد توصل الى نظرية كروية الأرض ، وتصور أنه اضاف للعلم الجغرافى حقائق جديدة . فان الدين الاسلامى قد اثبت فى دستوره كثيرا من هذه الحقائق التى لم يكن على الانسان الا أن يتفهم معناها ، ولكن كيف يتفهم ذلك الا بسلطان العلم .

قال الله تعالى « والأرض مددناها » « الم نجعل الأرض مهادا » « الذى جعل لكم الأرض فراشا » ونحو ذلك من الآيات الشريفةالخاصة بالكرة الأرضية .

والله سبحانه وتعالى قد نفى عن الأرض صفة التسطح ، فلو كانت الأرض مسطحة ، لما كثر فى الايات القرآنية قول الله وتذكيره لعباده بأن الأرض « مع كونها كروية » صالحة لمعاشهم ومع كونها كذلك قد جعلها ذلولا ، فامشوا فى مناكبها آمنين على ظهرها لاتخافون تلفا ولا اضطرابا، ومهما سرتم فلن تجدوا لها آخر فقد مددناها امامكم ؛ فلا تعترضكم نهايتها ولا نهاية لها .

واما الجسم المسطح فلابد أن له نهاية من كل جانب فحينما يتوغل السائر فى ناحية منه وجد آخره فينقلب على عقبيه .

ثم يقول الله تعالى فامشوا فى مناكبها ، بدون أن يحذرهم من المشى فى اطرافها « ان كانت مسطحة » فهذا دليل يصدع بأن الأرض لا اطراف لها والأطراف لازم من لازمات المسطح ونفى اللازم وهو الأطراف يستلزم نفى الملزوم وهو السطح ، فالأرض اذا كروية وليست مسطحة (٢١) .

---

(٢٠) جمال الفندى « حقيقة السكون » ص ٥١ — ٥٣ .
(٢١) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ٦٧—٦٨ .

الاســلام وعلم الفلك :

قال الله تعالى « والشمس تجـرى لمستقر لها ذلك تقـدير العزيز العليم » (٢٢) وقوله تعالى « والقمر قدرناه منـازل حتى عاد كالعرجون القـديم » (٢٣) .

تستمر الشمس طول السنة فيقطع محيط دائرة، وهذا المحيط يسمى الفلك وكذلك القمر ، فان له فلكا ، ولكن الشمس تقطع فلكها في سنة كاملة اما القمر فيقطعه خلال شهر واحد . وكل من الشمس والقمر ، وما يتبعهما من النجوم والتوابع في فلك يسبحون أى يسيرون بسرعة شديدة، ثم ان فلك الشمس مقسم الى اثنى عشر جزءا ، تقطع كل جزء في شهر وفي أثناء سـيرها حين تقطع الجـزء الأول من الاثنى عشر جزءا تكون الشمس موازية لـكواكب مخصوصة أى انها تسامت الكواكب التى فوقها في الشهر الأول ، وهذه المجموعة من الكواكب التى تسامتها الشمس ، وهى جزء من هذه الأجزاء تسمى برجا ، فاذا تم الشهر تكون الشمس قد انتهت من هذا البرج وانتقلت الى البرج الثـانى ، وفي ذلك يقول الله تعالى (٢٤) « والسماء ذات البروج » وقوله تعالى (٢٥) « تبارك الذى جعل في السماء بروجا » .

ثم أن القمر يقطع فلكه فيثلاثين أو تسع وعشرين ليلة كل ليلة يقطع جزءا منه ، ويسامت كواكب كل ليلة غير التى يسامتها في ليلة اخرى من الشهر ، فالقمر مثل الشمس الا أن الليلة بالنسبة للقمر بمثابة الشـهر بالنسبة للشمس ، والمجموعة من الـكواكب التى تسامت القمر في ليلة واحدة تسمى منزلة ، والجمع منازل ، ولذلك يقول الله تعالى (٢٦) « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » وقوله (٢٧) « والقمر

---

(٢٢) سـورة يس آية ٣٨ .
(٢٣) سـورة يس آية ٣٩ .
(٢٤) سـورة البروج آية ١ .
(٢٥) سـورة الفرقان آية ٦١ .
(٢٦) سـورة يونس آية ٥ .
(٢٧) سـورة يس آية ٣٩ .

قدرناه منازل » فتلك بروج الشمس وهذه منازل القمر . لكى ذلك المستقر فى قوله تعالى (٢٨) « والشمس تجرى لمستقر لها » .

والجواب اننا اذا قابلنا آية الشمس وهى « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » بآية القمر : هى « والقمر قدرناه منازل » نجد أن قوله منازل فى القمر تقابل قوله « لمستقر لها » فى الشمس والدليل على ذلك أنه بمعرض ذكر حركة كل من الشمس والقمر لقوله « وكل فى فلك يسبحون » ثم ذلك التقدير فى قوله « ذلك تقدير العزيز العليم » وكما قال فى القمر « قدرناه منازل » أى أن المستقر مقدر للشمس بتقدير العزيز العليم كما أن المنازل مقدرة للقمر ايضا .

وعلى ذلك يكون مستقر الشمس هو برجها . وقد يقال أن المستقر اسم مكان من استقر والبرج هو طائفة من الكواكب العالية جدا المسامتة للشمس ، فكيف تكون مستقرا للشمس ؟ والجواب أن ذلك مكان اعتبارى او على حسب النظر ، ولما كان فلك الشمس أكبر من فلك القمر كانت المسافة التى تقطعها الشمس عظيمة جدا تحتاج فى قطعها الى سرعة ، ولذلك عبر فى جانب الشمس بلفظ تجرى ليشير الى أن تلك المسافة الطويلة جدا فرض الله لها مدة تجرى فيها الشمس جريا حتى تتمكن من انمامها فى موعدها (٢٩) .

وقد قال بعض المفسرين فى قوله تعالى « تجرى لمستقر لها » هذه اشارة الى دوران الشمس حول محورها وهى الحركة الرحوية . والمستقر هو محور الشمس ، وهذا بناء على القول بأن الشمس ثابتة فى مكانها وانما تدور حول محورها دورتها الرحوية . ولكن الظاهر المتبادر من الآيات التى وردت فى الشمس أن المستقر هو يوم القيامة الذى يستقر فيه كل متحرك ، وانا لنجزم بأن معنى قوله تعالى « والشمس تجرى لمستقر لها » يساوى قوله تعالى « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » فيكون قوله « تجرى لمستقر » مساويا لقوله « تجرى لأجل » وكل من

---

(٢٨) سورة يس آية ٣٨ .
(٢٩) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ١٠١ — ص ١٠٣ .

اللام فى قوله لمستقر واللام فى قوله لأجل للانتهاء أى تجرى الى مستقر وتجرى الى أجل مسمى فاذا جاء الأجل استقرت فى مستقرها .

والحقيقة أن القرآن الكريم يسير سيرا منظما فى شرح علم الفلك وغيره من العلوم التى حاول الناس بعد ذلك أن يتفهموها ويشرحوا غامضها ويأتوا بنظريات فيها ، وقد شرحها القرآن وبينها ، وبين سطوره معانيها ، ولكن عقلية الانسان هى التى لم تكن لتصل الى هذه الدرجة العالية من العلم لتتفهم كل ماخفى من معجزات القرآن فحينما تتفتح لها نظرية جديدة تتصور أنها قد اضافت جديدا ، أما الحقيقة فهى أنها تفهمت أشياء فى الكون وفى القرآن لم تكن قد وصلت اليه من قبل .

ففى الفلك اذن نرى أن القمر يسير بأحكم نظام سيرا دقيقا يتخذه الناس فيما بينهم مواقيت بالأيام حين ينزل كل ليلة ، منزلة من منازله التى قدرها الله له ، ويعرف به الناس مواعيد الحج فى كل عام فكأنه ساعة نعرف بها المواقيت كل يوم وكل عام .

وكذلك يسير الله الشمس وسائر الكواكب على ذلك النظام المحكم، وهذا دلالة على أن الكواكب على اختلاف طبقاتها وتفاوت حجومها خاضعة بأسرها لذلك النظام المبدع وعلى ذلك يكون قول الله تعالى « مواقيت للناس والحج » ، وقوله (٣٠) « وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » وقوله « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عددالسنين والحساب » (٣١) مرادا به السير بنظام هو غاية فى الأحكام وليس مجرد أخبار .

لذلك فدين الاسلام دين العلم ، وهو الذى حث الانسان على التوغل فى ملكوت السموات والأرض سواء بالدراسة أو بالنفاذ فى الفضاء فى قوله تعالى « يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من اقطار

---

(٣٠) سورة يونس آية ٥ .
(٣١) سورة الاسراء آية ١٢ .

السموات والأرض فانفوا لاتنفذون الا بسلطان » (٣٢) وقد قرر العلماء أن هذا السلطان هو قوة الله سبحانه وتعالى صاحب السلطان ؛ ولن ينفذ الانسان الا بالعلم . فأين هذا مما يتهمنا به المستشرقون من تأخر وجمود.

الاسلام وعلما النبات والحيوان

قال الله تعالى فى سورة الأنعام « وهو أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخيل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمره وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٣٣) .

توضح هذه الآية الكريمة ماأثبته علم وظائف الأعضاء فى النبات من أنه عندما ينزل الماء من السماء ينبت البذور فتخرج أجنة النبات من دور الركود الى دور النشاط ، وتبدأ فى وظائفها الحيوية ، وينمو النبات ويتخصص أجزاء منه هى الأوراق فى انتاج المادة الخضراء «الكلوروفيل» وهى المادة اللازمة لتكوين المادة الغذائية فى داخل النبات من عناصر التربة، ومن عناصر الهواء ثم تنتقل هذه المواد الغذائية ؛ على هيئة عصارة داخل عروق النبات فتتكون البذور والثمار » (٣٤) .

ويقول الله تعالى فى سورة النحل « وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (٣٥) وقوله تعالى « أولم يروا الى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » (٣٦) وقوله تعالى « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » (٣٧) .

هذه بعض آيات القرآن التى تفتح للبشر النظر والبحث ، بل وتأمرهم بدراسة ما غمض فيها ، وتوضح للانسان الأسس الأولى فى هذين

---

(٣٢) سورة الرحمن آية ٣٣ .
(٣٣) سورة الأنعام آية ٩٩ .
(٣٤) محمود دياب « الطب والأطباء » ص ١٠٠ .
(٣٥) سورة النحل آية ٦٦ .
(٣٦) سورة الشعراء آية ٧ .
(٣٧) سورة الرعد آية ٣ .

العلمين ، اولهما ان كل مخلوق من مخلوقات الله سواء أكان انسانا أم حيوانا او نباتا فهو زوجان مذكر ومؤنث ، يتكاثران ويخرجان اصولهما من نفس نوعيهما .

وقد امر الله الانسان أن ينظر الى النبات وكيف توضع بذوره فى الأرض وكيف ينمو ويترعرع ، ويخرج لنا حبا وفاكهة مختلفة أنواعها بالرغم من أن الأرض واحدة ، فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى ، الى جانب ان الله جل شأنه أوضح للانسان كيف يعرف مذكر النبات من مؤنثه لأن مايظهر منه ومالا يظهر ، الى جانب ان الله اوضح فى آياته المحكمات ان النبات يلقح بواسطة الرياح اللواقح، وتارة يكون بواسطة الحيوان انسانا أو بهيمة تنتقل من شجرة الى شجرة او طائرا يهوى من غصن الى غصن (٣٨) ، وحينئذ فلا شك ان كل انواع النبات لاتخرج عن عموم قوله تعالى « من كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٣٩) .

واستمرت عقلية الانسان فى توضيح أسرار علوم النبات واستكشاف غوامضه، حتى وصلوا الى طرق جديدة فى الزراعة وزيادة الغلة وتحسين المحصول ، كلذلك نجد له معاناذا فسرنا آيات القرآنالكريم بعقلية علمية .

لقد كان الانسان فيما مضى يقرأ هذه الآيات ، وكان يتصور انهاترمى الى مايقع تحت حسه من أنواع الحيوان والنبات ، فلما تطور علما النبات والحيوان ، وجد أن هذه الآيات تتكشف عن دائرة هامة مترامية الأرجاء وتشمل اصنافا من الحيوان نراها ولا نراها .

أفلا ينظر المغرضون كيف كان دستورالاسلام هو قلعةالعلم الحديث، فكيف اذا لايشجع أبناءه ، ولا يدعوهم الى الكشف عن الكون وما فيه .

---

(٣٨) رضوان شافعى « التوفيق العلمى بين الحضارة الاسلام » ص ١١٢ — ١١٣ .

(٣٩) سورة الذاريات آية ٤٩ .

الاســــلام وعلم الطب

لاشك أن دين الاســـلام يحث على الاهتمام بصحة الانسان وبدنه، فهو الدين الذى بنى على النظافة والطهارة والوضــوء والسواك وتطهير الثيـاب وعدم القاء الأوساخ فى طرق المسلمين ، وعدم البصاق ، وعدم الافراط فى الأكل أو ادخال الطعام على الطعام ، وعدم الأكل قبل الجوع ، وعــدم الامتلاء واللجوء الى الحمية « لأن المعــدة بيت الداء والحميــة راس الدواء » (٤٠) .

وهناك احاديث الرسول صلعم كلها تتلاءم مع نظريات الطب الحديث فيذكر المؤرخون أن الرسول صلعم عندما بعث اليه المتوقس عظيم القبط فى مصر بالطبيب ، رده اليه قائلا « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا اكلنا لانشبع » (٤١) وبعد طول السنين وبالدراسات العلمية ثبت أن هذه نظرية طبيــة وهى أساس صحة الانسان .

ومن أحاديث الرسول صلعم التى تدل على الوعى الطبى ، وهـــو مانسميه الآن بعمليات الوقاية من الأمراض والحجر الصحى قوله عليــه السلام « اذا سمعتم به — أى بالوباء والطاعون — بأرض فلا تقــدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » (٤٢) .

فالاسلام يأمر بالوقاية من الأمراض لئلا تنتقل العدوى الى ســائر أفراد المجتمع ، وذكر أيضا رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى ذلك « فر من المجذوم كما تفر من الأسد » (٤٣) .

وهناك كثيرا من أحاديث الرسول صلعم التى تدل على ان المسلمين اهتموا بالطب والدواء ، فقد جاء اليه صلى الله عليــه وسلم يوما بعض الأعراب وسألوه أنتداوى ، قال « تداووا فان الله لم يضع داء الا ووضع له دواء » (٤٤) .

---

(٤٠) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى فى ظل العدالة » ص٥٩ .
(٤١) رواه البخــارى ..
(٤٢) رواه البخارى ومسلم بسند صحيح .
(٤٣) رواه البخــارى .
(٤٤) رواه أحمد وأصحاب السنن بسند صحيح .

اما اذا أردنا أن نحلل القرآن الكريم ونرى بعض الايات التى أثبت العلم الحديث صحتها ، وكيف نزلت على الرسول الأمى فى وقت لا يمكن لانسان ان يحلل هــذه الايات ويفسرها كما فسرتهــا النظريات العلمية الحديثة . فلنأخذ أولا موضوع خلق الانسـان .

قال الله تعالى فى سورة المؤمنون « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما » (٤٥) .

فمن المعروف أن علم الأجنة يعتبر من العلوم الحديثة ، فانه لم يصل الى حقائق تكوين الجنين ، وتصوير أشكاله المختلفة فى مراحله المختلفة الا بعد ان اكتشفت المجاهر والأشعة حيث عرف التشريح المقارن معرفة تامة ، وحيث وصل العلم الى الحقائق التى تقررها الاية الكريمة ، خلقناكم من عناصر التراب المختلفة ، ثم خلقناكم بطريق التناسل من حيوان منوى داخل سائل متدفق بواسطة تلقيح الحيوان المنوى لبويضـــة الأنثى ، ثم تكونت علقة تنمو حتى تصير شبيهة بقطعة دم تتعلق بجدار الرحم ثم تنمو العلقة حى صير فى حجم مايمكن مضغه .

وفى الجنين توجد الطبقة المتوسطة من طبقات الجرثومية الثلاثوهى تنقسم الى خلايا يتكون منها العظام والعضلا ت ، وتتصل خلايا الطبقـــة الصلبة وتمتد الى أماكنها الكثيرة ، وتصبح باقى خلايا الطبقة الجرثومية عضلات تسير جنبـــا الى جنب مع التعضرف . وفى الأسبوع الثانى يظهر التكلس والتعظم للغضاريف ، وتكون العضلات قـــد تميزت بسرعة فى جميع انحاء الجسم واخذت الشكل النهائى لها ، وبعـــد أن يكسو اللحم انعظام يكون الانسان قــد انشىء خلقا جديدا وظهرت جميـــع أعضــــاء الجسد (٤٦) .

وقد كان المسلمون فى القرون الخالية يقرءون تلك الآية وأمثالهاقراءة تعبدية فحسب ، ويمرون على مافيها من علم صادق ويقولون آمنا به كل

---

(٤٥) ســـورة المؤمنون آية ١٢ ـــ ١٤ .

(٤٦) محمود دياب « الطب والأطبـــاء » ص ٩٤ ـــ ٩٥ .

من عند ربنا ، حتى جاء علم التشريح ، ووضح هذه النظرية العلمية التى سبق القرآن بها العالم اجمع فقد قال تعالى « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (٤٧)

وهنـــاك اعجاز قرآنى آخر فى مجال الطب فى قوله تعالى « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب »(٤٨)

ففى هذه الآية يبين الله تعالى عملية خلق الانسان ، وكيف توضـــع النواة فى رحم الأم ونوعيتـــها ، وكل ذلك عكف على دراســـه العلماء . فوجدوا فى القرآن الـــكريم أساسـا لمـــا يدرسون فهو الذى يبين كيفية الحمل ومراحل الخلق وكيفية الوضع ، ثم عملية الرضـــاعة ، واهميتهـــا الصحية للانسان ، ومدتها ، كل هذه آيات محكمات دقيقة الصنع . وما العلماء المحدثون الا أناس يحاولون تفسير ماغمض (٤٩) .

واذا أردنا أن نتمعن كيف كان الاسلام هو أساس الطب الحـــديث. فلننظر الى تعاليمه التى أمرت المسلم بالوضوء فى قوله « يا أيهـــا الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافقوامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا » (٥٠) .

فللوضوء حكمة بالغة ، فالانسان ينظف أعضاءه الظاهرة ، فـــكلما تعفر الانســان وتغبر جاء ميعاد الوضوء فأزال القذارة عن اعضائه فلذلك فهو دين يدعو الى النظافة التى هى الأساس الأول فى علم الطب ، فهى التى تحمى الانسان من مختلف الأمراض (٥١) .

وأما تعاليمه بالنسبة للصوم : فهو يفيـــد الانســـان لعلاج كثير من الأمراض ، ويقلل من وزن الجسم .

---

(٤٧) ســـورة هـــود آية ٤٩ .
(٤٨) ســـورة الطـــارق آية ٥ — ٧ .
(٤٩) عبد الرزاق نوفل . ص ٧٦ .
(٥٠) ســـورة المـــائدة آية ٦ .
(٥١) محمود دياب ص ٨١ .

كذلك حرم الله تعالى الميتة والدم ولحم الخنزير . فالحيوان الميت لا يموت الا لمرض او شيخوخة . فاذا مات نتيجة لمرض فانه مما لا شك فيه أنه مازال يحمل فى جسمه بعد الموت مواد غير طبيعية ، وتسممه ضارة بجسم الانسان الحى حتى بعد أن تعقم من الجراثيم .

وكذلك الدم . فانه سائل أغلبه وأهم عنصر فيه كريات الدم الحمراء وفيه من افرازات الجسد ماهو معد للافراز بالبول والعرق .

فالدم مزيج من مواد مفيدة للجسم ، ومواد تضر اذا لم تفرز ، واذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم أيضا مريضا كان شرب الدم اشد ضررا .

واذا بقى الدم فى الحيوان قبل أكله احدث تفاعلات فى أنسجة الحيوان مثل العضلات ويصبح أكلها غير صالح للانسان .

والميتة بالشيخوخة ضررها كضرر الميتة بالمرض لأن الشيخوخة معناها انحلال احد الأنسجة وذلك مقدمة لانحلال آخر حتى تنحل جميعا ويصبح الأكل فى هذه الحالة أكلا لأنسجة مريضة متحللة ، ولحم الخنزير كثيرا مايصاب بطفيليات ، وينقل من الأمراض التى ثبتت أخيرا مثل التيفيا والبلانتيديوم، كما أنه الحيوان الوحيد الذى يصاببالتركينا وهو نوع خطير من الديدان لأنه اذا أصيب به الانسان يحدث تسمما عموميا واسهالا مثل السكوليرا يؤدى الى الوفاة (٥٢) .

وقد حرم الله سبحانه وتعالى الخمر ، فالخمر تسبب الاضرار بكثير من اجهزة الجسم المختلفة ، كالجهاز الهضمى والعصبى والدموى (٥٣) .

وفى مجال الطب والصحة التى اثبت العلم الحديث صحتها وأهميتها قول الله تعالى « ويسألونك عن المحيض ، قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » (٥٤) .

ولقد ثبت علميا ان الحيض أذى اى ضرر على الرجل والمرأة على

---

(٥٢) عبد العزيز اسماعيل « الاسلام والطب الحديث » ص ١٠٤ .
(٥٣) احمد علوش « الخمر والحياة » ص ٦٥ .
(٥٤) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

حد سواء فهو يؤدى الى أمراض للرجل لان دم المراة فى هذه الفترة خليط من خلايا بطانة الرحم وافرازات الغدد وبه كثير من الجراثيم (٥٥) .

وهناك معجزة علمية طبية فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب آية١٩ « فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » (٥٦) .

تشير الآية الكريمة الى حقيقة علمية لم يكن سببها معلوما عند نزول القرآن وهى دوران مقلة العين عند اقتراب الموت وعند الخوف ومن اسباب ذلك أن شدة الخوف تذهب الوعى فتعطل الادراك ، فتعمل المراكز العصبية اللاواعية منطقة مهاد المخ فيصير الخائف فى حالة شبيهة بحالة الذى يغشى عليه من الموت اذ تدور مقلته وتتسع حدقته (٧٥) .

وهناك معجزة أخرى من قوله تعالى فى سورة الحديد آية ٢٥ « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (٥٨) .

فللحديد منافع جمة للكائنات الحية اذ تدخل مركبات الحديد فى تكوين الكلوروفيل وهو المادة الأساسية فى عمليات التمثيل الضوئى التى ينشأ عنها تنفس النبات وتكوين البروتوبلازم الحى وهى الطريقة التى يدخل الحديد بها جسم الانسان والحيوان .

ويدخل الحديد فى تركيب بروتينات النواة « المادة الكروماتينية » فى الخلية الحية ، كما انه يوجد فى سوائل الجسم مع غيره من العناصر وهى احدى مكونات الهيموجلوبين .

ويقوم بدور هام فى عملية الاحتراق الداخلى للانسجة والتمثيل الحيوى بها او الحديد يوجد كذلك فى الكبد والطحال والكلى والعضل والنخاع الأحمر ، ويحتاج الجسم الى كمية مناسبة من الحديد يجب ان

---

(٥٥) دياب ص ٩٠ .

(٥٦) سورة الأحزاب آية ١٩ .

(٥٧) دياب ص ٩٩ .

(٥٨) سورة الحديد : آية ٢٥ .

يزود بها من مصادره المختلفة . فاذا نقصت تعرض الانســـان لأمـــراض اهمها فقر الدم (٥٩) .

الاســـلام وعلم الـــكيمياء :

حاول كثير من المستشرقين أن يغضوا الطرف عن الدور الذى قام به المسلمون فى مجال الكيمياء ، هذا المجال الذى يعتبر واحدا من اهـــم الميادين العلمية التى اشتغلوا بها ، بعد ان حثهم دينهم الحنيف على العلم والبحث واستطلاع خبايا الـــكون .

ومن اول من اتهم المسلمين المستشرق اوليرى فى كتـــابه « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ » قال ان « الكيمياء العربية تعيد عرض ماقام به الـــكيميائيون فى مدرسة الاسكنـــدرية » ويرى المستشرق Ruska « ان مادة الـــكيمياء العربية منقولة الى العربية من القبطيـــة ، ولـــكن ربما كان بها عنصر خفى مصرى أصـــيل » فان اوليرى يرجع فيقول « ان النسخ القبطية فيما يبدو ، أنها ترجمت من أصول عربية الأمر الذى يبعد معه أن يكون اصل الـــكيمياء العربية ترجمات من القبطية » (٦٠) .

والحقيقـــة ان العرب فطنوا الى علم الـــكيمياء منذ صـــدر الدولة الاسلامية فى العصر الأموى فقد شغف المسلمون كما نعلم منذ بداية الأمر بالبحث عن الحقيقة ، فاتبعوا منهجا سليما تتبعوا به سير الظواهر ، ولم يقبلوا شيئا على أنه الحق مالم تؤكده الخبرة والواقع العلمى (٦١) .

ومن اوائل العلماء الذين ظهروا فى ميدان الـــكيمياء واثروا ابلغ الأثر فى تطور هذا العلم ، واقامة دعائمـــه ، خالد بن يزيد الأموى وجابر بن حيان وابو بكر الرازى وابن سينا وكثير غيرهم ، الا أن جابرا هو بحق المثل العظيم للـــكيمياء الاسلامية فى عهـــدها المبكر (٦٢) ، وبجهود جابر

---

(٥٩) دياب ص ١٠١ .

(٦٠) اوليرى « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ » ص ١٣٦ .

(٦١) مصطفى لبيب « الـــكيمياء عند العرب » ص ٢٤ .

(٦٢) Moore " A History, of, Chemistry." p. 23.

والرازى وبفضل عبقريتهما بدأت تتضح مبادىء الـكيمياء ويصبح لهـا منابع العلم الحقيقى ، كما بدأت الحقائق التجريبية تسائد النظريات العقلية التأملية وتدعمها ، وتحـدد المواد الـكيماوية . وصنفت تصنيفا محدد الخصائص كما تقدمت وسائل البحث العلمى وطرق التقطير والتصـعيد والحل والعقد والتبلر ، وفهم الغرض منها . وقد بعـدت عقلية هؤلاء الرواد من علماء المسلمين عن السحر والخرافة وكانوا اول من طبق المنهج العلمى فى دراسة الظاهرة الـكيميائية (٦٢) .

وقد ثار جدل بين مؤرخى العلم حول حقيقـة الأصـول التى استقى منها المسلمون معارفهم الـكيميائية ، وتنوعت حججهم قوة وضـعفا فى هذه السبيل ، ويكاد يجمع الغربيون والمسلمون منكتاب التراجم والطبقات على أن خالد بن يزيد هو اول من تكلم فى الـكيمياء وانه تلقى علومه من مصادر يونانية او على الأرجح مصادر هلينستيه على يد واحد من رهبان الاسكندرية يدعى ماريانوس الذى ترجم كتب الـكيمياء الى العربية .

والواقع أن المسلمين الأوائل ان كانوا قد ورثوا شيئا من المعلومات الـكيميائية التى انتهت اليها جهود المصريين القدماء او اليونانيين الا انهم بحق قد بعـدوا عن الارتجال والغموض واسسوا كما يقول هوليـادر « نظاما عمليا عماده الحقائق التى تدعمها التجربة ، وتبعد عن الخيال ، ومن الجانب العمـلى فى الـكيمياء الاسـلامية يبـدو التنظيم السليم بأوسع مداه » (٦٤) .

وحينما بدأ المسلمون يتشككون فى النظريات الكيميائية القديمة بدأت مرحلة وصولهم الى مستوى عال من التفكير الكيميائى (٦٥) . واذا كان من الممكن للمـرء أن يطلع على علوم الآخرين فان ذلك ليس ضـمانا له بالقدرة على التفكير المبدع ، فالعرب وقد كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان الا انهم سرعان ما ادركوا أن التجـربة والرصـد خير من الف كتـاب (٦٦) .

---

(٦٣) **Holmyard. "Makers of Chemistry" p. 56.**

(٦٤) **Holmyard. "Chemistry to the Time of Dalton" p. 30**

(٦٥) سارتون جورج « مقدمة لتاريخ العلم » ص ٣١ .

(٦٦) لوبون « حضـارة العـرب » ص ٤٣٥ .

ان تاريخ العلم يؤكد أن المسلمين فى بحوثهم السكيميائية اتبعوا الطريق العلمى بالرغم من معرفتهم أن التجربة لاتوصل الى اليقين الحاسم وليست وثيقة وثاقة البرهان او القياس ولكنهم وقد كان هـذا شأنهم ادركوا تماما ان مطلب اليقين ليس هدف السكيميائى ، أو حتى فى متناوله وان نتائج العلم تخضع لاعتبارات الاحتمال والترجيح كما لم يروا فى القانون العلمى صبغة مطلقة تحتم ضرورة صدقه فى كل مكان وزمان وتجعل « التنبؤ العلمى » فى المستقبل على نحو ما اظهرته تجربة الماضى والحاضر امرا محتوما . لذلك نرى أن المنهج العلمى فى الكيمياء الاسلامية قام على المشاهدة المضبوطة ، والتجريب المحكم بعكس الطريقة المدرسية التى سادت اوربا بعد ذلك طوال العصر الوسيط ولا يمكن فى واقع الأمر ان نظهر قيمة العرب الحقيقية ومكانتهم العلمية الا باظهار الفرق بين المنهجين السالفى الذكر ، فان زملاء العالم الايطالى جاليليو قد رفضوا فى عناد حتى مجرد أن يكلفوا خواطرهم بالنظر فى منظاره ليروا ما يتعاقب على على الأجرام من تغييرات » .

فالجانب التجريبى فى السكيمياء العربية من اهم المسائل الجديرة بالاعتبار ، وعلى أساسه استطاعت أوربا أن تجد الأساس السليم ، ونقطة البدء الصحيحة فى هذه الدراسات التى خلفها العرب ، يقول هولميادر ، لقد قدم كيميائيو العرب الجوهر والأساس لهذا العلم الناشىء واستطاعت أوربا أن تبدأ بحوثها السكيميائية على اساس واقعى سليم ، وبناء نظرى مشتق وتأكيد لقيمة الكيمياء المباشرة فى حياة الفرد » (٦٧).

ان النقاش الطويل حول الطريقة التجريبية ، ومحاولة اسنادها لغير العرب ليس الا حلقة من حلقات التضليل وليس الا تصحيفا فى فهم المصدر الحقيقى للحضارة الأوربية كما يقول « بريفولت » فالدراسات العلمية التى ظهرت فى أوربا كانت نتيجة لروح جديد فى البحث وطرق حديثة فى الاختبار والفحص ، وكانت كذلك نتيجة للتجارب والملاحظات ودقة المقاييس ، وكل هذه الدعائم لم تكن معرفة للاغريق انها جميعا هدية المسلمين الى أوربا .

Holmyord. "Chemistry to the time of Dalton." p. 30. (٦٧)

الفصل السادس

الإسلام ومشكلات الحضارة والمدنية الحديثة

مشكلات الحضارة

تعرضت الانسانية عامة فى الشرق والغرب لهزات عنيفـــة بعـــد الحربين العالميتين الأولى والثانية .

فقد انقلب ميزان القوى فى العالم ، وانتصرت فئة وانهزمت فئـــة اخرى وعلت جبهة وانخفضت جبهة ، بل ان هنـــاك من الدول العظمى التى انكسرت هذه الـــكسرة فى الحرب ــ مثل المـــانيا ودول المحور ــ وكان لابد عليها من أن تعيد بناء نفسها من البداية .

اصبح امام الشعوب مشكلات ضخمة سياسية واقتصادية واجتماعية، وقد اصبح من المحتم على العالم الاسلامى ان يسهم بحظ وافـــر من تلك المشكلات ، وان يشـــارك بقيـــة العـــالم فى القـــاء القدر الـــكافى من الأضواء لحلها والاستفادة من نتائجها .

ومن الطبيعى أن العالم الاسلامى يختلف كلية عى العـــالم الغربى فى مدنيته وتقاليده وعاداته وتراثه العلمى ، الـــذى يختلف مع ما للاخر من نظـــائر هذه المميزات كل الاختلاف .

ويرجع هذا الاختلاف الى الفترة التى بدأت فيها أوربا عصر النهضة، وأذعنت لدعوة الأحرار من مفكريها ، فانفصلت عن الكنيسة ، واندفعت فى الطريق الذى جعلها تبتعد عن المدنية والحضارة الشرقية شيئا فشيئا .

ولقد جعل مفكرو الغرب يمعنون فى توسيع الهوة بين الحضارتين، فأعلنوا جحودهم للروحيـــات ، وصرحوا بانكارهم لكل مالا يعرفون سببه الظاهرى ، ونادوا باستقلال العلوم التجريبية عن الدين ونادوا بصدارتها عليها ، وقرروا أن كل مالايخضع للتجربة غير ثابت ، ولا جدير بالتصديق . فقال قائلهم « اذا وضعتم الاله والروح على المشرحة ، وصوبتم اليهمـــا

الميكروسكوب ، فأنا مستعد للايمان بهما » (١) . وأعلنوا كذلك أن العقل البشرى المعتمد على الحواس هو وحده الوسيلة المثلى للمعرفة ،وجاهروا بأن المعرفة نسبية وبأن مبادىء الأشـــياء وغاياتها مجهولة أو غير قابلة للمعرفة ومعنى هذا انه يجب علينا أن نحصر جهودنا فى دراسة الظواهر الطبيعية ، وما دامت هى وحدها فى متناول عقولنا ، فلم يعد العقل سوى قوة تتعقب تحولات المادة ، لتنتزع منها خواصها .

هذه هى مميزات الروح الغربية التى يسودها العلم التجريبىسيادة تامة . والتى ظفرت فى القرون الأخيرة بنمو وانتشار غير قابلين للتصديق ولقد تغلغلت فى جميع البيئات الدينيـــة ، بل نفـذت الى أكثر القلوب المسيحية اخلاصـــا ، وأشدها استمساكا بالايمان وحرصا على العقيدة، دون أن يبدو لها مافيها من تناقض مع العقل السليم ، والمنطق السليم (٢)

سلط الغرب افكاره على العالم كله ، ومنها العـــالم الشرقى الذى بدات تتغلغل فى مجتمعاته وبيئـــاته ، وطالما كان الاجتياح مقصورا على الشئون المـــادية من الحياة محصورا فى الأمور العملية من الوجود ، لم يكن الخطر داهما ، ولا الدمار محققا ، ولـــكنه بدا يغزو الأرواح والنفوس والعقائد والقلوب ، فقد سلط الغرب على الفرد المسلم أو « الانسان » فكرا وعادات وعقائد غريبة عنه ، محـــاولا بذلك تحطيم المفهوم الحقيقى للانسان المسلم وللمجتمع الاسلامى ، لكى ينشأ افرادا يكفرون بالاســـلام والمجتمعات الاسلامية ويعملون على هدمها .

فالاسلام دين دعوة الى الحياة بنص القرآن الـــكريم ، فقد جاء فيه قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لمـــا يحييكم » (٣) .

وهكذا انفرد الاسلام بطابع دعوة الى الحياة ، ولـــكنها حياة تقوم على اسس جديدة تكفل الأمن والسلامة لجميع بنى الانسان ، فكما ربطنا

---

(١) محمد غلاب « الاسلام من خلال مبادئه التأسيسية » ص ١٩ .
(٢) محمـــد غلاب « المرجع السابق » .
(٣) ســـورة الأنفـــال ، آية ٢٤ .

مابين دعوة الاســـلام وبين مشكلات الحياة التى يعانيها الناس . وجدنا حلولا علمية تضمن لهم حياة انسانية كريمة ، وآمنة .

وكلما اغفلنا هذه الصلة مابين دعوة الاسلام ومشكلات الحياة التى يعانيها الناس ، فقد ابتعدنا عن روح الاسلام .

وانه مما يلفت نظر الدارس لتاريخ الحضارات العالمية المقارن هو ان جميع النهضات المــادية فى التــاريخ ــ كما هو شــأن النهضة فى عصورنا الحديثة ــ وقد تكشفت فى عز سلطانها عنمشكلة واحدةمشتركة وهى أنها هدفت عملا بمبادئها ونظمها الى جعل فئــة قليلة من الناس أو امة من الأمم تتحكم فى مصير لقمة غيرها من الجماهير والأمم ، وفى مصير امنها وسلامتها ، وذلك بما اختصت به تلك الفئة القليلة او الأمه الغالبة نفسها من امتيازات خاصة وحق الوصـــاية على الغير بمــا لا يتفق مع مبادىء الوحدة الانسانية ، ولا مع القواعد الأخلاقيــة ، ولا مع الحقوق الطبيعية . ولـــكن نهضة واحدة ظهرت فى القرون الوســطى ، وهى النهضة الاسلامية الانسانية شذت عن ذلك ، وكانت وحدها بكل مبادئها وقواعد نظامها قائمة على محاربة هذا التحكم بجميع اشكاله والوانه . واستنت نظاما اجتماعيا جديدا يقوم على فكرة الاخاء والتضامن .

والسائد الآن فى العصور الحديثة هو انتشار الحضارات المــادية التى تحاول أن تقضى على الانسان وتحوله الى آلة ، وتدمر خصائصهفهى تعامله بالمقاييس الآلية وبالمقاييس الحيوانية التى أمكن دراستها فى عالم الحيوان (٤) .

الى جانب ذلك نجد الانسان الان أصبح جاهلا بدوره الذى رسمه له الله سبحانه وتعالى فى الحياة ، والمعيشة وفى كيفية استغلال طاقات الحياة وكنوزها كلها فى التعمير والتنمية والارتقاء ، وفى أن يضع لنفسه نظاما شاملا لجوانب حياته كلها ، يتناسب مع طبيعته وخصائصه ،ويحتفظ بها جميعا فى حالة تجدد ونمو وازدهار .

---

(٤) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٧ .

معنى ذلك ان هذا الانسان يحتاج قبل كل شيء الى قيم يبنيه ، والى تمسك تام بالشريعة السماوية حتى لايخرج بحضاراته عن الهدف المقصود منها وحتى لا يجعل من تلك الحضارة أداة تدمير تدمره ، معنويا وجسديا.

معنى ذلك ايضا أن المؤمنين يستطيعون — اذا تحررت عقولهم من أى أفكار هدامة تخرج تحت اسم الحضارة والمدنية — أن ينشئوا أروع الحضارات ، وأن يستلهموا سر الحكمة من الله خالقهم ، وخالق الأكوان، وأن ينهضوا برسالتهم الكبرى فى الحياة .

على الانسان أن يقدس نفسه كانسان خلقه الله سبحانه وتعالى ونفخ فيه من روحه وانه قد تحول بهذه النفخة القدسية من روح الله الى كائن عظيم ، له قداسته ومنزلته تسجد له الملائكة بامر الله ،وسخر له الكون كله (٥) قال تعالى « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٦) .

فالاسلام قد رفع الانسان الى أعلى منزلة وكرمه أعلى تكريم ، وجعله من روح الله ، فهل هناك منزلة أعلى من ذلك .

الى جانب أن الاسلام يؤكد انسانية الانسان ، ويرتفع بها فوق حيوانيته ، ويؤكد بالتالى القيمة العليا للانسان فى الوجود كله ، ويؤكد أن مافى حياة الانسان من دين وعلم . وما للانسان من حواس وادراك ، وما لجماعته من تاريخ هو مجموعة متناسقة من طرق المعرفة تنتهى الى غاية واحدة هى سعادة الانسان .

وعندما لاح نور الاسلام ، وانتشر فى أرجاء العالم أجمع ، حمل معه حضارة ذات خصائص معينة ، كل جانب من جوانبها يعمل على سعادة الانسان ورخائه ، وعلى تطور عقله وعلمه ، وعلى احترام آدميته، وعلى ارضاء الله جل وعلى خالقه ، فكانت هى الحضارة الغالبة والسائدة .

---

(٥) توفيق سبع « قيم حضارية فى القرآن الكريم » ص ٩٥ .
(٦) سورة ص آية ٧١ ، ٧٢ .

ولم تقتصر هذه الحضارة الاسلامية على خدمة الفرد المسلم فقط ، ولكنها ذاعت وانتشرت وشملت العالمين الشرقى والغربى ، فعندما بدأ الاوربيون نهضتهم اعتمدوا اعتمادا كبيرا على الحضارة الاسلامية فى شتى فروعها .

ولعل أهم جانب من جوانب الفكر هو المنهج التجريبى الذى يؤكد العلماء الغربيون أنه ليس من صنع الغربيين ، ولكنه مأخوذ حقا عن العلماء المسلمين .

يقول بريفولت فى كتابه « بناء الانسانية » ان روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية فى مدرسة اكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس وليس لروجر بيكون ، ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى ، هى طرف من التحريف الهائل لاصول الحضارة الأوربية ، وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا » (٧) .

وبعد أن انتقل المنهج الاسلامى الواقعى التجريبى الى العقلية الأوربية ، اتجه الفكر الغربى الى البحوث العلمية التجريبية ، وبدأ البحث العلمى يكشف عن حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية ، غير تلك المجموعة من الأوهام والأساطير والخرافات التى تتبناها الكنيسة ، وتعتبرها حقائق مقدسة ، وهى ليست من النصرانية فى شىء ، وانما هى مجرد أفكار — غير علمية كانت شائعة فى تلك الأزمان ولم يتنزل بها كتاب من عند الله فتبنتها الكنيسة ، ودافعت عنها بوصفها جزءا من العقيدة .

ولقد وقفت الكنيسة ، وقفة عنيدة فى وجه هذا الاتجاه الجديد المنبثق من منبع الثقافة الاسلامية فى الأندلس وفى الشرق كذلك ، وتابلت

---

(٧) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضاره » ص ٣٥ .

ـــائج بحوث الطليعة من العلماء الأوربيين الذين استقوا من ذلك النبع بجفوة وعداء شديدين ، واستخدمت سلطانها ضـــدهم بوحشية كان من جرائرها ذلك الشرود من الكنيسة وضمنا من الهها الذى تستطيل باسمه زورا وبهتانا ، ومن كل ظل للدين وللتوجيه الدينى (٨) .

لذلك ضاق المجتمع الأوربى ذرعا بالـــكنيســة ، وتطلع الى معرفـــة انقى وعلم أنفع ، فلم يكن بد أمام الأوربيين الا أن يعتمـــدوا على العقل وحده بعيدا عنأى دين، لأن الدين فىنظرهم عدو للعلم والحرية والابتكار.

انطلق الفكر الأوربى مزهوا تياها بما احرز من انتصار علىالكنيسة فظن انه يستطيع أن يبنى حضارته بعيدا عن دين صحيح ، يسبغ عليهـــا الـــكرامة ، ويحفظها من الانزلاق ويعصمها من الهبوط ، لأن الالحاد هو الأب الطبيعى لـــكل المساوىء والآفات الحضارية ، ورغم ذلك فقدانطلقت الحضــــارة الغربية من نقطة الالحاد لا تلوى على شىء ، ووصلت بهـــذا الى قمة التفوق المادى (٩) .

وعلى الرغم من أن العالم الغربى قـــد نجح فى ايجاد عالم صناعى مريح فيـــه كل مايفتقر اليه الانسان المتحضر من الكماليات ، الا أن القوم هناك فى غاية التوتر والقلق ، تغمرهم المشكلات الحـــادة ، وتواجههم المتاعب القاسية ، وكأنما الانســان فى ظل الحضارة قد اعتراه الملل وسئم الأجواء الصناعية المادية ، وتطلع الى لون آخر من الحضــــارة تغـــذى عواطفهم وتملأ قلوبهم بالأمن والسكينة .

ولو تتبعنا الانعكاسات السيئة التى ترسلها هـــذه الحضـــارة لأعيانا الاستقصاء وتكفى وسائل التدمير والتخريب ، وكيف تستعمل فى ترويع الامن والاعتداء على كرامة الشعوب ، يكفى ما اورثته هذه الحضـــارة اصحابها من غرور وصلف فقدت معـــه التوازن ، وتحيزت للظلم وضربت حركات الايمان فى كل مكان .

ان الحضارات المـــادية فى الشرق والغرب ، قامت على اســـاس

---

(٨) سيد قطب ، المرجع السابق ص ٣٦ — ٣٧ .

(٩) توفيق سبع « قيم حضـــارية فى القرآن » ص ١١٣ .

مناهج بشرية تدعى انها تستطيع أن تلبى حاجات الانسان ا وتصنع حياته، وكانت نتيجتها شـقاء وضلال ، لأنها حضـارات قامت على جهل مطبق بطبيعتنا وبحجمنا وعواطفنا وخصائصنا .

وقد بدأ العالم الغربى يشعر بأزمة ضمير لانه لم ينطلق بالحضـارة المـادية الى أفقها الروحى النبيل ، فيتخذ منها وسائل لمرضـاة الله . ودعائم لتقوية الايمان ، وانما اعتبرها فى ذاتها غاية ، فانفصل عن الله كل الانفصال ، ولم ينجح فى تهيئـة هذه الحضارة لخـدمة الانسان ؛ فاستبعدت هذه الحضارة المادية ضمير الانسان والغت ارادته . وبددت مطامحه واشواقه ، وجعلته عبدا خاضعا لها لا سيدا مسيطرا عليها .

ومثل هذه الحضارة لا يمكن أن تنجح فى بنـاء مدنيات فاضـلة . لـكنها تنجح فى بنـاء امبراطوريات ضخمة ، تغرى بمظهرها فى حين ان البـاطن خواء لأنهـا دعت الى تخلف الخلق عن العلم فى مضـمار السباق ، وبذلك باعت مثلها وقيمها فى عالم الأرقام والكميات والحساب. وصارت حضارة بلا ضمير ، وتأبى الحضـارة المثالية الا ان تـكون مزاجا بين الروح والـكم بين الغائية والسببية ، حتى اذا حدث اختلال فى هذا التوازن هوت المدنية الى الحضيض ، لأنهـا تحيف على فطرة الانسـان وتصادم طبيعته التى جعلها الله مزيجا من المادة والروح .

لذلك فلابد على الانسان المؤمن ان يفجر بالعلم كل ينابيع الحضارة ويضبط بالايمان مسارها فلا تنحرف أو تضل . وبهذا يتعانق الايمان مع العلم فى تشييد صروح الحضـارات ، ومن غير الايمان بالله ؛ واتبـاع منهجه وهداه يضل الانسان وتخطىء الحضارة طريقها وتتصارع عناصرها تصـارعا يؤدى الى تدمير الحيـاة والأحياء « ومن اضـل ممن اتبع هواه بغير هـدى من الله » (١٠) .

وهذه النتائج السيئة للحضارات المادية ليست نظريات للدراسة ، وانما هى تجارب للذكرى والاتعاظ والتدبير .

---

(١٠) سـورة القصص ، آية ٥٠ .

فالله قد اهلك أمما وافنى حضارات ودمرها على رؤس أصحابها لأنها قد ضلت طريقها ، واخطأت سبيلها حين رفضت أن تخضع لأمر الله وتحقق منهجه وهداه « فصب عليهم ربك سوط عذاب — ان ربك لبالمرصاد » (١١) .

وعندما طغت الحضارة المادية على اوربا بهذه الطريقة السريعة ، فقدت أوربا معها دينها ، وضعف سلطان الدين نهائيا ، ولذلك بداوا ينظرون الى الامم الأخرى ليتوسعوا فيها ، وليصرفوا منتجاتهم بعد هذه الانطلاقة الحضارية المادية ، ولينشروا فكرهم وآراءهم بين الشعوب المختلفة .

ولعل أهم الشعوب التى ركز الغربيون النظر عليها هى الشعوب الاسلامية لما بينهم من عداء دينى ، ولما تتمتع به البلاد الاسلامية من خيرات وموارد ، وموقع جذب إنتباه الغربيين .

لذلك بدأت حركة استعمار الشعوب الاسلامية منذ القرن السابع عشر الميلادى الى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فتمكن الاستعمار الغربى المسيحى من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين فى وسط آسيا وشرقيها ، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية فى افريقية ، كما تمكن من مد نفوذه الى قلب العالم الاسلامى ومركزه الرسمى فى منطقة الشرق الأدنى ، وبذلك طوق العالم الاسلامى من الشرق والغرب ، وسلط الاعيبه ودسائسه على بقية التجمعات الاسلامية الأخرى بين هذين الطرفين ، فوهنت هذه التجمعات ، وانحل عقدها ، بسقط بعضها اثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربى ، وما جاءت الحرب العالمية الأولى وانقضى اجلها حتى أصبح العالم الاسلامى كله تحت نفوذ هذا المستعمر .

ويهمنا من هذا الموضوع خطورة تدفق سيل الأجانب على البلاد الاسلامية وقيامهم بنشر الحضارة المادية بين صفوف المسلمين على أساس من اضعاف العقيدة الأسلامية وتوهينها ، وتخريج جيل غير مؤمن بالدين وبالرسالات السماوية .

---

(١١) توفيق سبع « قيم حضارية فى القرآن الكريم » ص ١٥١ .

ومما يؤكد صحة هذه النظرية المقال الذى كتبه المستشرق الفرنسى « هانوتو » يصف فيـــه المسلمين وعقيدتهم ، ويضع المقترحات الضرورية فى نظـــره لتوجيـــه ســـياسة فرنسا فى مستعمراتها الاســـلامية تحت هـــذا العنـــوان (١٢) .

« اخترق المسلمون ابنـــاء آسيا شمال القـــارة الأفريقيـــة بسرعة الاتجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين ، ثم تراموا بها على أوربا . ولـــكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى اسيا بل أقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ؛ ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا . وأكرهوا على الرجوع الى أفريقيا حيث ثبتت اقـــدامهم أحقـــابا متعاقبة . ولـــكن لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية. ومن اخرى ببلدة فاس فى المغرب الاقصى معانقا بذلك الغرب كله .

« فى تلك البقعة الافريقية التى أصبحت مقر ملك الاســـلام جاءت الدولة الفرنسية لمناغتته — جاء القديس لويس الذى ينتمى الى اســـبانيا بوالدته — ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده الامارات الأفريقية الاســـلامية . وعاود هـــذا الخاطر نابليون الاول . فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التـــاسع عشر ، حيث أخذوا على دولة الاسلام التى كانت لاتنى فى متابعة الغارات على القارة الأوربيـــة . فأصبحت الجزائر فى أيديهم منذ سبعين عاما وكذلك القطر التونسى منذ عشرين عاما .

« اذن فقد صارت فرنسا بكل مكان فى صلة مع الاسلام ، بل صارت فى صـــدر الاسلام وكبده ، حيث فتحت أراضيه ، وأخضـــعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤســـائه الأولين ، وهى تدير اليوم شـــئونه وتجبى ضرائبه وتحشد شبابه لخدمة الجندية وتتخـــذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال » .

---

(١٢) محمـــد البهى « الفكر الاســـلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » ص ٢٨ — ٣١ .

نرى من هذا الموضوع أن هانوتو يرى انه يجب على المسلمين أن ينتقلوا الى الحضارة الأوربية الآرية المسيحية ، ويجب على شعوب اوربا المسيحية الآرية ان تتعاون فيما بينها على دفع الخطر الاسلامى الكامن ضمن الوحدة الاسلامية الفكرية والروحية

معنى ذلك أن الغربيين يعملون على اضعاف المسلمين فى اسلامهم أولا وحضارتهم ثانيا . وفعلا استطاع الاوربيون أن يدخلوا الى البلاد الاسلامية كثير من المذاهب المادية والفكر المادى الذى سبب لنا مشكلات حضارية كبيرة ، واغوى شبابنا ، مما يدعونا الى البحث فى هذه المذاهب والأفكار لنحدد نوعية المشكلات الحضارية . أفكار فلسفية عقائدية مثل فلسفة هيجل والوجودية وافكار اقتصادية وسياسية مثل التيار الشيوعى الماركسى ، والفكر الراسمالى ، ومذهب الليبرالية الديمقراطية . وكل هذه الأفكار — كما سنبين فيما بعد — ادت الى مشكلات حضارية فى المجتمعات الاسلامية ، وخلفت فى هذه المجتمعات افرادا آمنوا بها — بحكم ضعف ايمانهم — وافرادا قاوموها ودفعوها ، كما انها ادت الى نشأة حركات دينية لهدم مبادىء الاسلام — تحت اسم التقدمية — مثل حركة الأحمدية والقاديانية فى الهند ، والبهائية فى البلاد الاسلامية الأخرى الى غير ذلك مما سنعرض له .

نظرية دارون

وسنبدأ موضوعنا هذا ببحث عن نظرية دارون ، وكيف كانت سببا فى خلق مشكلات فكرية وحضارية عند الشعوب الاسلامية .

والحقيقة أن نظرية دارون تعتبر من أخطر النظريات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، واوجدت مشكلات حضارية ، وعملت على بلبلة الفكر الدينى ، الى جانب أنها كانت بداية لموجة الالحاد التى سادت فى العصور الحديثة .

ولابد لنا ان نعطى فكرة عن دارون هذا ، فهو عالم بريطانى شهير ، له نظريات علمية من أهمها نظرية التطور والارتقاء ، وخلاصتها « ان الحياة الأولى للانسان والحيوان والنبات بدأت على ظهر هذه الأرض بجرثومة أو جراثيم قليلة تطورت من حال الى حال تحت تأثير عوامل طبيعية حتى وصلت الى هذه التنوعات التى نراها وعلى رأسها الانسان .

وعلى هــذا فان الانسان عندهم بــدأت حيـاته على ظهر الأرض بجرثومة صغيرة تحولت الى حيوان صغير ، ثم تدرج هذا الحيوان وارتقى الى حياة حيوانية بدائية ، فالى حيوانات اكبر ، فأكبر ريشيه ومجنحة ، ثم تحولت الى ذوات فقرات ، ثم ارتقت الى حيوان أشبه بالانسان ، ثم كانت نهاية هذا التطور انسانا أول لايعقل ولا يدرك ولا يتكلم . ثم انسانا كاملا ، وهو المشهود اليوم بعقله وتفكيره وادراكه . ويقولون ان هــذه التحولات والتطورات والترقيات جاءت بعد صراع مرير بين هذه الكائنات وعوامل الطبيعة وتقلباتها ، وبين نفس هــذه الكائنات الحية بعضها مع بعض عبر آلاف القرون من أجل البقاء (١٣) .

وجه الالحاد فى هذه النظرية :

لابد من مناقشة الجانب الالحادى الذى حمل لواءه باسم هذه النظرية ارنســت هيكل واوبارين وقبلهمــا لامارك وغيرهم من ماديين وماركسيين استغلوا اهتمام الناس الشديد « علميا » بهــذه النظرية واقبــالهم على الاعتناء بها ودراستها فصــاروا يتخذون منها شركا يصطادون بوساطته صـــغار العقول من البسطاء الذين قل حظهم من الثقافة الدينية فيرمونهم فى هاوية الالحاد ، وذلك عن طريق تفسيرهم لهذه النظرية تفسيرا يدخلون بوساطته « وباسم العلم » فى روع هؤلاء البسطاء المجردين من الحصانة الروحية والدينية أن واقع الوجود وطبيعـــة الـــكائنات الحية وتطورها، وتحول بعضها عن بعض ، واشتقاق بعضها من البعض الاخر ، كما هى « قواعد نظرية التطور والارتقاء » من انتخاب طبقى واصطفاء نوعى يجعل من غير الضرورى الاعتقاد بوجود خالق يتولى ادارة هذا الــكون وتنظيمه لأن المـــادة ـــ كما يزعمون ـــ بطبيعتها وخصائصها الملازمة لهـــا تقـــوم مقـــام الخـــالق فى ذلك .

فالجناح الالحادى من انصـــار هذه النظرية يزعم أن الحيـــاة الأولى جاءت نتيجة تفاعل طبيعى بين اجزاء من المادة ، هذه المادة التى يزعمون انها كانت ولم تزل قادرة بطبعها على اعطاء الحياة ، ولهذا فهم ينكرون أن تكون الحياة من صنع قوة فوق الطبيعة .

---

(١٣) محمد احمد باشميل « الاسلام ونظرية داروين » ص ٢١ــ٢٢

فهذا الجناح الالحادى — عندما يتحدث عن مراحل التطور والارتقاء يخرج من حسابه قوة مافوق الطبيعة « وهى القوة الالهية » لأن حالة المادة — بزعمهم لاتحتاج الى هذه القوة ، فالطبيعة ملازمة للمادة بحركتها الدائمة، هى التى تخلق وتبدع وتنوع وتطور وتصفى وتبيد .

بل انهم حاولوا أن يفسروا الطبيعة ويقولون ان ظهور الأحيساء الى الوجود قديم بفضل الطبيعة مباشرة . وأن تنوع الأحياء ، انما حدث بقوة الطبيعة الملازمة للمادة وعلى طريقة النشوء والتحول والارتقاء (١٤) .

ومنطقة الخطر فى نظرية التطور والارتقاء ليست فى كونها لم تبلغ من الناحية العملية درجة الصحة واليقين . وانما فيها يتولد عن الايمان بها — فى محيط قصار النظر وضعيفى الايمان — من نزعات الحادية وميول تحللية وجودية تربط الانسان بما على وجه الأرض من غرائز حيوانية ، وميول بهيمية ، وتقطع صلته بما سواها على اعتبار ان الانسان — كما هى نظرية دارون — فى الأصل حيوان .

ويذكر الاستاذ محمد قطب « ان العيب الرئيسى لنظرية دارون ليس فى الوقائع العملية التى بسطها فى كتبه ، وتابعه فيها أعوانه ومريدوه ، بقدر ماهو فى ايحاءات تلك النظرية التى خلفت طابعها الخطر ، لا فى افكار الجماهير وحدها ، بل فى اتجاه العلماء كذلك منذ عهده الى العصر الأخير » (١٥) .

ومن أهم الاعتراضات التى وجهت لمذهب دارون ماكتبه الأستاذ محمد فريد وجدى فى « دائرة المعارف » (١٦)

١ — عدم مشاهدة اى ارتقاء من اى نوع كان فى الأحياء الأرضية من عهد الوف السنين .

٢ — عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب

---

(١٤) باشميل « الاسلام ونظرية داروين » ص ٢٦—٢٧ .
(١٥) محمد قطب « الاسلام بين المادية والاسلام » ص ١٩ .
(١٦) محمد فريد وجدى « دائرة المعارف » جـ ٤ ص ٣١ .

التسلسل كأن يوجد مثلا حيوان ارقى من القرد رتبة واحـدة وادنى من الانسان رتبـة واحدة أيضـا .

٣ — طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحيـاء ، فان عمر الأرض كما قالوا لا يكفى لاحداث كل مايرى من هذه الاشكال المختلفـة غاية الاختـلاف .

وهناك راى آخر يدحض هذه النظرية يقول الأسـتاذ نديم الجسر : ان الحيوانات البحرية الدنيـا هى باقية حتى اليوم ، على الحـالة التى كانت عليها فى ابتداء العالم ولم نجد انها تأثرت بناموس الارتقـاء ، وان طوائف الأحيـاء الـكبرى ، الدنيـا منها والعليا ، وجدت منها آثار فى اسفل طبقات الأرض ، فلو كان ناموس الارتقـاء أكيدا لوجب أن يكون الأعلى منها كذوات الفقرات فى اعلى الطبقات واننا نجد كثيرا من الأجناس والطوائف قـد كانت فى العصور القديمة الأولى أكمل منها اليوم ، ونجد فى الطبقات الأرضية بعض حيوانات دنيئة فوق حيوانات عالية جدا (١٧)

والمهم فى نظرية دارون هذه أنها اتخذت أساسا للمذاهب المـادية المختلفـة والفلسفات التى سـادت الغرب بعـد ذلك ، فقد اسـتندت عليها الشيوعية واستند عليها فرويد فى نظريته الى غير ذلك من المذاهب الهـدامة .

وقد حاول دارون فى كتابه « أصل الانواع » أن يبين أن أنواع الأحياء كلها ترجع الى أصل واحد أو عدة أصـول أوجدها الخالق ، وان الحياة سر يعجز كل البشر عن معرفته . معنى ذلك أن دارون قد اعترف بدون أن يدرى — بأن لهذا الـكون خالقا بل لقـد صرح دارون نفسه بأن بحوثه الخاصـة بنظرية التطور والارتقاء لا تستهدف الدعوة الى انكار الخالق، وليس فيها أى خطر على الدين (١٨) .

والمهم فى هذا الموضوع — كما يرى الأستاذ العقاد — ان صاحبى مذهب التطور والارتقاء « داروين وولاس تلميذه من بعده » لم يستندا الى

(١٧) نديم الجسر « قصـة الايمان » ص ١٦٥ .
(١٨) عبـاس العقـاد « عقـائد المفكرين » ص٥٦ .

هذا المذهب فى انكار العقيدة الدينية ؛ ولم يزعما أنهما يفسران سر الحياة أو سر الكون — واحداهما وهو ولاس — كان مؤمنا بالله وبحكمته فى مخلوقاته والاخر وهو دارون كان يأبى أن يوصف بالالحاد ويؤكد فى آخر أيامه ان الاستدلال بمذهب التطور على انكار الاله الخالق خطأ كبير . وادعاء لاسند له من العلم ولا من التفكير الأمين .

هذا من ناحية موقف نظرية دارون الشخصى حيال مايفتريه الملحدون من شيوعيين وغيرهم من ادعاء مفاده أن بحوث هؤلاء الأقطاب « حول التطور والارتقاء — تقوم على انكار الخالق سبحانه وتعالى .

اما من ناحية جوهر نظرية التطور والارتقاء ، فانه بالرجوع الى قواعد هذه النظرية يتضح لكل ذى عقل منزه عن الهوى انه ليس للملحدين فى اى من هذه القواعد سند علمى أو برهان يعتمدون عليه لتأييد نزعتهم الالحادية الداعية الى انكار وجود الله » .

بل ان بعضا من هذه القواعد اذا ماامعن الانسان فيه النظر يجد انه لا يؤدى الى انكار الله تعالى وانما يمد الانسان بروافد من الايمان بعناية الله ورحمته وحكمته (١٩) .

موقف الاسلام من نظرية دارون :

يجب علينا كمسلمين مؤمنين بالله وبكتابه وسنة نبيه أن نقف موقف الحذر وأن نحكم بالكفر والخروج عن الدين على من قال واعتقد فى :

١ — ان الحياة الأولى التى اشار اليها دارون فى نظريته قد وجدت مصادفة وانها حدثت بغير قدرة الله وارادته ، وانما تولدت من المادة تولدا ذاتيا — وان كل أدوار التطور والتحول والارتقاء قد حدثت تلقائيا اى بغير قدرة الله وعلمه وارادته كما زعم الاخرون بهذه النظرية من الملحدين أمثا للامارك وارنست هيكل واوبارين .

---

(١٩) عباس العقاد « عقائد المفكرين » ص ٨٣ .

٢ — ان يسلم القـائل بهذه النظرية أن الانسـان الأول الذى كان يعقل ولا يدرك ولا يتكلم هو أبونا آدم عليه السلام؛ وهذا لم يرد فى كتاب دارون ولكن قال به من اقتنع بصحة هذه النظرية من علماء الغرب .

ان فى القول الأول انكارا لوجود الله سبحانه وتعالى : وفى القول الثانى تكذيبا صريحا للقرآن الكريم ، لأنه ينفى قصة آدم وحواء — الوارد ذكرها فى القرآن الـكريم — نفيا تاما يضاف الى هذا ان قصـة وجود انسان أول لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم « كما هى قواعد نظرية دارون » هى قصة مبنية على الفرض والتخمين والظن ومن السفه أن ينفى الانسان — خاصـة المسلم — قصة آدم وحواء المذكورة فى القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليصدق قصة ليس لها اى ظل من الحقيقة؛ قصة اساسها الفرض والحدس والتخمين لا القطع واليقين (٢٠) .

بطلان نظرية دارون :

تميز الانسـان — كما عرضنا من قبل — بخصائص لا توجد فى عالم الاحياء ، وهو الذى جعل « جوليان هكسلى » فى « الداروينية الحديثة » يتراجع عن الـكثير من الداروينية القديمة التى قررها دارون .

يقول هكسلى فى كتابه « الانسـان فى العالم الحـديث » بعنوان تفرد الانسان .

« لقد تأرجح رأى الانسـان كالخطار « البندول » فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين اعجابه الشديد او التليل بنفسـه : تفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جدا وحينا آخر هوة صغيرة جدا » .

وبظهور نظرية دارون بدأ الخطار « البندول » يتـأرجح عكسيا ؛ واعتبر الانسـان حيوانا مرة أخرى ؛ ووصل الخطار شيئا فشيئا الى اقصى مدى تأرجحه ، وظهر مابدا انه النتائج المنطقية لفروض دارون . فالانسان حيوان كغيره من الحيوانات ؛ ولذلك فان آراءه فى معنى الحياة الانسانية والمثل العليـا لاتستحق تقديرا أكثر من آراء الدودة الشريطية او بكتريا

---

(٢٠) باشميل « الاسلام ونظرية دارون » ص ١٥٤ .

الباشلى ، والبقـــاء هو المقيـــاس الوحيد للنجاح التطورى . ولذلك فكل الـــكائنات الحيـــة متساوية القيمة ، وليست فـــكرة التقـــدم الا فـــكرة انسانية ، ومن المسلم به أن الانسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات، ويـــكن قـــد تحل محله القطة او الفـــأر .

« ولم تصغر الهوة هنـــا بين الانسان والحيوان نتيجة المبالغة فى اعطاء الحيوان صـــفات الانسانية ، وانما نتيجـــة التقليل من الصـــفات الانسانية فى الانسان ، ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جـــديد سببه فى الغالب زيادة المعرفة ، واتساع نطاق التحليل العلمى .

« ان الخطار يتـــأرجح مرة ثانيـــة ، وتتســـع الهوة بين الانسان والحيوان مرة أخرى وبعد نظرية داروين لم يعد الانســـان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا ، ولـــكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جـــدا ، وفى حالات كثيرة لامثيل له . وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد — وما هذا المقال الا محاولة لعرض مركزه الحالى .

« واول خصائص الانسان الفذه واعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصورى . ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الانسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة ، ومن اهم نتـــائج تزايد التقاليد او اذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية مايقوم به الانسان من تحســين فيما لديه من عدد وآلات ، وان العدد والتقاليد لهى الخواص التى هيـــأت للانسان مركز الســيادة بين سائر الـــكائنات الحيـــة وهذه السيادة البيولوجيـــة — فى الوقت الحاضر — خاصية أخرى من خواص الانسان الفذة ، وهكذا يضع علم الحيـــاة « الانسان » فى مركز مماثل لمـــا انعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان » .

« والانسان لا مثيل له ايضا كنوع مسيطر ، اذا تقسمت كل الأنواع الأخرى المسيطرة الى المئات وآلاف كثيرة من الانواع المنفصلة ، وتجمعت فى اجنـــاس وفصـــائل عديدة ومجموعات أكبر ، أما الانسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام ، ولقد تم تنوع سلالات الانســـان فى حدود نوع واحـــد .

« واخيرا فان الانسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقيـة فى طريقة تطوره .

وللانسان خاصـة اخرى بيولوجيـة ، وهى تفرد تاريخ تطوره ، وانما خاصيةالانسان الجوهريةككائن حىمسيطر فهى « التفكير المعنوى»(٢١)

معنى ذلك أن نظرية التطور والارتقـاء التى قال بها دارون واخـذ بها الـكثيرون نظرية غير ثابتـة ثبوتا قاطعـا لا من النـاحية العلمية ولا من الناحية الحسية .

واذا كان دارون قد اعترف صراحة بأن الطريقة التى وجدت بهـا الحياة الاولى على وجه الارض لاتزال مجهولة حتى يومنا هذا . فان جهله بالطريقة التى تسلسلت بها الـكائنات الحية ، وتنوعت « كما يزعم » لا [illegible] عن جهله بالطريقة التى وجدت بها الحياة [illegible] على وجه الأرض، وكيف ومتى وجـدت .

فالمتبع لـا كتبه ونشره دارون عن نظرية التطور والارتقاء . يجد ان دارون لم يبن هذه النظرية على اسس علمية قاطعـة ثابتة ، لايمكن الرجوع عنها ، وانما بنـاها على افتراضـات وتقـديرات وتخمينـات تحتمل الخطأ والصواب .

فجميع الذين قالوا بنظرية التطور والارتقـاء وعلى راسـهم دارون يعترفون بأن هذه النظرية هى فرض علمى يعوزه الدليل الحسى ، بل ان جوهر بحوث علماء التطور والارتقاء جميعها تشير كلها الى ان اصول هذه النظرية وفروعها هى من باب الافتراض لا القطع والتقدير لا التـأكيد . واذا رجعنا الى مكان مذهب التطور من العلم لانجد من يحسبه علما قاطعا مفروغا منه من اصـوله وفروعه واكبر انصـاره لا يدعى له أكثر من انه صحيح فى بعض ملاحظاته ومقارناته (٢٢) .

---

(٢١) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٣٩—٤١ .
(٢٢) عباس العقاد « عقائد المفكرين » ص ١٢٠ .

ولعل من أخطر آثار فكر داروين ونظريته هو انهماك العالم الغربى بعد ذلك فى البحث العلمى من هذا المنطلق المادى ، محاولين الاستناد على ما جاء بهذه النظرية ، بل محاولين تفسيرها على النحو والاتجاه الذى يرضيهم فى ضوء المادية الحديثة .

واذا أغمضنا الطرف عما فى هذه النظرية من مكامن الضعف ، ومواطن النقص من الوجهة العلمية والفعلية ، ونظرنا الى الفتن التى قد اثارها هذا التخيل الباطل لاهلاك الانسانية والفتك بها بعد أن دخلت الفلسفة والاخلاق والعلوم العمرانية والاجتماعية . فلعل احدا لا ينكر ان نظرية داروين هذه ثمة النظريات التى ناصبت الانسان العداء ، وعملت للقضاء على انسانيته ، فقد حاولت أن تجعل الانسان يعتقد انه ليس الا حيوانا كسائر الحيوانات ، ومن نتائجها أن بنى آدم لايتعاملون فيما بينهم الا كما يتعامل الوحوش فى الغابة ، ومن تأثيرها أن الانسان بدلا من يستمد القوانين والمبادىء لحياته من المصادر السامية انما يبحث عنها فى حياة البهائم والوحوش . وهى التى عرضت على الانسان نظام الحياة كميدان للصراع والقتال ، وان من بيدى قوته وجدارته فى هذا الصراع يستحق الحياة . ومن نتائجها أن الأمم والشعوب جعلوا الدنيا ميدانا للتنازع والصراع ليس مقتضى الفطرة ولكن لأن القوى من حقه أن يبيد الضعيف (٢٣) .

نظرية فرويد وأثرها على الحضارة الإنسانية

اثرت نظرية فرويد فى الجنس تأثيرا خطيرا على الحياة الاجتماعية فى أوربا والشرق فقد أدت نظريته فى العقل الباطن ، وفى التفسير الجنسى لمختلف نواحى سلوك الانسان الى انقلابات خطيرة .

وترجع خطورة نظرية فرويد الى اصرار زج الجنس فى كل مجالات النشاط الحيوى للانسان ، وقيل فى هذا الصدد انه تاثر بدراسة الشواذ الذين كان يفحصهم ، ثم اخطأ فى تعميم احكامه المستقاة من حالات شاذه على بقية البشر الأسوياء .

---

(٢٣) ابو الأعلى المودودى « الاسلام فى مواجهة التحديات » ص٢٥.

ولكن النقد الأول الذى ينبغى أن يوجه الى فرويد فى أساس نظرته الى الانسان على أنه كائن أرضى بحت ، لا يرتفع بمشاعره . وعواطفه من عالم الأرض الا فى حالات الشذوذ (٢٤) .

ولعل نظريته هذه اتخذها من نظرية داروين السابقة الذكر التى تنظر الى الانسان على أنه مخلوق أرضى عالمه كله محصور فى هذا النطاق الضيق الغريب .

وتأثر فرويد بداروين من ناحية أخرى حين تابعه فى قوله ان غرائز الانسان هى الامتداد الطبيعى لغرائز الحيوانات السابقة فى سلم الصعود مضافا اليها قدر من التطور ، هو القدر الذى نتج من الظروف التى صادفت الجد الأعلى للانسان فأثرت فيه ، وانتجت منه الكائن البشرى على مر الايام . فالنظرة الحيوانية للانسان ان كان يصلح تطبيقها فى علم الحياة. من الخطأ أن تطبق كما هى فى علم النفس لانها تؤدى الى نتائج بعيدة عن الصواب .

ونظرية فرويد التى وجدت فى كتاب The Contribution to Sexual Theorg تؤدى الى أن الغريزة الجنسية هى التى تحرك الحياة كلها ، وهى نبع المشاعر البشرية جميعا بلا استثناء ، كما أنه يؤكد أن الحضارة كلها ناشئة من الغريزة الجنسية ، وعلى هذا النسق من التعسف والسخف يجرى فرويد فى تفسير السلوك الانسانى كله على ضوء الجنس ، وما يحتاج الانسان لكى يؤمن بقوة الدافع الجنسى وتعمقه أن يصل الى كل هذا التعسف (٢٥) .

والدين فى راى فرويد اختراع محض خلقته الرغبات البشرية المرفوضة لكى تجد جنة خيالية لحركة حرة من غير عائق ، وهم يقولون ان العقائد والاراء الدينية ليست شيئا أكثر من نظريات بدائية عن الطبيعة حاول البشر استخدامها فى تخليص الحقيقة من بشاعتها الأصلية واظهارها فى صورة اقرب الى هوى القلب مما تسمح به حقائق الحياة ، أما ان

---

(٢٤) محمد قطب « الانسان بين المادية والاسلام » ص ١٦ .
(٢٥) المرجع السابق ص ١٦٨ .

هنـــاك اديانا وصورا من الفن تهيىء لنـــا نوعا من الفـــرار المزرى من حقائق الحياة . فأمر لا أنكره وكل الذى أجادل فيه هـــو أن هذا الحكم لا يصـــدق على الأديان كلها ، فالعقائد والاراء الدينية لها من غير شـــك امارة ميتافيزيقية (٢٦) .

هذه هى الآراء المـــادية التى نادى بها فرويد . والتى أخذ بها الغرب واعتقدوا فيها ؛ وبذلك اخرجوا الانسان من الوضع الـــكريم الذى رسمه الاســـلام . ووضعته فيـــه حضارة الاسلام ، وجعلوه يتردى الى اسفل الدرك فى صورة بهيمية حيوانية ، فهو يجرى وراء شهواته بدون ضابط، وبدون نظام ففى هذه الحالة لانرى هنـــاك فرقا بين الانسان والحيوان، فالانسان الذى ميزه الله سبحانه وتعـــالى بالعقل ، ووضـــع له الأسس والقواعـــد يترك ذلك ليســـير وراء شـــهواته فيعيش الانســـان فى مجتمع الغابة .

ان هناك وهما صارخا يستولى علىأفئدة الناس فىالغرب ويتسلسل الى المستعبدين فى الشرق فيملأ مافى نفوسهم من تفاهـــة وفراغ ، انهم يظنون أن العظمة العلمية تستتبع حتما أن يكون الانسان كله قد ارتقى . فلابد اذا ان تكون الأخلاق والعادات والتقاليد الموجودة فى عصر الـــذرة افضل من مثيلاتها فى العصور السابقة ، التى لم يكن العلم فيها قد وصل الى هذه الأسرار ، وما دام النـــاس لا يؤمنـــون بالله ولا يتبعون قواعـــد الأخـــلاق ؛ ويستبيحون الفـــوضى الجنســـية . وينـــكرون القيم العليـــا ويعتبرونهـــا خرافـــة ، فـــلابد اذا أن يكون هـــذا كله هـــو الـــدمار الحقيقى للانسان والانسانية (٢٧) .

ذيوع نظرية هيجل :

من الضلالات الـــكبرى التى تدفقت مع الحضـــارة الغربيـــة على الانسانية ، وسببت للعالم الاسلامى مشكلات حضارية ضـــخمة ، ترجع بعضها الى الفلسفة التى وضعها هيجل للتاريخ ، واسس على مقدمتها كارل ماركس بنـــاء تفسيره المـــادى للتاريخ فيما بعد وهيجل هذا فيلسوف المانى ظهر فى أوربا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ،

---

(٢٦) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث » ص ٣٨٦ .
(٢٧) محمد قطب « المرجع السابق » ص ٢١٨ .

وكان يشغل أستاذا لكرسى الفلسفة فى جامعة هايدلبرج سنة ١٨١٦ ثم فى جامعة برلين سنة ١٨١٩ (٢٨) .

وخلاصة فلسفة هيجل للتاريخ « ان مايحصل فى الحضارة الانسانية من تطور وارتقاءانما يحصل بظهور الأضداد وتناطحها وتمازجها فيما بينها . وان كل دور من أدوار التاريخ فى حد ذاته وحدة أو كائن جسدى حى . وان مختلف نظريات الانسان من سياسية واقتصادية ومدنية وخلقية وعلمية وعقلية ودينية تكون على مستوى معين فى ذلك الدور ويكون بينها التناسب والتلاؤم والوحدة المتماسكة ، كأنها جوانب مختلفة لهذا الكائن الحى ، أو الوحدة الزمنية تسرى فيها روح الدور بكامله .

وان المبادىء والنظريات والأفكار الانسانية التى تقوم بالتوجيه فى هذا الدور عندما تصل بالحضارة الانسانية ومدنيتها الى قمة الطاقة والصلاحية ينبثق من حضن هذا الدور نفسه عدوه الذى يترعرع فيه ويبلغ اشده أى أن طائفة أخرى من الأفكار الحديثة والميول الحديثة والنظريات الحديثة والمبادىء الحديثة لا تتولد الا من المقتضى الطبيعى لهذا الدور الآخذ فى الزوال نفسه ثم تشرع فى محاربة الأفكار البالية القديمة » .

يستمر الصراع على قدم وساق بين القديم والجديد الى مدة من الزمان ، وفى النهاية يحصل التمازج بينهما بعد الأخذ والرد . ويخرج الى حيز الوجود حضارة عصرية جديدةخليطة من عناصر قديمة وأخرى جديدة . وهكذا يفاتح الدنيا دور جديد من أدوار التاريخ .

ثم عندما ترتقى روح هذا الدور الجديد فى اعلى مدارجها على غرار الدور الذىسبق يظهر منحضنها أيضا عدوها ، وبنشب الصراع العقائدى الذى يتمخض عنه أيضا خليط جديد مكون من عناصر من هذا وعناصر من ذاك ، وبعد الأخذ والرد يصير روحا لدور جديد للحضارة والمدنية (٢٩) .

---

(٣٨) عبد الفتاح الديدى « فلسفة هيجل » ص ٦٤ .
(٢٩) ابو الأعلى المودودى « الاسلام فى مواجهة التحديات » ص ٢٦ — ٢٧

وهذه العملية للارتقاء هى التى يعبر عنها هيجل حسب اصطلاحه بالعملية الجدلية فكأن مجال التاريخ . وحلبة الدهر تجرى فيها — فى نظره — مجادلة منطقية متسلسلة وبموجبها يقوم أولا الدعوة ثم يبرز ضدها جوابها ، وبعد أن يطول بينهما الصراع فان العقل الكلى او الروح العالمية تعقد بينهما الصلح اى تقبل شيئا من هذا وجانبا من ذلك وتجعل منهما مزيجا . وهذا المزيج الحضارى عندما يتقدم قليلا يتحول الى دعوى ثم يواجه هذه الدعوة جوابها ، ثم ينعقد بينهما الصلح بعد نشوب النزاع بينهما مدة ، ويأتى الى حيز الوجود مزيج جديد وهلم جرا ..

فالعملية الجدلية بموجب نظرية هيجل عملية اجتماعية كلية .وبعبارة أخرى ان الحضارة الانسانية بكل شعبها وفروعها فى كل عصر من عصور التاريخ بمثابة جسد حى أو كائن حى ، وليس الأفراد او الطوائف الا بمثابة أعضاء او أجزاء لهذا الجسد فعلى هذا لايمكن لفرد من الأفراد أو لطائفة من الطوائف أن تتحرر من طبيعة عصرها الجماعية أو من الروح العامة لمدنية عصرها وحضارته ؛ فكل انسان مهما كان كبيرا ، ومن المع الشخصيات التاريخية وابرزها ، ليس فى هذه اللعبة الجدلية أو الصراع الكلى الداخلى الا بمثابة قطعة من قطع البيدق فى لعبة الشطرنج (٣٠) .

والواقع ان خطورة هذه الفلسفة الهيجلية على المدنية الحديثة وعلى الانسانية ترجع الى انها قد جعلت وجهات نظر اهل العلم فى العصر الحاضر عن الدين والأخلاق والحضارة والاجتماع خاطئة من حيث الأساس والمبدأ ، والذين اقتنعوا بهذه الفلسفة سيطر عليهم امران اثنان .

١ — ان الحضارة بجملتها فى كل عصر من العصور التاريخية وحدة، وان كل مايوجد فى عصر من العصور من الأخلاق والقوانين والدين والعلم والفلسفة والعلاقات الدولية انما هو فى حقيقة الأمر مظاهر منوعةللطبيعة الاجتماعية أو الروح العالمية لذلك الزمان .

٢ — ان اى مدنية من مدنيات الانسان عندما تتضح وتتبلور وتبلغ ذروة كمالها فان طائفة جديدة من الميول والأفكار والنظريات والتصورات تبرز الى الوجود من بطن تلك المدنية نفسها وتشرع فى محاربة الأفكار

---

(٣٠) أبو الأعلى المودودى ؛ المرجع السابق . ص ٢٨ .

والنظريات القديمة التى تخرج الى المسرح مدنية جديدة يبقى فيها كل مافى المدنية القديمة من العناصر الصالحة ، وتحل محل العناصر غير الصالحة عناصر غالبه من الأفكار والميول والنظريات الجديدة .

ووجه الخطورة على الاجيال الاسلامية من انتشار هذه الفلسفة وغيرها يرجع الى :

١ — ان هؤلاء لا يعترفون بالحضارات القديمة ، ولا يعترفون بأدوار الأنبياء والرسل .

٢ — تصورهم أن كل مايوجد فى عصر خاص من عصور التاريخ من الأفكار والتصورات الدينية والخلقية والقانونية ولد من النظام الاقتصادى الرائج فى ذلك العصر .

ومعنى ذلك أنه كلما تغير أسلوب انتاج وتوزيع أسباب المعيشة للانسان فلابد أن يصاحبه التغير الشامل فى الدين والأخلاق والقانون . وهذا لايتفق مع ما جاءت به الشرائع السماوية .

٣ — سيطرة الفكرة التى نادى بها هيجل على عقول الشباب وهى « أن الانسان فى مسرح التاريخ ليس الا ممثلا لا شعور له ، ولا اختيار ولا ارادة له ، وان الله هو الذى يطرح الأفكار المتعارضة على بساط المسرح بوساطة الناس ويجعلهم يقتتلون أولا ، ثم يعقد بينهم الصلح ، ويحدث فيهم صورا جديدة للفكر والخيال ، فهذا ايضا قياس فاسد لا اساس له من الصحة ، ولا تؤيده حقيقة علمية .

معنى ذلك أنهم نفوا عن الانسان الارادة والعقل التى خص الله بها الانسان عن بقية مخلوقاته ، ورفعه عن مرتبة الحيوان ، وانه دعا الى أعماله دائما للتفكر والتدبر لمعرفة عظمة الله عز وجل وقدرته ونعمه على عباده وللتمييز بين الخير والشر » (٣١) ولو أن هيجل قد درس القرآن الكريم ، لما لقى فى فهم حقيقة الانسان وادراك القانون الأساسى لارتقاء المدنية الانسانية من العثرات ما قد لقى باللجوء الى الظن والتمسك

---

(٣١) صلاح الدين المنجد « الاسلام والعقل » ص ٥٩ .

بأذيال التخمين ، لأن ماقد يتقدم به القرآن من علم الانسان وفلسفة التاريخ يحل بصورة صحيحة ، وبأسلوب مقنع جميع تلك المسائل التى قد ارتبك فيها هيجل وغيره من فلاسفة الغرب (٣٢) .

فلابد على الشباب المسلم ، ألا ينجرف وراء هذه الفلسفة الجاهلة التى تخرج الانسان عن دائرة انسانيته وتجعله عبدا لحيوانيته ، وما بالنا لو وجدنا حضارتنا قد امتزجت بها أفكار هدامة مثل هذه ، وجرى وراءها كثيرون ممن لادين لهم ، فسنرى ان الفساد والانحلال والجرائم الخلقية ستزيد وتنتشر نتيجة لانتشار الدعوة الى سيطرة بهيمية الانسان على ارادته وانسانيته .

ان الدين الاسلامى وحضارته يرفضان هذه الأفكار لأن الله سبحانه وتعالى وهب الانسان مواهب مختلفة من العقل والوعى وقوة اكتساب العلم والراى وجعل له غرائزه ليستخدمها وقتما يشاء ، وعليه أن يطوعها لارادته لا يجعلها تسيطر عليه ، لأن الله اعطاه طريقين طريق الخير والشر « وهديناه النجدين » ، وطلب منه أن يميز بينهما ، فصور له سبل كل طريق من هذه ، وعاقبة السير فيه وله أن يختار .

الوجودية وأثرها على الحضارة الإسلامية :

الفلسفة الوجودية هى فلسفة الذات الانسانية المتفردة دون ارتباط بغيرها من الذوات ، وهى فى واقع الأمر ليست فلسفة ، ولكننا لانجد لها اسما فى الواقع يمكن أن يعبر تماما عنها فنستعير لها كلمة فلسفة .

ومن اهم من نادى بالوجودية فى الغرب كير كجارد ، وهيدجر ، وسارتر .

والوجوديون لا يقيمون وزنا للقيم التى تربط الأفراد بالمجتمع ، ولا يحفلون بما يوحى به العقل النظام مالم يكن ذلك فقط متفقا مع أهوائهم

---

(٣٢) المودودى ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

مصـــادفة ، انما العبرة عند الوجودى الأصـــيل بالتجربة الشـــخصية والمعاناة الذتيـــة .

ومن هنا تنشأ فـــكرة اللادينية . اذ الوجودى لايعـــترف بشىء غير مرئى وغير محسوس ، غير واضح فى نفسـه فالقواعد والتقاليـــد والنظم والأديان هى أفـــكار مثالية وتشريعات وتوجيهات لم يضعها الوجودى . ولم يساهم فى وضعها فهو لايعترف بها (٣٣) .

والوجودى لا يلتفت الى الوراء لينظر ماخلفه السابقون ، ولا يربط نفسه بأفكارهم والدين عندهم خرافة لانه نسيج من الاتجاهات العقلية او الغيبية يجب أن تؤمن بها ولو لم تحسها فى نفسك ، وليس معنى هـــذا أن الوجوديةتسقط عالم الفكر من حسابهاوانما لها فىذلك منطقها الخاص. فبينما نجد الفلاسفة يجعلون الفكرة سابقة على الوجـــود اذا بالوجودى يجعل ذاته قائمة أولا ومنها بعد ذلك تنبثق الاتجاهات الفكرية وقد تسربت الفكرة الوجودية الى كثير من النفوس التى عانت بعد الحرب العالميـــة فراغا روحيا هائلا ونهض الذين قضى عليهم أن يستأنفوا الحياة من تحت أنقاض عالمهم وهم يمسحون عن وجودهم غبار الانهيار الذى انهارت معـــه أعصابهم . فأصيبت القيم المعنوية .

وكان لابد لـــكثير من الناس أن يجد له راحة يصنعها بنفسه يستمد منها فلسفته الجديدة ، فبرزت الوجودية من مخبئها القـــديم . ووجـــدت مرعاها الخصب فى أوساط الشباب .

وقد ساعد على ذلك عجز رجال الدين الذين لم يتمكنوا من الوقوف أمام هذه الأفكار وقد بدأت تنتشر هذه الأفكار الى الأوساط الاسلامية فى صور أدبية فى قصص ومسرحيات وروايات عالمية من اهمها ماكتبه سارتر والبير كامو . فانتشرت هـــذه الأفـــكار الشاذة التى تدعو الى الاباحيـــة فى كل شىء .

وهى تدعو الى الحرية التى ماهى الا عملية عزل مستمر وانفصال

---

(٣٣) محمد لبيب البوهى « الوجودية والاسلام » ص ١٨ .

من المجتمع الانسانى وما دامت الوجودية ترى أن الانسان مقضى عيه حتما بالفشل والخسران وأن الوجود نفسه باطل الأباطيل ، فما معنى هـذه الحرية التى تنادى بها الا أن تكون دعوة الى ممارسة الانحطاط باعتبـاره الصفة الملازمة للوجود (٣٤) .

وحينما نسلط بعض اضواء الاسلام على الوجودية انما نعنى بذلك العقيدة ، فالاسلام رمز للعقائد السماوية ، وبينما يعمل الوجودى على تنتيت المجتمع ونسف تجمعاته ليذهب كل فرد فى طريقه نرى أن العقيدة الدينية تعمل على تجميع القوى الفردية ، فالوجودية تدعو الى الفردية والدين الاسلامى يدعو الى الجماعية والتضحية فى سبيل الغير والتعاون وانكار الذات .

فالوجودى عـدو اله ، والذى يعـادى الله ، انما يعـادى كل شىء حتى نفسه .

الماركسية الشيوعية كمشكلة من مشكلات الحضارة :

اكتسب الاعلام الشيوعى منـذ السـنوات الأولى للثورة الحمراء قدرات لم تعرف من قبل ، اذ اصبح قوة مؤثرة فى صنع الفكر وتوجيـه الحركات الثقافية فى انحاء العالم ، ويكفى للتدليل على حجم هذا الاعلام ماورد فى احصاءات الأمم المتحدة أخيرا من أن الاتحـاد السوفيتى يمثل المركز الأول فى انتاج الـكتب اذ يصدر يوميا ٣٫٧٠٠٫٠٠٠ كتـاب اى مايوازى ربع انتاج العالم ، ويبلغ ماتنتجه المطابع السوفيتية فى الدقيقة الواحدة ٢٠٥٠٠ نسخة ، ولعل فى هذه الأرقام مايكفى بل مايصرح بالمراد . ونجاح الاتحاد السوفيتى فى ادراك هذا المستوى العالمى من الانتاج يعود انى ماتقرر خلال الأيام الأولى لقيام الثورة ، فقد اصـدرت الحكومة فى

---

(٣٤) محمد لبيب البوهى « الوجودية والاسلام » ص ١٠٤ .

١٩١٧/١٢/٢٩ م مرسوما حددت فيه مبادىء ونظم نشر الكتاب (٣٥) .

ويعتقد الشيوعيون ان الصحافة والكتب من اهم وسائل الثورة الثقافية أو بتعبير آخر من أهم وسائل الانقلاب الفكرى الذى ينشدونه ، ولا شك أن الكتب والرسائل المؤلفة بذكاء من امضى الأسلحة فى القضاء على الأفكار والنظرات المعارضة ، وبث الآراء والتصورات الماركسية .

وتقول الأرقام : ان عدد الجرائد فى الاتحاد السوفيتى ٧٩٣٧ ، ويبلغ مجموع النسخ من كل طبعة ١٢٠ مليون ، ويصدر منها فى العام الواحد ٢٦ مليار ، ٦٥٥ مليون نسخة ، اما عدد المجلات فقد بلغ ٤٧٠٤ يصدر منها فى كل طبعة ١٣٢ مليون نسخة ، وبديهى ان هذا الانتاج الضخم يتوزع على روسيا وغيرها من المؤسسات الشيوعية فى أرجاء العالم ، وهو يطبع باللغات المحلية واللهجات الوطنية (٣٦) .

ولابد لنا أن نعطى فكرة عن ماهية الشيوعية الماركسية ، وكيف استطاعت أن تنشر فكرها فى العالم حتى افقدته مثله ودينه وتاريخه بل آدميته .

قامت فلسفة كارل ماركس — وهو يهودى روسى — على أساس الفكر المادى التاريخى وقد أسس عليها حتمياته فى التغير الاجتماعى ، كذلك التبشير بالحكومة العمالية العالمية، وديكتاتورية الطبقة العاملة، وبالمجتمع الانسانى عديم الطبقات .

وتعود فلسفته الى الفكر المادى التاريخى ، لأنها تستخدم تاريخ المجتمع البشرى — كما يدعى — فى علاقة هذا المجتمع بالاعتقادية «المادة» وتقنن تبعا لذلك قوانين اجتماعية يخضع لها المجتمع فى مستقبله وتطوره.

---

(٣٥) محمد الغزالى « قذائف الحق » ص ١٣٩ ، نقلا عن ابراهيم دسوقى اباظة « رسالة عن المخطط الشيوعى » .

(٣٦) المرجع السابق .

ويعلق زعيم من زعماء الشـيوعية على ذلك بقوله « ان على حزب طبقة العمال الا يقيم اعماله على مبادىء العقل البشرى المجردة ، ولـكن بقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها القوى الفاصلة للارتقـاء الاجتماعى » (٣٧) .

ويقول انجلز من زعماء الماركسية « ان العالم المادى ندركه بحواسنا، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة . وليست المـادة من انتاج العقل : بل ان العقل ماهو الا اسمى انتاج للمادة . ويذهب الى أن العالم بطبيعته مادى والظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على اشكال مختلفة من المـادة فى تحرك وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة الى الروح الشاملة ، فهناك ايمان بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بهـا دارون ، ومن ثم فهنـاك انـكار لوجود الله » (٣٨) . .

ومن هذه النظريات نرى أن الاقتصاد أو المادة هو المحرك للمجتمع فى تغييره وللافراد فى تطورهم الفعلى ، وفى التأثير فى مجرى حياتهم، كما تأخذ من احداث التاريخ فى ماضيه دليلا على هذا الربط بين التغيير الاجتماعى والوضع الاقتصادى ومصدرا ايضا للتنبؤ ، أو الحتمية كمـا يذكر ماركس — بما سيكون عليه المجتمع الانسانى فى غده تبعـا للتغير الاقتصـــادى (٣٩) .

فطالما كان هناك فى الماضى مجتمع يملك مصادر الثروة فيه شخص واحد هو المالك المطلق ثم تحوله الى ملاك عديدين هم أصحاب الاقطاع فى

---

(٣٧) فؤاد شبل « الدستور السوفيتى » ص ٢٨ .

(٣٨) احمد جمال الدين « نقد النظرية الماركسية » ص ٣٣ .

(٣٩) محمد البهى « تهـافت الفكر المـادى التـاريخى بين النظرية والتطبيق » ص ١٣ .

الاراضى الزراعيـــة الذين يكونون فى مجتمع الاقطـــاع ، ثم نحول مجتمع هؤلاء الى مجتمع رؤوس الأموال فى الصناعة ، فـــلابد ان يتحول مجتمع اصحاب رؤوس الأموال الى مجتمع آخر يغايره تماما ، وهو مجتمع عمال الصناعات .

ان السبب فى تحول المجتمع هو مبدأ النقيض ، اى وجود تنـــاقض بين الشىء ونقيضه وهذا مايدعوا حتما الى انتقال الشىء الى نقيضه .

فمجتمع الملك المطلق كان ومعه نقيضه ، وهو الاخرون الذين لايملكون شيئا مما يملك ، فتحول الى مجتمع هؤلاء الاخرين المعدمين بسبب العـــداء بين النقيضين ، والصراع بين الطرفين (٤٠) .

وقد عملت الماركسية على تحقيق هدفها بالوسائل التالية :

١ ــ الملكية الجماعية لوسائل الانتـــاج الثلاث : الأرض ــ راس المال ــ العمل وتحريم الملكية الخاصة لهذه الوسائل .

٢ ــ محاربة الفردية بجميع خصائصها ، وعدم الاعتراف بهـــا فى النظام الجماعى .

٣ ــ تبنى الصراع بين الطبقـــات كوســـيلة للتطبيق الاشتراكى ، والمجاهرة بأنه لم يكن جميع الناس اخوة فى اى حال من الأحوال فى نظر ماركس ، بل كانوا أعداء طبيعيين يتصارعون ، ولذلك كان شعار ماركس فى البيـــان الشيوعي « يا عمال العالم اتحدوا » وتجنب عن تعمـــد أن يقول يابنى الانسان اتحدوا .

٤ ــ العمل على تغيير العالم بجميع نظمه ، كما صرح بذلك ماركس لاتفسيره على ماهو قائم عليه من الخصـــائص الفردية والدولة السياسية ولا يكون ذلك التغيير عندهم ، الا بتـــدمير النظـــام القائم بجميع لوازمه

---

(٤٠) المرجع السابق . ص ١٤ .

وخصائصه ، من دين وقانون واخلاق ، وعدالة ، وعدالة بين الطبقات ، باعتبارها كلها عندهم من خصائص هذا النظام الرجعى والبورجوازى ، وان مراعاة التعاليم الاخلاقية تضعف من حدة الصراع بين الطبقات ، كما اكد على ذلك ماركس نفسه .

٥ — ان ذلك التدمير لايكون الا بعمل ثورى وذلك لقسم الامة ، والاعتماد على الثوريين منها ، واحلال روح الثورة والصراع مكان روح الحب والاخاء .

٦ — تصفية الدولة بعد مرحلة حكم ديكتاتورى يتسلمه طليعة طبقة البروليتاريا وبعد أن لا يبقى فى المجتمع غير طبقة البروليتاريا ليحيا الناس عندئذ فى مجتمعات خيالية غير مركزية تعمل وتنتج ، من غير دولة ولا قيادة سياسية ، ولا قانون ولا نظام الا مايعارف عليه المقيمون فيما بينهم من سلوك طوعى لا اكراه فيه ، ولا سلطة فوقه لتحميه (٤١) .

وزاد فى خطورة الوضع ذلك الصراع الرهيب الذى قام حينئذ فى اوربا خاصة فى القرن التاسع عشر مابين الكنيسة والاشتراكية ، فقد انهزمت الكنيسة أمام الاشتراكية وكانت الاشتراكية تهدف الى القضاء على الكنيسة بوصفها دينا ، والدين عندهم منخصائص الرجعية والبورجوازية ، فتحملت الكنيسة عندئذ وحدها تلك الصدمة ، ولم تقو على ردها ، وكانت الكنيسة كدين توجه سلوك الأمة ، والحكم ، فلما انهزمت كان انهزامها انهزاما لكل دين (٤٢) .

وبذلك نرى أن الشيوعيين قد نجحوا فى تنفيذ حركتهم على نطاق دولتهم ، وفرضوا نظرية كارل ماركس التى بينا فحواها ، وبذلك نراهم قد عملوا على دراسة الحياة الاجتماعية ففسروا تطور المجتمع وارجعوا

---

(٤١) محمد معروف الدواليبى « الاسلام امام الراسمالية والماركسية » ص ١٢ — ١٤ .

(٤٢) المرجع السابق ص ١٧ .

حوادثه الى اسباب مادية بحته بحيث لايتركون شيئا منها للمصادفة وللارادة الالهية او للاسباب الخارجة عن الطبيعة ومن ثم نراهم قد ارجعوا كل شيء حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والثقافة والقانون والسياسة الى انعكاسات للاحوال الاقتصادية ، والمصالح الطبيعية ؛ وأمدوا جذورها الى الظروف المادية للحياة ، وتاريخ ارتقاء المجتمع عندهم قبل كل شيء تاريخ ارتقاء الانتاج ، واهتموا بتفسير الاحداث التاريخية تفسيرا ماديا ينكر الدين (٤٣) .

اثر الحركة الشيوعية الماركسية على الحضارة والدين الاسلامى :

لو ان الثورة الروسية لم تتم فى اعقاب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٧ م ، لما حفل الفكر المعاصر فى القرن العشرين بالماركسيه ،ولطغت عليها اتجاهات المثالية والأخلاق الدينية فى هذا الفكر ، ولكن حسن حظ الماركسية انها وجدت فى الانقلاب الروسى قوة تؤازرها ، وتحشد لنشرها اقوى واحدث اساليب النشر والدعاية .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وحصل الاتحاد السوفيتى فيها على نصر عسكرى وسياسى اضاف قوة جديدة الى القوة السابقة التى آزرت الماركسية ، ثم جاء ما وقعت فيه الدبلوماسية الغربية من مساندة الروس فى هذه الحرب للقضاء على ماسمى وتتذاك بالديكتاتورية العسكرية فى برلين وروما ، وذلك تحت ضغط اليهودية العالمية والكنيسة الكاثوليكية، فضاعف كذلك من قوة المؤازرة للماركسية فى تثبيت دعائمها ونشرها (٤٤)

وقد بدأ السوفيت فى الدعاية للشيوعية بطريقة التهويل والاستخفاف وجذب عقول الشباب محاولين ابعادهم عن الدين والتهوين منه فى نفوسهم الى جانب جذبهم بالأموال ، وبطرق الاقناع العجيبة تحت مؤثرات مختلفة ، واستغلال الأوضاع الاقتصادية والمطبوعات بطرق جذابة تجذب

---

(٤٣) احمد جمال « نقد النظرية الماركسية » ص ٣٦—٣٧ .

(٤٤) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار » ص ٣٢٨ .

الشباب ، ومحاولة عقد الندوات ، وبث السموم الفكرية ميما بينهم . محاولين اقناعهم ان هذه الدعوة ما هى الا دعوة اصلاح ، ومحاولةلتذويب الفوارق بين الطبقات للقضاء على الراسمالية .

والدعاية الشيوعية تركز قوتها فى ثلاث نقاط :

١ — معارضة ثبات القيم الروحية والأخلاقية والعقلية .

٢ — معارضة وضعية المراة فى المجتمع غير الشيوعى .

٣ — الاستخفاف بأصحاب المزارع ، واصحاب رؤوس الأموال وتمجيد أصحاب العمل البدنى (٤٥) .

ونجد هنا فى الشرق الاسلامى ان توهين امر الدين ، ورجال الدين هو الهدف الأول للدعاية الشيوعية ، لأن الاسلام فى هذا الشرق يعتبر مصدر انواع القيم الثلاث الثابتة الروحية ، العقلية ، والدينية ، ثم هو مع ذلك مصدر تحديد وضعية المراة فى المجتمع الاسلامى كذلك ، واخيرا هو مصدر حق الملكية الفردية سواء للاراضى الزراعية او للصناعات .

اضف الى ذلك انهم يعملون على تحرير المراة بالصورة التى لايرضى عنها الاسلام ، ومحاولة بث الدعاية للعمل على القضاء على ماشرعه الاسلام فى حقها ، خاصة ، فى موضوع الطلاق وتعدد الزوجات ،وذلك حتى يخلقوا الفوضى فى المجتمعات الاسلامية .

وهناك ظاهرة ثالثة فى نشرات الدعاية للشيوعية فى الادبالمعاصر . هى ظاهرة تمجد العمل اليدوى، وابراز تفوقه علىالعمل الفكرى، وبالتالى تفضيل الطبقة العاملة على الطبقات الأخرى ، وهذه الظاهرة اثر للفكر الماركسى الذى يرمى الى تحويل الجماعة الى دولة ذات طبقة واحدة ، هى طبقة العمال ، كما انها مادة للدعاية الشيوعية لكسب الاتباع فى أوسع دائرة ممكنة (٤٦) .

---

(٤٥) محمد البهى ، المرجع السابق : ص ٢٣٧ .

(٤٦) المرجع السابق . ص ٣٤٩ .

واستطاعت الشيوعية عن هذه الطرق ، وهذه الدعاية أن تتسلل الى البلاد الاسلامية ، وان تجد لها انصارا في بعض طبقات المثقفين الذين اغرتهم الدعاية الأجنبية ، وفي بعض العقول التي لم عمرها الله بالدين ، حاولوا اقناعهم بهذا المذهب الهدام .

وقد حاول الشيوعيون أن ينكروا الدين والفلسفة المثالية بين الفئات التي آمنت بهم ، واصبحت التضحية وانكار الذات ، والصبر على الشدائد ، والرضا بالقدر عند العجز عن الدفع ، واصبحت الأخوة في الوطن ، والانسانية ، معاني جوفاء لا مدلول لها ، واصبحت الدعوة الى الله والتنمية الذاتية ، كمصدر لاشعاع التوجيه للبشرية عامة دعوة الى التخدير .

ويؤكد هذا الموقف من الدين الاسلامي ، ما قاله احد الزعماء السوفيت ويدعى مولوتوف « لن تنتشر الشيوعية في الشرق الا اذا ابعدنا اهله عن تلك الحجارة التي يعبدونها في الحجاز وفلسطين » (٤٧) .

لقد عادى زعماء الشيوعية فكرة الجامعة الاسلامية لقوميات المسلمين هنالك ، ولم يأت عام ١٩٣٣ م حتى ارغمتهم الحكومة على اتخاذ الحروف اللاتينية بدل العربية ، وبذلك تقطعوا صلتهم بالعالم الاسلامي . وفي عام ١٩٣٨ م أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية (٤٨) .

شجعت الماركسية الشيوعية الحيوانيـة بين صنوف الشباب في جميع جوانبها . شجعتها على امتلاء المعدة ، واشباع الرغبة الجنسية في اية صورة ، واحتقار العقل ، وازدراء الطبقة المثقفة ، واغرت الدولة الطبقة العاملة ، بأن الدولة دولتهم ، حتى تضمن ولاء الكثرة العددية في الجماعة الاسلامية لنظامها (٤٩) .

وقد عملت الشيوعية على ازالة الملكية الفردية أيا كانت صغيرة أو كبيرة ، وتطبيق نظام الأجور من كل حسب حاجته ، مع القضاء على التجارة الداخلة وقيام نظام البطاقات (٥٠) .

---

(٤٧) محمد النواوي « بين الشيوعية والاسلام » ص ٣٠ .
(٤٨) المرجع السابق ، نقلا عن « الشيوعية في الميزان » ص ٥١ـ٥٣
(٤٩) محمد البهي ، المرجع السابق ص ٣٥٥
(٥٠) الشيوعية في الميزان ، ص ٥٢ ــ ٥٣

موقف الاســـلام من الشيوعية الماركسية :

١ ــ الاسلام يتفق مع الطبيعة الانسانية وضرورات الحياة في اباحة الملكية الشخصية ، وهذا ما انكرته الشيوعية النظرية كما وضعها كارل ماركس وانجلز ، فالاسلام يسمح لكل انسان أن يتخذ من الوســـائل والسبل المشروعة لاكتساب المال وتنميته ، مايحبه ويستطيعه ، ويتملك بهذه السبل ما يشاء ، والاسلام من حيث أنه دين ترفض عقيدته ونظامه الشيوعية رفضا باتا لأنها فلسفة مادية الـكيان ، وفكرة ملحدة المعتقدة .

فالاسلام يعترف بمبدأ الملكية ، ويضعه تحت الوصاية الدقيقـــة من تعاليمه المقررة في قواعد العامة ، ونصوصه الخاصة ، فهو يطلقـــه ان كانت المصلحة العامة تقضي باطلاقه ، ويقيده ان كان الأمر على العكس ، وفي كلتا الحالتين ، فالاسلام واضح في رفضه لـكل تلك باطل ، وهو يسأل كل مالك من أين لك هذا ليعرف أهو حق فيبقيه له أم باطل فيسلبه اياه (٥١) قال تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم ، وانتم تعلمون » (٥٢) .

والعجيب أن الشيوعية قد تراجعت اخيرا في مرحلتها التطبيقية ، واعترفت بالملكية الشخصية ، ولو في حدود ضيقة تأكيدا لبطلان زعمهـــا النظرى . فقد جاء في الدستور السوفيتي مايلي :

مادة ٧ : لـــكل عائلة من عوائل المزرعة التعاونية بالاضـــافة الى دخلها الاساسي الذى يأتيها من اقتصـــاد المزرعة التعاونيـــة المشترك ، قطعة من الأرض خاصة بها ، وملحقة بمحل السكن ، ولهذا في الأرض اقتصاد اضافي ، ومنزل للسكنى ، وماشية منتجة وطيور وادوات زراعية بسيطة للملكية خاصـــة (٥٣) .

---

(٥١) محمـــد الغـــزالي « الاســـلام المفترى عليه بين الشـــيوعية والراسمالية » ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .

(٥٢) ســـورة البقرة آية ١٨٨ .

(٥٣) مصطفى السباعي « اشتراكية الاســـلام » ص ١٦٥ نقلا عن النسخة العربية من الدستور السوفيتي المطبوعة في موسكو سنة ١٩٤٣ ، والترجمة عن النسخة الروسية المطبوعة في موسكو سنة ١٩٤١ م .

٢ — أن الاسلام فى اباحته للملكية الشخصية ، انما يسمح للمواهب الانسانية ان تنطلق فى ميدان التنافس والبنـاء الذى هـو بلا ريب أكبر سبب من أسباب تطور الحضارة ، ونمو الانتاج . والشيوعيـة تزعم أن هذا التنافس هو الذى يجر البلاء على المجتمع . اذ يؤدى الى اسـتغلال أرباب الأموال للجماهير أسوأ استغلال ، وهذا انما يصدق على التنافس الراسمالى الذى راته الشيوعية النظرية قائما فى أوربا ، ولكنه لايصدق ابدا على التنافس الاشتراكى الاسلامى لأنه مقيد أولا بمبادىء التملك . ومقيد ثانيا باشراف الدولة وتوجيهها ويقظتها . ومقيـد بالمثل الأخلاقيـة العليا التى هى جزء من عقيدة الاسـلام . وبيقظة الضمير الدينى الذى تعتمد اشتراكية الاسلام عليه أكبر اعتماد . وفى واقع رأس المال الاسلامى فى الدولة الاسلامية الأولى وما بعدها أكبر دليل على هذا .

٣ — الاسلام يعمل على تعاون فئات المجتمع المختلفه لا الى حرب الطبقات كما تفعل الشيوعية . فحين يكفل الاسلام الحياة الكريمة للضعفاء والعـاجزين والفقراء وغيرهم . ويمنع استغلال الاغنياء وتحكمهم . ويفجر ينابيع الخير فى نفوس الناس كافة . اما الشيوعية فأساس دعوتها اثارة الفئات بعضها على بعض وملء قلوب بعضها بالحقد على بعض (٥٤) .

٤ — الاسلام يعتمد على الاخـلاق الـكريمة ، ويجعلهـا جزءا من العقيدة ، ويحمل الانسان على أن يتحلى بها . والشيوعية لاتؤمن بالقيم الأخلاقية العاطفية كالحب والرحمة . والاجتماعية كالصـدق والوفاء ولا تنظر اليها الا فى اطار المصلحة الشيوعية . والشـيوعى يستخدم المثل العليا التى يؤمن بها الناس فى الدعاية لمبـادئه للتضـليل والتغرير . والشيوعى يدعو الى الحرية فى مجتمع غير شيوعى ليتخذ منها وسـيلة لاثارة العمال والطلاب والجماهير ضد الحكم القائم .

٥ — الاسلام يعتبر هو صرح بنـاء الحضارات منذ عرف الانسان، ذلك هو الايمان بالله خالق الحياة رب العـالمين ، العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة والعقيدة الاسلامية توقظ الضمير ، وتهذب النفس وتكبح من جماح أهوائها وشهواتها أو تجعل الانسان دائما أمام ضميره ، وأمام ربه

(٥٤) مصطفى السباعى ، المرجع السابق ص ١٦٦ .

فى جميع علاقاته، ويوم تتخلى الأمة عن هذه العقيدة — كما تهدف الشيوعية — فقد سمحت للشر أن يستفحل فى صفوفها (٥٥) .

٦ — الاسلام يعلن ثقته بالانسان وبغرائز الخير فيه ، وانه الى الخير أقرب منه الى الشر « كل مولود يولد على الفطره » (٥٦) وفى قصة خلق آدم ، كما رويت فى القرآن الكريم اشارة واضحة الى هذا .

قال تعالى « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (٥٧) .

فالانسان — كما تدل عليه هذه القصة — خلق ليكون خليفة عن الله فى الأرض يعمرها ويملؤها بالمعرفة والخير ، ولم يمنعه مافيه من غرائز الشر أن يستحق هذه الخلافة ، ومن أن يسخر الله له جميع القوى ، ويخضع له جميع المخلوقات .

ولهذا يعمل الاسلام على أن يقوى فى الانسان دينه أو يهذب نفسه، ثم هو يكله بعد ذلك الى ضميره فى تنفيذ مبادئه ، أكثر مما يجبره على ذلك بقوة الدولة ورهبة السلطان .

ولكن الشيوعية لاتثق بالانسان — لأن تاريخه كله من أوله الى آخره تسلط وقتال من أجل الأكل والمال؛ انها لاتثق بدينه لأنه يؤمن بخرافة، ولا تثق بضميره لأن القيم التى يؤمن بها الضمير قيم باطلة ، انها لا تؤمن بغرائز الخير فيه ، انما تثق بغرائزه الجشعة ، ورغبته فى الاستئثار والطغيان ؛ ولذلك فهى لاتسلمه المال لأنه يستعمله فى استغلال الكادحين؛

---

(٥٥) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١٦٧ .
(٥٦) رواه البخارى ومسلم .
(٥٧) سورة البقرة آية ٣٠ — ٣٤ .

ولا تطلق له الارادة لانه ينزع الى التحكم والاستبداد . ولا تعطيه الحريه لانه لا يحسن استعمالها .

٧ — الشيوعية تعتبر مأساة الانسان كلها منذ اقدم التاريخ الى اليوم مأساة بطن جائع ، ومن ثم فهى تنادى بانه لا سبيل للسلام والسعادة الا بنظامها الذى يسلب من الناس اموالهم ويملأ بطونهم . ومعنى ذلك انه لدس فى الانسان رذيلة الا حب التسلط على الاخرين (٥٨) .

وخلاصة ذلك أن الاسلام ينكر على الشيوعية موقفها من الأديان ، ومهاجمتها فى أصولها وفروعها كما ينكر عليها وأدها للحريات ؛ وهذا أهم خلاف بين الاسلام والشيوعية، أما أساليب الحياة وتنظيمها والرقى بالأفراد والجماعات ، ومحاربة الفقر والبطالة وتأمين الفرد على نفسه ومعيشته وذريته مما جاءت به الشيوعية فان الاسلام له موقف مخالف نهائيا . فهو يحترم الانسان ويحترم آدميته (٥٩) .

ولابد أن ندلل على صحة رأينا فى موقف الاسلام من الشيوعية برأى أحد المستشرقين الغربيين وهو المستشرق « جب » يقول « مازال الاسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتقابلين فى الغرب . فهو يسلوم ويوائم بين الاشتراكية القومية والأوربية . وبين شيوعية روسا . فلم يهو بالجانب الاقتصادى من الحياة الى ذلك النطاق الضيق الذى أصبح من مميزات اوربا فى الوقت الحالى ؛ والذى هو اليوم من مميزات روسيا أيضا » (٦٠) .

ويذكر جاك اوسترى فى كتابه « الاسلام أمام التطور الاقتصادى » :

« ليس هناك فى الحقيقة الا طريقة وحيدة وضرورية لابد منها للانماء الاقتصادى كما تريد أن تقنعنا به المذاهب القصيرة النظر فى النظامين الاقتصاديين السائدين » (٦١) .

---

(٥٨) مصطفى السباعى : المرجع السابق ص ١٦٨ .
(٥٩) الغزالى « الاسلام المفترى عليه » ص ١٥٠ .
(٦٠) محمد على « مولانا » « الاسلام والنظام الجديد » ص ٥٤
(٦١) Jacqua Austruy " L'Islam Face au develepement economique p. 20.

ولذلك الح ؛ هذا المؤلف فى كتابه على المسلمين بضرورة العودة الى الاسلام نفسه والى دراسة قواه الكامنة فيه « بشق الطريق فهو نهوض المسلمين عوضا عن التقليد الأعمى » وجاهر « بأن الاسلام يتمتع بامكانيات هائلة وانه اذا ما وجد الطريق الصحيح فان كثيرا من الصعوبات الاقتصادية التى ظهر للاقتصاديين تعذر التغلب عليها دون يحلها الاسلام » (٦٢) .

هذا هو الاسلام بمبادئه التى تناقض المذهب الشيوعى — الذى حاول أن يعمل جاهدا على التوغل فى المجتمع الاسلامى لسحق الدين • وبلبلة أفكار المسلمين تحت ستار مايدعونه من مذاهب فكرية متحررة ومتجددة . وما هى الا فقاعات لا تلبث أن تزول . قال الله تعالى « كذلك يضرب الله الحق بالباطل فأما الزبد فيذهب جفاء • وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » (٦٣) .

---

(٦٢) Ibid. p. 80.

(٦٣) سورة الرعد آية ١٧ .

الرأسمالية وأثرها على الحضارة الإسلامية

قام النظام الرأسمالي الغربي على اساس من اطلاق العنان لنشاط الفرد الى غير حد . وللحرية الفردية من غير قيد ، ولاعتبار الصالح الفردى هو الصالح الأعلى .

وبرزت هذه الاتجاهات فى المجال الاقتصادى الى أقصى حد . اذ ترك كل شيء فى هذا المجال لنشاط الأفراد . ورغباتهم ومصالحهم ، دون أى اعتبار للمجتمع أو للاخلاق أو لأية اعتبارات اخرى يمكن أن تحد من الحرية الفردية . أو من تحقيق الصالح الفردى كما يتراءى للفرد ان يحققه (١) .

ان اول ما ياخذه الاسلام على الراسمالية باعتبارها نظاما جرب وشهد العالم تطبيقه وآثاره ، ان الذى يربح منه طبقة محدودة جدا ، وان هذه الطبقة الرابحة تقبل على الدنيا اقبالا عارما ، موصول اللذة ممدود المتعة ، تأكل التراث اكلا لما . وتحب المال حبا جما .

والاسلام يضيق بالراسمالية لأنها تضع نظاما جادا لمحاربة الفقر ، بل لم تؤسس حكمها على فكرة اراحة الناس منه ، كما ان النظام الراسمالى يهوى بالضعفاء والمحتاجين فى مكان سحيق ، ولا يتعرف اليهم الا ادوات انتاج يحترقون فى النار التى تطهى للسادة ، ثم تتحول بوقودها الآدمى الى عالم من التراب (٢) .

ونريد ان نعطى لمحة تاريخية عن نشأة الراسمالية . فقد ظهرت فى اوربا عقب الثورة الصناعية التى بدأت فى القرن الثامن عشر فى انجلترا أولا ثم فى بقية أوربا الغربية بعد ذلك .

---

(١) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٩٧ .

(٢) محمد الغزالى « الاسلام المفترى عليه » ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

وقد أدت الثورة الصناعية الى تضاء الآلة نهائيا على العمل اليدوى فى الصناعات . وشل الانتاج اليدوى فى مواجهة الطاقة الكبيرة لصنع الآلة ؛ وتحول العمال اليدويون ، وقد كانوا ملاكا فى مصانعهم الصغيرة من قبل الى أجراء لدى أصحاب الصناعة الآلية الكبيرة .

وفيما بين المصانع الآلية كان المصنع الكبير فيها بطاقته الواسعة فى الانتاج اقل تكلفة منه فى المصنع الأصغر ، لذا لم يستطع المصنع الآلى الصغير أن يستمر طويلا فى مواجهة المصنع الكبير ، وآثر صاحبه بسبب قوة المنافسة وضررها عليه ان ينضم الى المصنع الكبير ويدخل فى حمايته . وتكونت بذلك الشركات المساهمة الكبيرة .

وهكذا أيضا بين الشركات المساهمة الكبيرة كانت المنافسة فى رخص تكلفة الانتاج ، ولكن هذه المرة ليست عن طريق كثرة الانتاج — بجانب جودته — ولكن عن طريق تخفيف التكلفة خارج المصنع . سواء فى شراء المواد الخام أو فى تسويق مصنوعات المصنع فى الأسواق المحلية أو الخارجية والعامل الأساسى فى التكلفة هو — النقل — وضمان وسائل عدم التلف للسلع ، وفائدة القروض التى يقترضها المصنع أو الوسيط بين المصنع والأسواق وهو التاجر (٣) .

فكلما كانت أجور النقل ، وفائدة القرض أقل ، وكلما كان الخطر الناشىء عن تلف السلع المصنعة أو الخام فى نطاق ضيق أو منعدما تماما، كانت التكلفة اقل وبالتالى كانت المنافسة اقوى للصناعة التى قلت تكلفتها تبعا لذلك على المنافسة ، اتحدت بعض الشركات الصناعية المساهمة ، على أن تباشر خدمات النقل أو التأمين على السلع أو القرض لتسويقها . وأصبحت هذه الشركات داخل اطار الصناعة ؛ ثم فى تطور العمل فيها أصبحت نوعية ، وتقوم بخدمات لغير المساهمين فيها ، فأصبح منها البنوك وشركات التأمين وشركات السكك الحديدية والسفن والبريد ووسائل النقل الأخرى . والشركات الصناعية التى أصبحت خدماتها الخارجية ذاتية من نقل وتأمين وقروض طغت فى منافستها على بعض الشركات الأخرى،

---

(٣) محمد البهى « تهافت الفكر المادى » ص ٢٠ .

وعظم اثرها فى الانتاج وفى الأسواق المحلية ، وفيما وراء البحار ، والبعض منها امتد نفوذه الى الاحتكار اما فى نوع من الانتاج او فى تجارة سلعة معينة من سلع المواد الأولية او فى بعض الخدمات الخاصة كالنقل والتأمين .

وتبعا لهذا التمركز اصبح رأس مال الصناعة ؛ ويتبعه غالبا رأس مال التجارة ورأس مال الخدمات المالية فى يد قلة من اصحاب رؤوس الاموال ، وبالتالى تجمعت لديهم الأرباح الواسعة فى استعمار القارتين الافريقية والآسيوية وفى تسخير المواطنين فيهما فى خدمة الصناعة الأوربية الغربية .

وأصبح فى اوربا ثراء فاحش يتصرف فيه عدد قليل من الأثرياء ، كما نشأت حضارة غربية مادية فى المدن والمرافق التى تساعد الانسان الاوربى صاحب الثراء على الاستمتاع بالحياة المادية فى صورها المختلفة (٤) .

وتمتد هذه القلة من اصحاب رؤوس الأموال فى الصناعة الغربية وقف مد الثراء الفاحش ، سواء أكان من الأرباح المباشرة او غير المباشرة ؛ كما وقف عليها الاستمتاع بترف الحياة المادية .

وكلما قوى تيار هذا المد للثروة البشرية — اذ ذاك — فى اتجاهه للتكدس تحت اقدام هذه القلة فى عددها من اصحاب رؤوس الاموال الصناعية زاد نفوذها فى السياسة الدولية ؛ وفى توجيه الفكر والتعليم، وكلما ازداد من عداهم فاقة وحرمانا وضعفا فى رعاية صحتهم وأحوالهم الاجتماعية .

كان عمال المصانع اقرب للاخرين عدا اصحاب رؤوس الأموال الى الاحساس بالوضع المزدوج المتناقض الناشىء من تكدس الأرباح فى ايدى قلة من الأفراد وهو :

١ — وضع الثراء الواسع والترف الذى هو العبث بعينه فى جانب .

---

(٤) محمد البهى ، المرجع السابق ص ٢١ .

٣ — الحرمان وفقد الرعاية الاجتماعية ، والاعتبار التشرى فى جانب آخر (٥) .

وكانت نتائج الثورة الصناعية مايلى :

١ — استعمارهم لبلاد آمنة مطمئنة ، وحرمانها من ثروتها الطبيعية، وبخس المجهود البشرى لأبنائها المواطنين فيها ، وذلك لأن الطاقةالانتاجية للصناعة تضخمت الى حد أن أصبحت عاجزة عن استيعاب طاقتها الانتاجية الكاملة فالسوق الداخلية صارت غير كافية لاستنفاد ما انتجه المنتجون بالأسعار التى يرون ، بحكم جشعهم الباغى — انها صارت مجزيه — ومن اجل الاحتفاظ بهذه الأسعار الفاحشة استقر راى المنتجين بعد انتجمعوا فى كتل احتكارية على انه لامناص لهم من سلوك أحد طريقين . اماخفض الانتاج ، وهذا ينقص من كمية أرباحهم . واما خلق أسواق اجنبية تستوعب فائض الانتاج ، وتكفل لهم الحد الأقصى من الأرباح .

الى جانب حاجة الاقتصاد الغربى الى ميادين اجنبية لاستثمار فائض المدخرات لأن الأرباح الفاحشة التى تؤول الى أصحاب الصناعات الكبرى لا يمكن توظيفها فى السوق الداخلى الا بفائدة منخفضة فى حين انها تغل فائدة مرتفعة فى البلاد المتخلفة اقتصاديا .

الى جانب حاجة الصناعة الكبيرة فى الاقتصاد الغربى الى الموارد الطبيعية فى البلاد المتخلفة اقتصاديا ، واصحاب الأموال لا ضابط له ، ولا قيد عليه ، يريدون الحصول على هذه الموارد بأبخس الاثمان تدعيما لأرباحهم الفاحشة والسبيل الى ذلك هو حمل حكوماتهم على بسط نفوذها السياسى على هذه الاقاليم (٦) .

٢ — ارهاق العمال فى المصانع وحرمانهم نعمة الاقتناء بعد حرمانهم من نعمة التعليم .

---

(٥) المرجع السابق ص ٢٣ .
(٦) محمد عبد الله العربى « الاقتصاد الاسلامى » ص ٣١٤ محاضرة » القاها فى الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ م .

٣ — تكدس الثروات فى ايدى قلة قليلة من الافراد لثروات لاتنتهى هى فى واقع الأمر اغتصاب لما تملكه الملايين الأخرى من أموال وطاقات.

٤ — وتمكنا من سلطة الحكم فى المجتمع ، ومن توجيهه سياسته لضمان بقاء العامل فى وضعه الاجتماعى ، وبقاء البلاد الافريقية والاسيوية فيما وراء البحار مستعمرات للمواد الخام بأثمان زهيدة ، وللطاقات البشرية الرخيصة فى نفقاتها .

ووصلت الراسمالية الصناعية فى الغرب الى ذروتها فى الآثار والنتائج ، وهى اثار ونتائج كلها سلبية على البشرية ، حتى ما كان منها أرباحا طائلة لأصحاب رؤوس الأموال القليلين (٧) .

منذ ذلك نرى ان النظم الراسمالى ماهو الا استغلال الانسان لأخيه الانسان وهو الذى يشجع على الاحتكار الذى نهى عنه الاسلام .

ومن أهم النتائج التى صاحبت نشأة الراسمالية انشاء المصارف والبنوك . التى ترتب عليها جعل العمال والصناع والتجار واصحاب المصانع مجرد اجراء للصيارفة الذين قاموا بتأسيس البنوك ، وجذبوا اليها أموال حملة الاسهم والمودعين ، ليستغلوها لصالحهم ، اذ تعود عليهم حصيلة تشغيل هذه الأموال ماعدا النصيب الضئيل الذى يصرف لحملة الاسهم ، وللمودعين فى بعض الحالات بينما يكد العمال والصناع والتجار والمستهلكون واصحاب المصانع انفسهم كذلك للوفاء بالفوائدالربوية التى تعود فىالنهاية الى الطغمة القليلة منالماليين الذين يمولون الصناعة والتجارة عن طريق الاقراض ويقبضون وهم قاعدون — ثمرة كد الجميع فى نهاية المطاف (٨) .

ان مشكلة النظام الراسمالى لا تتمثل فقط فى المظهر البارز الذى يوجه اليه النقد ، وهو تسخير الشعوب بالحكومات ، هى طبقة مستترة وراء اكداس منالنظريات الاقتصادية ووسائل الدعاية والتمويه ، والاساتذة

---

(٧) البهى « تهافت الفكر المادى » ص ٢٣ .
(٨) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٩٨

الكبار والجامعات والقوانين واللوائح في جميع ارجاء الارض . طبقة المرابين ، الطبقة التي تؤسس بنوك الاقراض . وتمتلك سندات التأسيس .

وصاحب النظام الرأسمالي الاتحلال الأخلاقي أولا : تحت تأثير النظريات المختلفة الاتجاهات . سواء نظريات الحرية المفردة التي لايجوز أن يحدها حد أو قيد او نظريات حيوانية الانسان ومادية الكون (٩) .

انتشار البنوك التي تتعامل بالفائدة :

انتشر حفظ ودائع الأفراد والشركات والحكومات في البنوك بفوائد محددة . كما انتشر منح الناس قروضا بالملايين . ولكن مما يؤخذ على هذا الموضوع هو تحديد الفائدة : فالاسلام ينص على أن رأس المال والعمل يجب أن يشتركا في الربح والخسارة « فلا يأخذ رأس المال فائدة دائما » حتى ولو كان ذلك يؤدي الى خسارة العمل (١٠) .

ولا يستطيع أحد في عصرنا الحديث أن ينكر ان البنوك في وضعها الحالي تؤدي للمجتمع خدمات قيمة سواء في ميدان التجارة الداخلية او ميدان التجارة الخارجية .

ولكن ؟ من أين تأتي البنوك بالأموال التي توجهها في انجاز عملياتها المختلفة ، وعلى الأخص في تمويل المشروعات ؟ بعضها يأتي من رأس مال البنك ، أي من قيمة الأسهم التي اكتتب بها المساهمون ، ولكن اكثرها يأتي من ودائع المودعين .

ففي النظام الرأسمالي يودع الناس فائض أموالهم النقدية في البنوك مقابل فائدة منخفضة السعر يقررها البنك لودائعهم ، ثم يقوم البنك بالاقراض من هذه الودائع لعملائه بفائدة مرتفعة ، ويكسب البنك الفرق بين السعرين ، ويعتبر البنك ودائع المودعين كأنها رصيد واحد « متجدد نظل يقرض منه المقترضين بالفائدة المرتفعة ، وكلما رد مقترض قيمةقرضه

---

(٩) سيد قطب « المرجع السابق » ص ٩٩ .
(١٠) علي عوض « الاقتصاد في ضوء الاسلام » ص ٩٤ .

اعاده البنك الى هذا الرصيد ، ويكرر المرة بعد المرة الاقراض منه ، والاعادة اليه ،ومن هنا تأتى الأرباح الضخمة للبنوك فى النظام الراسمالى. وهى بمأمن من كل مخاطرة مطمئنة الى استرداد قروضها وفوائدها وهى بمعصم من كل خسارة (١١) .

هذه الوظيفة المصرفية ربوية ، وهى علاوة على هذا التحريم الشرعى ثبت للاقتصاديين انها تلحق اضرارا جسيمة بالاقتصاد القومى ، فان البنوك فى استغلالها للودائع على هذا النحو ، انما تخلق نقودا مصطنعة هى مايسمونه « بالائتمان التجارى » وهى فى هذا الخلق تغتصب وظيفة الدولة المشروعة فى خلق النقود بما يحف بها وبما يوازنها من مسئوليات، وكما قال الاقتصادى الأمريكى هنرى سيمونز معلقا على الأزمة الاقتصادية العالمية التى خيمت على اكثر الدول سنة ١٩٣٠ وما يليها « لسنا نبالغ اذا قلنا ان اكبر عامل فى الأزمة الحاضرة هو النشاط المصرفى التجارى ، بما يعمد اليه من اسراف خبيث ، وتقتير مذموم فى تهيئة وسائل التداول النقدى ، ولا نشك فى أن البنوك بمعاونة الاحتكار سوف توالينا بأزمات اشد واقسى اذا لم تتدخل الدولة فى الأمر واستعادت فى حكمة ومسئولية وظيفتها فى ضبط اداة التداول (١٢) » .

فالثابت اذا بحكم الواقع المعاصر هو ان البنوك بالدور الذى تقوم به فى احلال الائتمان المصرفى محل العملة النقدية اعتمادا على رصيد الودائع التى لديها ، واطمئنانها الى استمرار تدفقه ، تؤدى للمجتمع نفعا فى تيسير التعامل التجارى ، ولكنها فى الوقت نفسه تلحق الضرر بالمجتمع الذى ينشأ من مصدرين الأول : ماتصيبه من اغتناء غير مشروع بسبب حصولها المحتوم على فوائدها المقررة على المقترضين واجتنابها المساهمة فى مخاطر مشروعاتهم . الثانى : ميلها فى اوقات الرخاء الى التوسع فى الاقراض بفتح الاعتمادات التى تربو على رصيدها اضعافا مضاعفة ، وميلها فى أوقات الركود الى التضييق فى الاقراض والكف عنه خوفا من احتمالات الخسارة والعمل على استرداد قروضها ، وارغام

---

(١١) محمد عبد الله العربى « الاقتصاد الإسلامى » ص ٣١٩ .
(١٢) محمد عبد الله العربى « المرجع السابق » ص ٣٢ .

المقترضين على السداد . فهذا البسط والقبض الذى تتحكم فيه ارادة القائمين على البنوك هو من اهم العوامل التى تهز الكيان الاقتصادى، ويفضى الى منابع الازمات (١٣) .

فالبنوك فى المجتمعات الرأسمالية بتمويلها للمشروعات من طريق أرصدة الودائع تستحدث نفعا ، وتستحدث ضررا فى آن واحد ، والنظام الاسلامى حريص كل الحرص على انتفاء الضرر ودفعه ، واجتلاب النفع واستبقائه .

هذا من ناحية اما من الناحية الشرعية ، فالاسلام ينظر الى هذه الفائدة على انها ربا . ومن مبادئه الأساسية تحريم الربا والفائدة ماكان منها للاستهلاك ، وما كان منها للانتاج سواء أكان سعر الفائدة بسيطا ام كبيرا وذلك صريح وواضح فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا » (١٤) وقوله تعالى « وذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا » (١٥) وقوله أيضا وفيه البرهان الناطق والدلالة الصحيحة على تحريم الربا « وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (١٦) أما مايحتج به من قوله تعالى « لا تأكلوا ربا اضعافا مضاعفة » (١٧) فالمقصود هنا فائدة الفائدة أى الربح المركب ، وهو ضم الفوائد الى أصل الدين بحيث يصبح الكل بمثابة رأسمال واحد منتجا لفوائده القانونية او الاتفاقية . ولقد اثبت علم المال الحالى أن الدين بهذه الطريقة أى بطريقة فائدة الفائدة يتضاعف ، حتى ان المبلغ الذى يقترض بفائدة ٥٪ يتضاعف الى مثله فى مدة ١٤ سنة تقريبا ، وهذا اذا كان سعر الفائدة ٥٪ ، ولكن اذا بلغ سعر الفائدة ١٠٪ أو ١٥٪ أو ٢٠٪ أو ٢٥٪ مثلا وهذا مايحدث كثيرا ، فان المبلغ يتضاعف فى مدة قد تقل عن ٥ سنوات أو تزيد قليلا (١٨) .

---

(١٣) المرجع السابق ص ٣٢١ .
(١٤) سورة البقرة آية ٢٧٨ .
(١٥) سورة البقرة آية ٢٧٥ .
(١٦) سورة البقرة آية ٢٧٩ .
(١٧) سورة آل عمران آية ١٣٠ .
(١٨) سيد أحمد « الاقتصاد فى ضوء الاسلام » ص ٥٩ .

هذا هو المقصود من قوله تعالى « أضعافا مضاعفة » أى اضعافا بالنسبة لقيمة راس المال المقترض ، وذلك لأن الدين الاسلامى دين ابدى لم ينظر الى شكل الفائدة ، واقسامها وأنواعها على ماهى عليه فى الماضى والحاضر فحسب ولكنه نظر أيضا لما سيحدث فى المستقبل وحرمهابجميع اشكالها وانواعها واقسامها وقد حرم الاسلام الفائدة او الربا لأسباب كثيرة سياسية واقتصادية وتعاونية واجتماعية وخلقية .

فنرى من الناحية السياسية ان الأجانبعندما بدأوا غزوهمالاقتصادى القائم على الفوائد الربوية والقروض ؛ كثيرا مايكون الأساس الثابت للاحتلال والاستعمار . اذ اول مافعله المستعمر خصوصا فى بلدان الشرق هو انه اقرض الشرقيين بفوائد باهظة ، وما هى الا سنوات قليلة حتى انتقلت الثروة وعوامل الانتاج من زراعية وصناعية وتجارية من أيدىأهلها الى أيدى المستعمر (١٩) .

أما من الناحية الاقتصادية ، فان الفائدة تؤدى الى تضخيم الثروة . والاسلام يكره تضخم الثروة فى جانب وعدم وجودها فى الجانب الاخر وهذا صريح فى قوله تعالى « كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم » (٢٠) .

وهناك سبب آخر وهو حفظ التوازن بين راس المال وبين العمل فلا يسمح لراس المال ان يستبد ويأخذ اكثر مما يجب ، ولا يرضى أن يأخذ العمال اقل من ناتج عملهم . كما ان الفائدة سواء اكانت بسيطة ام مركبة تؤدى الى افلاس بعض التجار وخصوصا الذين تصيبهم وقتا ما ضائقة مالية . واذا عمل بمبدأ الفائدة، فانه يقضى على التعاون ، وذلك لانه تقتضى الاسلام الذى يحث على التعاون بين الناس .

اضف الى ذلك أن الاسلام اذ يحرم الفائدة ، فانه بتحريمه هذا يحاول ان يحفظ التوازن بين الجانب المادى ، والجانب الروحى بحيث لا يسمح لأى من الجانبين ان يطغى على الاخر ، الى جانب أن الفائدة تؤدى الى استغلال ضوائق المجتمع ، وبيع المساعدات بمقابل ، سواء اكانت هذه

---

(١٩) المرجع السابق ، ص ٦٠ .
(٢٠) سورة الحشر آية ٧ .

الضوائق استهلاكية أم انتاجية . وبذلك تتمزق الانسانية ، ويصبح افرادها أشبه بحيوان الغاب ، الغنى يطمع فيفترس الفقير ، والفقير يحقد فيفترس الغنى ، ولكل سلاحه الذى يقتل به أخاه (٢١) .

وقد حاولت النظريات الرأسمالية التى وفدت على حضارتنا الاسلامية أن تجد لنفسها منفذا ، وأن تحلل كثيرا من نظمها حتى تأخذ بها الدول الاسلامية فتقول « ان التحديد تفرضه الحاجة الى التيسير » .

ولكن لا لأنه ليس فى نظام الفائدة اى تيسير ، وقد ارتفعت الشكوى فى الغرب من نظام الفائدة ، وهاجمه علماء متخصصون فى الفلسفة والاجتماع ، والاقتصاد ولآرائهم وزن كبير ، وذلك فى البلاد الراسمالية فضلا عن الجمهوريات الاشتراكية التى سبقت الى الغاء المعاملات بالفائدة.

وعلى اية حال ليست فى الراسمالية ، ولا فى الاشتراكية اى فلسفة خاصة تفوق نظرة الاسلام الى الأمور الانسانية (٢٢) .

الى جانب انه من الكذب ، القول بأن نظام الفائدة يحمى المقترض الصغير الضعيف من جبروت المقرض الغنى القادر ، فهذه مجرد دعاية يهودية تجوز على بعض الناس .

وفى ظل نظام الربا والفائدة يزداد العبء الملقى على كاهل المقترض بثلاثة عوامل رئيسية .

(أ) الضمان الذى يقدم ، فكلما قلت ثروته ، قل ضمانه ، وزاد سعر الفائدة الحقيقية .

(ب) حجم القرض ، فكلما قل حجم الدين او المبلغ المتعاقد عليه زاد سعر الفائدة .

(ح) مدة القرض اذ الفائدة على القروض القصيرة الأجل ايسر من

---

(٢١) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٧٣ .

(٢٢) عيسى عبده ابراهيم « وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى » محاضرة القاها فى الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ ، ص١١٤ .

نظيرتها على الديون الطويلة الأجل هذا فى حالات ، وفى حالات اخـرى ينعكس الوضع وتقل الفائدة اذا طالت مدة القرض . وفى هذا تفصيل فى الدراسة الاقتصادية لسوق راس المال .

على ان سعر الفائدة يتأثر أيضا بندرة راس المال ؛ بمعنى انه كلما اشتدت الندرة النسبية للمدخرات المتاحة للتوظيف ، ارتفع سعر الفائدة.

وفكرة الاسلام فى تحريم الربا ابعد كثيرا مما ظن الذين افتوا بجواز فائدة المودعات لدى البنوك وصناديق البريد وغيره من المنشآت ؛ ففكرة الاسلام تتلخص فى ان نظام النقد بجميع صوره لاينبغى ان يكون الا للدولة؛ ومن ثم يكون سك النقود ، واصدار العملة الورقيـة ، وخلق النقـود الحسابية بالائتمان مثلا ، ومن ثم تكون المصارف ، وهيئات تكوين رؤوس الأموال كشركات التـأمين وتوظيف المـدخرات منشآت لايجوز للفرد ولا للشركة ان تتملكها .

والفائدة الثابتة هى استمرار لصورة من صور الربا ؛ هى بقية من بقايا سيطرة راس المال ونهم الحيازة ، ولم تحقق من الاثار الاقتصـادية الا الفساد ، ذلك لأنهـا قرينـة التحكم فى راس المال ، واتخاذه للبطش بالمجتمع (٢٣) .

أثر الربا على السلوك الانسانى وعلى المجتمع :

الربا يؤدى الى انتشار الأمراض الأخلاقيـة بطريقة غير مباشرة ، وذلك لأنها تؤدى الى حبس ثروة المجتمع فى أيد قليلة مترفة؛ الأمر الذى يترتب عليه انتشار الدعارة ، وكثرة الميسر ، وشرب الخمر ووجود الحقد والضغائن والاحن ، وغير ذلك من الأمراض الأخلاقية ، وسبب ذلك أن هذه الطائفة تملك طاقة مالية كبيرة نتيجة التعامل بالربا .

وهناك امراض اجتماعية أخرى مثل السرقة ، وضياع المروءة وغيرها وغيرها مما يؤدى بنـا الى الهلاك تحقيقا لقوله تعـالى « واذا أردنا أن

---

(٢٣) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٧٣ .

نبلك قرية امــرنا مترفيهــا ففسقوا فيها فحق عليهــا القول فدمرناها تدميرا » (٢٤) .

والذى يعمل بهذا النظام « نظام الفائدة الربوية » عندما يقيم مشروعا من المشروعات لا يفكر الا فى المشروعات التى تكفل تغطية الفوائد الربوية وتكفل له أيضا فائضا من الربح ، والمشروعات التى تخدم الجنس ، والتى تقوم على اثارة الميــل الى الترف وتلبيتــه وهى أدنى المشروعات الى الربح (٢٥) .

ومن ثم يصبح من السياسة الثابتــة لأصحاب المــال « الصيارفة، وبيوت المال ومؤسسى البنوك ، وحملة السندات التأسيسية ومعظمهم من اليهود فى العالم ، كما يصبح من سياسة الكثيرين من أصحاب المشروعات الذين يقترضون من هذه المؤسسات بالربا ان ينشروا فى المجتمع الانسانى حالة من الانهيار الخلقى ، ومن الترف ومن التفاهة ، تسمح بأن تروج فيه مشروعات الترفيه الجنسى فى شتى صوره » (٢٦) .

وهكذا تصبح صناعة الأفلام المستهترة ، والمحلات العامة التى تنتشر فيها الفساد ليلا ونهارا ، الى جانب الصــحافة التى تدعو الى الفساد والرذيلة والتى تهتم بأمور الفن والفسق والفنانين ، وتجــارة الرقيق ، والخمر والمخدرات ، كما تصبح صــناعة ادوات الترف وما وراءهــا من تقاليد المجتمع المستهتر والحفلات والسهرات الى آخر مظاهر الانحــلال والترف التى تقوم عليها مئات الصناعات فى العالم ، تصبح هذه كلها فى خدمة الراسمالية ، ويكون لراس المال فى هذه الأنظمة القوة التوجيهية لأنه هو وحده الذى يتحكم فى المجتمعات اللادينية ، فليس المال هو الذى يفسد المجتمع ، وانما المنهج والمذهب والنظام والتصور الذى يحكم مجتمعا من المجتمعات .

---

(٢٤) ســورة الاسراء آية ١٦ .
(٢٥) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضــارة » ص ١٠٠ .
(٢٦) المرجع السابق .

الاحتكار كأثر من آثار الرأسمالية :

اساس الرأسمالية الاحتكار الذى نهى عنه الاسلام . فى اكثر من موضع وذلك لان فيه اهدارا لحرية التجارة والصناعة . فالمحتكر لم ينح لكل الناس أن يصنع صنيعه . فهو يتفرد بالسلعة ، يتحكم فى السوق ،ويفرض ماشاء من الأسعار وبحدد الكمية المباعة، ويقتل منافسيه، فيكون سببا فى عدم تجويد السلع ومحو مبدأ تكافؤ الفرص بين الافراد . وتكليف الناس فوق طاقتهم ، وقد يضطر المحتكر لكى يفرض السعر الذى يريد الى اعدام كميات كبيرة من السلع يحتاجها الناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجالب مرزوق . والمحتكر ملعون » وقوله « من احتكر فهو خاطىء » وقوله عليه السلام « من احتكر طعام أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه » فالاحتكار له أضرار جمه تطغى على بعض الفوائد التى يذكرها له بعض الاقتصاديين (٢٧) .

قال الله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (٢٨) .

الليبرالية التقدمية

الليبرالية لفظ له اكثر من مدلول فى اللغات الأوربية ومن هنا كانت الصعوبة فى وضع تعريف منطقى جامع يحدد مدلولها بدقة .

حتى اشتقاق كلمة ليبرالى نفسه اختلفوا فيها : هل هى مأخوذة من كلمة « ليبرتى » التى معناها الحرية . أو من اصل أسبانى .

وعلى اى حال فان الليبرالية التى شاعت فى بلادنا العربية هى الليبرالية الانجليزية وهى ترتكز على مفهوم التحرر من تدخل الدولة فى تصرفات الأفراد . سواء أكان هذا فى السلوك الشخصى للفرد أم فى حقوقه الطبيعية أم فى نشاطه الاقتصادى ، أخذا بمبدأ دعه يعمل

---

(٢٧) على عوض « الاقتصاد فى ضوء الاسلام » ص ١٢٨ .
(٢٨) سورة البقرة آية ١٨٨ .

ودعــه يمر » Laisse Faire - Laise Passé (٢٩) والظــاهر من تاريخ الليبرالية : انها كانت رد فعل لتسلط الــكنيسة والاقطاع فى العصــور الوسطى بأوربا ، مما ادى الى انتفاضة الشــعوب وثورة الجمــاهير ، وبخاصة الطبقة الوسطى والمناداة بالحرية والاخاء والمساواة كما وضح ذلك فى الثورة الفرنسية .

والمعروف ان البلاد العربية الاسلامية قد تعرضت لموجات الاستعمار كما ذكرنا آنفا : لذلك بدأ هذا الاستعمار يتلاعب بمصائر هذه الشعوب، ويختار حكامها او يوجههم ، ويدير دفة الأمور .

ولهذا سار الحكم فى هذه البلاد فى الاتجــاه الليبرالى الديمقراطى الراسمالى الغربى ، الذى يؤيده الاستعمار المتسلط ، كما تؤيده جمهرة المثقفين الذين تعلموا على يديه ، والذين رأوا أن هذا النظام الجديد يحمل معانى التقدم والحرية والتطور والتجدد ويقاوم الجهل والجمود ، والتخلف والاستبداد ، الذى اتسمت به عصور الانحطاط السابقة (٣٠)

ولم يتح لهم من العلم النافع مايعرفون به حقيقة دينهم « الاسلام » الذى يؤمنون به اعتقادا ويجهلونه شريعة ونظاما ، وفلسفة وحضارة ، كما لم يكون لديهم من دوافع الرغبة فى معرفته مايجعلهم يطلبون العلم عند اهله العارفين به وقليل ماهم .

ومن اهم مظاهر هذه الحركة الليبرالية التقدمية فى بلادنا الاسلامية هو تشجيع الاقليمية والعنصرية ، والبعد بالمسلمين عن الوحدة والاتحاد، وغرس روح الانفرادية . فأصبح العــداء بين الشــعوب بعضها وبعض واضحا ، بل بين أبناء الوطن الواحد أكثر وضوحا .

وقد قرر القرآن الــكريم والسنة الشريفة ان المسلمين أمة واحــدة « يسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم » ومن لم يصبح ناصــحا — اى مخلصا بارا — لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم فليس منهم »

---

(٢٩) موريس كرانستون « المصطلحات السياسية » ص ٤٦ .

(٣٠) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٤٩ .

ولكن النزعة الوطنية والقومية جعلت المسلم يفكر فى وطنــه قبــل عقيدته . ويقدم الــكافر اذا كان من عنصره أو وطنه على المسلم من عنصر آخر أو فى بلد آخر ؛ ويسمى هذا اجنبيا ويعامله معاملة الأجانب (٢١) .

ومما هو معروف « ان الغــرب يوم استضعف الأمة الاســلاميه فى افريقيا وآسيا منذ القرن التاسع عشر ، وبدأ عصر الصناعة الحديثة دخل ديارها بجنوده واحتكر ثرواتها لصالح مصانعه برؤوس امواله . وسخر أبناءها فى خدمة الاقتصــاد الأوربى بنفوذه السياسى . ثم ارسى قواعد نظامه الادارى والسياسى وثبت نظامه الاقتصادى الراسمالى . وطــارد القيم الأصلية للمجتمع ، واستبدل بها النظام العلمانى فى التعليم ، ونظريات الفقه الأوربى فى التشريع ، وقيم التبعية للغرب فى التوجيه . ولقد وصل الوضــع فى كل مجتمع اســلامى أفريقى أو آسيوى اســتعمره الغرب الأوربى لصــالح صــناعته ورؤوس أمواله الى تمكــين الأجــانب من اغتصــاب الثروة القوميــة بمســاعدة القــوة العســكرية وعلى الاخص مصــادر الثروة المعدنيــة والأراضى الزراعية الجيــدة والمرافق الحيوية العامة ، وتسخير المسلمين فى تنمية رؤوس الأموال الأجنبية بدون مقابل او مقابل اجور زهيدة ، واستنزاف الدخل القومى باحتكار التجــارة الخارجية فى المحاصيل الرئيسية والسلع المصنعة للاستهلاك الضرورى ، ورهن الأراضى والأملاك العقارية بالفائدة المركبة واقامة البنوك لتيســير الحوالات المالية واعادة نقل رؤوس الأموال الى الخارج من فائض العائد الوفير لخدمة البنــاء الأوربى ؛ على حساب افتقار الشعوب الاســلامية من ثرواتها الخاصة ؛ وطاقات أبنائها البشرية ؛ وطالما ان عمليات التصدير والاستيراد تساعد على انجاز البنوك ، فهى ثغرة واسعة لتهريب الأموال أو اعادة ماورد منها وأرباح البــاقى من ثمرتها وعائدها ، ولقد كان القطاع الاقتصادى فى المجتمع الاسلامى المستعمر ، هو القطاع السرى المغلق الذى لايدخله الوطنيون ، الا لأداء خدمات محدودة ، وفى غالب الأحيــان تكون خدمات اضافية ، والوطن فى هذا القطاع كان الثروة والمجهود البشرى

---

(٢١) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٦٣ .

فى العمل والعائد منه كان الفقر والمذلة على المواطنين » (٣٢) .

وقد كان لهذه الأفكار الليبرالية اثرها الهدام على الناحية الاجتماعية للشعوب الاسلامية فقد اصبح الأغنياء — نتيجة للتخلى عن الاسلام ودخول الأفكار والنظريات الغربية الى العالم الاسلامى — طبقة تتوارث الغنى والثروة . كما جعل من الفقراء طبقة تتوارث البؤس والشقاء ، أولئك كتب لهم ان يعيشوا فى حياة الترف ناعمين وهؤلاء كتب عليهم أن يعيشوا فى اكواخ الحرمان لاهثين ؛ وكان هذا الترف فى جانب الأقلية العاطلة ، والحرمان فى جانب الأكثرية العاملة ، نذيرا بانهيار المجتمع واشرافه على هاوية الهلاك والدمار ، وصدق الله العظيم اذ يقول « واذا أردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٣٣) .

ولا عجب أن شاع شرب الخمر ، ولعب الميسر ، واصبح فى المجتمع الاسلامى حانات واندية يمارس فيها هذا الرجس من عمل الشيطان .

ولا غرابة كذلك اذا شاعت الفاحشة وانتشر وباء الزنى سرا وعلانية وصار فى بلاد الاسلام مراقص وكباريهات قائمة لتسهيل العبث والفجور ، وعملت المؤسسات المشبوهة المخربة عملها فى التهوين من فضيلة العفاف ، وفى التحريض على التحلل من عرا الأخلاق ، وفى تيسير كل السبل للشهوات والغرائز الحيوانية ، واستخدمت كل الوسائل من الصورة والخبر ، والاغنية والقصة والتمثيلية والزى المغرى والسهرات المختلطة .. الخ (٣٤) .

والحقيقة أن موضوع المراة كان من اهم الموضوعات التى تأثر بها المجتمع الاسلامى أمام الغزو الغربى . يقول « جان بول رو » فى كتابه « الاسلام فى الغرب » :

» ان التأثير الغربى الذى يظهر فى كل المجالات ويقلب ، راسا على عقب ، المجتمع الاسلامى لايبدو فى جلاء أفضل مما يبدو فى تحرر المراة « .

---

(٣٢) محمد البهى « الاسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر » ص ١٧٠ — ١٧١ .
(٣٣) سورة الاسراء آية ١٦ .
(٣٤) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٧١ .

والحقيقة التى لابد من ذكرها أن النظريات التى سادت فى المجتمعات الانسانية فى القرن التاسع عشر — والتى اشرت اليها آنفا — مثل نظرية داروين وكارل ماركس وغيرهما اذا كانت قد أثرت على الانسان ، وعقيدته، فلابد أنها قد أثرت كذلك فى النظرة الى المرأة وفى العلاقات بين الجنسين، وعملت على تحطيم كل قوائم الأخــلاق ، وأطلقت الجنسين فى حيوانيــة مطلقــة (٣٥) .

ولعل خروج المجتمع الغربى عن سلطان الكنيسة كان له اثر كذلك فى اطلاق العنان لهذه المفاسد الأخلاقية ، ولعمليات الاختلاط بين الجنسين، والحريات المفرطة ، وما أدت اليه من انصراف الى الجنس ، والتركيز على هذا الموضوع سواء بالنواحى الاعلامية من صحافة ، واذاعة ، وتليفزيون، وسينما ، وقصص وروايات ومؤلفات عامة . او باطلاق الحرية الى أبعد الحدود حتى صار الفتى والفتاة حين ينطلقان مع شهوة الجسد . لايحس كل منهما انه قد اتى منكرا يحاسبه عليه احد ، لا ضــميره ، ولا المجتمع ولا الدولة والدين (٣٦) .

وهــذه الأفــكار الغريبــة « الليبراليــة » التى طغت على المجتمع الاسلامى ، خاصة فيما يخص العلاقة بين الجنسين ، قــد جعلت الانسان ينزلق الى الدرك الأسفل بانسانيتــه الى أدنى المستويات . فى حين ان الاسلام يعترف بالطاقة الجنسية من حيث المبدأ اصرح اعتراف يمكن أن تصبو اليه الانسانية ، ولكنه لايعترف بها ضرورة هابطة ، بل على العكس من ذلك يرفعها ويطهرها ، ويسلط عليها النور .

ويتصور الاســلام وجود علاقة بين الرجل والمرأة على أنه الشىء الطبيعى الذى ينبغى أن يكون ، فهو يقرر ان الله جعل فى قلب كل منهما هوى للاخر وميلا يقــول القرآن « ومن آياته ان خلق لــكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٣٧) ولــكنه يذكرهمــا بانهما يلتقيــان لهــدف حفظ النــوع وتلك حقيقــة لا أحسبها موضــوع

---

(٣٥) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٧٥ .
(٣٦) محمد قطب « الانسان بين المادية والاسلام » ص ١٧٦ .
(٣٧) ســورة الروم آية ٢١ .

جدال : فمن المسلم به لدى « العلم » ان للوظيفة الجنسية هدفا معلوما. وليست هي هدفا في ذاتها . فقول القرآن « نساؤكم حرث لكم » (٣٨) فيحدد بذلك هدف العلاقة بين الجنسين بتلك الصورة الموحية ، صورة الارض التي تحرث لوضع البذرة وتعهدها حتى تنبت ، وتأتي بثمرة جديدة من نفس النوع (٣٩) .

وبهذه الصورة الموحية يتبين راى الاسلام منذ البدء فهو يرى ان للشهوة هدفا محددا ، ولا يوافق على ان ارضاء الشهوة هو في ذاتهالاول والاخير .

آثار الحضارة المادية

على عقائد المسلمين

ان المشكلات التي واجهت المسلمين ، وواجهت حضارتهم لم تقف عند حد ماذكرناه من ذيوع نظريات ، وافكار ومبادىء هدامة ، عملت على هدم الانسان عن طريق هدم أخلاقه ، وعقيدته ، وفكره ، ومحاولة تحريك شهواته وابعاده عن الدين .

ليس هذا فقط ، ولكن استكمالا لهذه السياسة المادية البحتة ، فقد عمل الغرب على تشجيع اناس خارجين عن الدين على ان يقوموا بحركات تحمل اسم الدين — والدين منها براء — من اجل محاربةالاسلام، والتشكيك فيه ، والتهوين من أمر العقيدة لدى الأفراد .

ولذلك رايت استكمالا لهذا الموضوع الا اختتمه دون ان اعرض صورة أو صورتين لهذه المساوىء والمشاكل التي صادفت الأمة الاسلامية من فعل التاثير الغربي ، واخترت لذلك حركتي القاديانية التي نشأت في الهند ، والبهائية التي عمت العالم الاسلامي اجمع .

---

(٣٨) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

(٣٩) محمد قطب ، المرجع السابق ص ١٩٤ .

أ ـ القـــاديانية :

تنتسب هذه الفرقة الى ميرزا غلام احمد القادياني من قاديان باقليم البنجاب بالهند .

وترجع دعوة هذا الرجل الى التعاليم التي بثها من قبل في هـذا الاقليم السيد أحمد خان بهادور الذي كان عميلا للانجليز هنـاك ، وعمل من قبل على تشجيع اقامتهم في البلاد ، وتشجيع مخططاتهم من اجل القضاء على الاسلام والمسلمين بالهند ، وقد نادى هذا الرجل بدعوة تقدمية في الهند ـ من أجل ارضاء الانجليز ـ فقال بأنه لاوجود الا للطبيعة ، وليس لهذا الـكون اله حكيم ، وان جميع الأنبيـاء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالاله الذي جاءت به الشرائع ، وأخذ يغرى أبنـاء الأغنياء من الشـبان الطائشين «(٤٠) .

فحركة احمد خان كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعي والحضارة الغربية المادية كما يفتتن في عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى «العلم» وبالمركبات الحضـارية التي قامت عليه ، والافتتـان بالعلم الطبيعي أو بالطبيعة كما يقال يؤدى الى خفة وزن القيم الروحية والمثالية ، وهي القيم التي تقوم عليها رسالة الأديان السـماوية التي يمثل الاسـلام أوضـح تمثيل .(٤١) .

لذلك جاء غلام احمد بعد ذلك حاملا نفس مبادىء أحمد خان ، وبدأ يعمل هو الآخر لخدمة المادية الغربية ، والأفـكار الجديدة التقدمية التي ليس لها هدف الا هدم الاسلام .

ولكن غلام احمد حاول أن يتطور بدعوته عما قام به أحمد خان من قبل ، وذكر أن عيسى عليه السلام بعد ان بعث من موته الظاهرى هاجر الى كشمير في الهند لينشر تعاليم الانجيل في البلاد ، وأنه توفي بعد أن بلغ من العمر ١٢٠ سنة ، وأن قبره لم يزل موجودا هناك ويدعى ميرزا

---

(٤٠) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث » ص ٣٩ .

(٤١) محمد البهي ، المرجع السابق ص ٤١ .

غلام أحمد انه « المهدى » ويذكر انه حل فيه عيسى ومحمــد على السواء فهو نبى . ومع انه لم يدع أنه عيسى بن مريم نفسه فقد ادعى أنه زميله فى الرســالة (٤٢) واعلن قدومه برســالة جديدة . بعــد أن خالف الأولين والآخرين فى ان محمدا خاتم النبيين .

وقد الغى النبى الهندى شريعة الجهاد فى سبيل الله وشرائع أخرى كثيرة ، وذلك طبعا لحساب الاستعمار الانجليزى (٤٣) .

يقول الأستاذ المودودى :

« اول مايميزهم عن المسلمين ويبعدهم عنهم هــو ما جاءوا به من التفسير المبتدع « لختم النبوة » وقد خالفوا فيــه تفسير جميع المسلمين المتفق عليه بينهم فما زال المسلمون يعتقدون منذ ثلاثة عشر قرنا ونصــف قرن ولا يزالون يعتقدون الى اليوم ان سيدنا النبى محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين فلا نبى ولا رسول بعده الى يوم القيامة ، وذلك هو المعنى الذى فهمه الصحابة رضوان الله عليهم جميعا من قول الله عز وجل فى كتابه الكريم « ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٤٤) ، وهم الذين قاتلوا كل من ادعى النبوة بعد محمــد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المعنى الذى مازال المسلمون يفهمونه فى جميع العصور المتعاقبة ، فلم يقبلوا من بين انفسهم رجلا ادعى النبوة أما القاديانيون فقد فسروا « خاتم النبيين » لأول مرة فى تاريخ المسلمين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الانبيــاء اى « طابعهم » فكل نبى يظهر الآن بعده تكون نبوته مطبوعا عليها بخاتم تصديقه صلى الله عليه وسلم » ومن أقوالهم « قال المسيح الموعود عليه السلام فى خاتم النبيين: أن المراد به انه لا يمكن ان تصدق الآن نبوة اى نبى من الأنبياء الا بخاتمه « صلى الله عليه وسلم » وكما ان كل قرطاس لا يكون مصدقا مستندا الا

---

(٤٢) محمد الغزالى « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٢٤٢ .
(٤٣) المرجع السابق .
(٤٤) ســورة الأحزاب آية ٤٠ .

حين يطبع عليه بالخاتم فكذلك كل نبوة لاتكون مطبوعة عليهـا بخاتمـه وتصديقه صلى الله عليه وسلم تكون غير صحيحة (٤٥) .

ومن اقوالهم « ان جميع المسلمين الذين لم يشتركوا فى مبايعة المسيح الموعود كافرون خارجون عن دائرة الاسلام ، ولو كانوا لم يسمعوا باسم المسيح الموعود » (٤٦) .

يقول ابو الحسن الندوى « من كبار علماء الهند فى كتيب له عنوانه « القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والاسلام » .

« قد تحقق علميا وتاريخيا ان القاديانية وليدة السياسة الانجليزية . فقد أهم بريطانيا واقلقها حركة المجاهد الشهير السيد الامام « احمد بن عرفان الشهيد » سنة ١٨٤١ م ، وكيف الهب شعلة الجهاد والفداء وبث روح النخوة الاسلامية والحماسة الدينية فى صدور المسلمين فى الربع الأول من القرن التاسع عشر المسيحى وكيف التف حوله وحول زعامته آلاف المسلمين عانت منهم الحكومة الانجليزية فى الهند مصاعب عظيمة ، فكانوا موضع اهتمامها » .

وقال فى موضع آخر :

« ان القاديانية تنشر فى العالم الاسلامى الفوضى الفكرية ، وعدم الثقة بمصادر الاسلام الصحيحة ومراجعه وسلفه ، وتقطع صلة هـذه الأمة عن ماضيها وعن خير ايامها وافضل رجالها ، وتفتح باب الأدعياء والمتطفلين على مصراعيه وتسىء الظن بقوة الاسلام ، وحيويته وانتاجه وتيئيس المسلمين من مستقبلهم » (٤٧) .

ويرى الدكتور محمد اقبال « ان القاديانية محاولة منظمة لتأسيس طائفة جديدة على اساس نبوة منافسة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم » .

---

(٤٥) محمد الغزالى ، المرجع السابق ص ٢٤٣ نقلا عن ملفوظات أحمدية « بترتيب محمد منظور الهى القاديانى » ص ٢٩٠ .
(٤٦) « ميرزا بشير الدين » مرآة الصدق ص ٢٥ .
(٤٧) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث » ص ٤٥ — ٤٦ .

ويقول « ان كل مجتمع ينفصل عن الاسلام ، وله طابع دينى يقوم على اساس نبوة جديدة ، ويعلن كفر جميع المسلمين الذين لا يصدقون بهذه النبوة المزعومة يجب ان ينظر اليها المسلمون كخطر جدى على سلامة الاسلام (٤٨) .

ومن هذه الفرقة الخارجة عن الدين ، نرى كيف تمكن الانجليز من زعزعة العقيدة الاسلامية فى الهند ، وبث الفرقة بين المسلمين ،وتشكيكهم فى عقيدتهم ، واحلال نقائص الباطل ، محل مثل الحق .

البهائيــــة

البابية او البهائية مذهب انتحله رجل يدعى مرزا على محمد ولد فى ٢٠ اكتوبر من سنة ١٨١٩ م ، كان ابوه تاجرا فى بلدة شـيراز جنوب ايران ، توفى والده وهو صغير فكفله خاله ، وقد تعلم القراءة اللائقة به الى سن الخامسة عشرة ثم اشتغل بالتجـارة وتزوج فى سن الثانيـة والعشرين .

وفى سن الخامسة والعشرين ادعى انه هو « المهدى المنتظر » ، ويرجع ذلك الى أن بلاد فارس كانت كلها تلهج بقرب ظهور المهدى . لذا سمى نفسه « بالباب » وتبعـه أناس كثيرون الى أن قامت حكومة ايران بقتله فى ٩ يولية سنة ١٨٥٠ م (٤٩) .

بعد مرور تسعة عشرة سنة من وفاة الباب ظهر رجل من اتبـاعه والمؤمنين به يدعى مرزرا حسين على ادعى : ان الباب ماكان الا مبشرا به ، وانه اى حسين على المذكور ليس نبيـا ولا مهديا فقط ، بل هو مظهر الالوهية التى تجلت وظهرت فى جميع الأنبياء والمرسلين مثل آدم وذريته وبوذا وغيره ، فهو موسى وعيسى ومحمد وسمى نفسه بهـاء الله ؛ وان

(٤٨) محمد الغزالى ، المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٤٩) عبـد العزيز نصحى « البهـائيون من اخطر المعـاول لهـدم الاسلام » ص ٩ .

مظهره سيتجلى ويظهر فى خلفائه مثل ابنه البكر عباس المسمى عبدالبهاء، وخليفة عباس وهو ابن بنته شوقى افندى (٥٠) .

وقد بذل الغرب جهدا مكثفا فى مساندة البهائيين كى يعلو صوتهم وتتسع دائرتهم ، وذلك بعد أن طردتهم حكومة ايران لما قاموا به من اعمال وحشية فى البلاد ضد مخالفيهم . فقام الغرب بمساعدتهم على ان يتخذوا من مدينة عكا بفلسطين وطنا لهم ، فبذلك زرعوهم فى داخل جسد الأمة الاسلامية ، خاصة وان البهائيين يذكرون انهم مسلمون ، وبذلك يفتنون المسلمين ، ويشككونهم فى حقيقة دينهم ومبادئه .

يذكر محمد فاضل عن فظائع البابيين مايلى (٥١) « لما استفحل امر الباب وعلقت بقلوب الناس دعوته ، وصار اتباعه يعدون بالآلاف ، وبات همهم الأكبر ان ينصروا هذا البهتان وينشروه فى سائر ارجاء الفرس بداوا تحقيق امانيهم هذه ، بأن اوقعوا الرعب والفزع فى القلوب ، فكانوا يطلعون بوسائل شتى من الحيل والدسائس على سرائر الناس وخباياهم من كان يؤمن بالطعن فى معتقداتهم ، لم يلبثوا ان يقتلوه ، وتفشى منهم التعدى والغدر حتى كانوا يتشكلون بأشكال متعددة كالسائلين ونحوهم ليتمكنوا من الفتك بمن ظنوا به او توهموا فيه ان يشير بسوء الى ديانتهم فسفكوا بذلك دماء كثيرة ، ماجنت ذنبا ولا جريرة ، الا ان آمنت بالله ، وكفرت بالطاغوت ، فهم فى هذا الدور من فظائعهم كانوا اشبه بالفداوية الذين اشتهر امرهم على عهد الفاطميين خلفاء مصر ، بل الفداوية كانوا خيرا منهم واخف وطأة .

ثم ثاروا على الحكومة وجهروا بدعوتهم على ملأ من الاشهاد ، وزادوا فجورا على فجورهم ، وامتلأوا شرورا فوق شرورهم ، فكانوا يمثلون بالناس تمثيلا فظيعا ، ويعذبونهم تعذيبا وخيما لايرحمون صغيرا لصغره ، ولا كبيرا لكبره ، ولا امراة لضعفها ، ولا جنينا فى بطنها ، فالكل سواء فى نظرهم ماداموا لايؤمنون ببابهم ، فكانوا يسلون الألسنة

---

(٥٠) المرجع السابق .
(٥١) محمد فاضل « الحراب فى صدر البهاء والباب » ص ١٨٨ .

ويسملون العيون ويسلخون الجلود ، ويكوون الجسوم ويشوهون الوجوه ، يقطعون الأيدى والأرجل من خلاف ، ويبترون اثداء المراضع ، ويشقون بطون الحوامل ويتلقفون الأجنة على اطراف اسنة الى غير ذلك من ضروب التمثيل وصنوف التعذيب » .

ودين البهائيين ينحصر فيما يأتى :

١ — ان جميع الأديان هى من الله الذى ظهر فى الأنبياء كما تظهر الشمس فى المرآة ، وان جميع كتب هؤلاء الأنبياء لم يعتروها تحريف او تبديل ، انها بشرت به « اى بالبهاء » .

٢ — ان جميع الأديان اصبحت لا تصلح لاصلاح العالم الآن فيقتضى انزال دين جديد يوافق هذا العصر ، عصر التقدم المادى العظيم ، عصر الاختراعات الجديدة ، ولذلك جاء « بهاء الله » هذا بدينه الجديد الموافق لهذا العصر الجديد (٥٢) .

٣ — ان رسوم العبادات من صوم وصلاة اصبحت لاتوافق الناس فى هذا العصر المادى ، فلتكن لهم صلاة ، وصيام آخران ، ثم غير نظام السنة ، فجعلها تسعة عشر شهرا بدلا من اثنى عشر شهرا ، وكل شهر تسعة عشر يوما وسماها باسماء اخرى مثل شهر البهاء والجلال والعظمة الى آخره ، وسمى ايام الاسبوع بأسماء اخرى ايضا مثل يوم النضال والعدال والاستجلال الى آخره (٥٣) .

ويزعم البهاء ان النقص فى الدين الاسلامى ينحصر فيما يلى :

اولا : الدين الاسلامى يأمر بالحروب والدين البهائى يبطل الحروب ، وهى دعوى كاذبة ، فان الدين الاسلامى دين السلام ، وابطال الحروب

---

(٥٢) عبد العزيز نصحى « البهائيون من اخطر المعاول لهدم الاسلام » ص ١٠ .

(٥٣) المرجع السابق .

الا فى حالات الضرورة ، قال تعـــالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » (٥٤) .

٢ — يقولون ان الدين البهائى يمتاز عن الدين الاسلامى بالدعوة الى عصبة أمم ومحكمة تحكم لمنع المشاحنات بين الدول ولمنع الحروب ، او محاربة الدولة الباغية لمقابلتها وارغامها على السلام ، فتنقطع الحروب من العالم .

فهل هذه افكار جديدة على الاسلام ؟ وقد قال الله تعـــالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهمـــا على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » (٥٥) .

٣ — يقولون ان الدين البهائى ساوى بين الرجل والمراة فى جميع الحقوق الشرعية والسياسية والميراث ، فى حين الدين الاســـلامى ناقص من هذه الوجهة .

كيف اذا يكون هـــذا الزعم البهائى ، فهـــو باطل كاذب لأن الدين الاسلامى قد ساوى بين الرجل والمراة فى جميع الحقوق المدنية والسياســية، واذا فرق فى شىء فلاختلاف طبيعة المراة عن طبيعة الرجل (٥٦) .

٤ — ان الدين البهائى يريد أن يســاوى بين الأغنيــاء والفقراء حتى لايكون غنى مفرط أو فقر مدقع .

أين اذا الجديد فى ذلك لأن الدين الاسلامى هو الذى شرع التشريع العادل الذى لايبقى معه فقر مطلقا .

٥ — أبطل الشرع البهائى تجارة الرقيق ، وأمر بعتقـــه ، ويقولون ان الدين الاسلامى أباحه .

---

(٥٤) ســـورة البقــرة آية ٢٠٨ .
(٥٥) ســـورة الحجرات آية ٩ .
(٥٦) أنظر عبد العزيز نصحى « البهائيون » ص ١٦ .

والحقيقة أن هذا كذب لأن الدين الاســـلامى هو اول من حث على ابطال الرقيق ، وخفف وطأة الاسترقاق ، ورغب الناس فى ابطاله .

٦ — قول البهائيين ان العقوبات فى الدين الاسلامى لا يمكن تطبيقها فى هذا العصر ، عصر الرحمة والانسانية ، فلا يجوز قطع يد السارق او رجم الزانى ، ولذلك فان الدين البهائى قرر عقوبات ماليـــة مثل هـــذه الذنوب (٥٧) .

٧ — يقول البهـــائيون : ان من ميزة دينهم جمع الناس على لغـــة واحدة ، وجعلهم كأبناء طبقة واحدة ، ولـــكن الحقيقة ان الدين الاسلامى سبقهم فى ذلك ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية » .

٨ — يقول البهائيون « ان العبادات فى الدين الاســـلامى شـــاقة ومرهقة ، ولا هوادة فيها أو يتيسر بخلاف الدين البهائى الذى فضل السعى وراء العيش والكسب على هذه العبادات المرهقة .

كيف والاسلام يقول « لايكلف الله نفسا الا وسعها » (٥٨) .

ومن عقائد البهائيين :

يعتقد البهائيون بالتنـــاسخ والحلول معا فيقولون ان الله حل فى البهاء ، وان روح البهاء انتقلت منه الى ابنه عبد البهاء ومنـــه الى ابن بنته شوقى فاله البهائيين يسكن الأرض ، وله أن يزيد وينسخ فى الدين البهائى مايشاء انه ولى الأمر ، وهـــذه القاعـــدة أخذوها من المسيحيين الـــكاثوليك فى اعتقادهم ان البـــابا خليفـــة المسيح وله أن يزيد وينقص فى الدين المسيحى (٥٩) .

والبابية على اختلاف فرقها ضرب واحد ونسيج غير مختلف ، اخذت أصـــولها عن الباطنيـــة الذين منهم الاســـماعيلية والقرامطه والدروز ،

---

(٥٧) المرجع السابق ص ١٨ .
(٥٨) عبد العزيز نصحى ، المرجع السابق ص ٢٣ .
(٥٩) المرجع السابق .

والنصيرية ، فهى تؤله البشر وتأمر بعبادتهم ، وتنكر البعث والنشــور والوعد والوعيد والجنة والنار والملائكة والجن ومعجزات الأنبياء وقصصهم وتؤول ذلك تأويلا تتبرأ منه اللغة والدين كقولها ان احيــاء الموتى لعيسى عليه السلام لم يكن على الصورة المفهومة من احيائه العظــام النخرة ، والرفات الباليات ، بل المراد احياؤه النفوس من موت الجهل وبعثها من قبور الغى والضلال الى حظيرة المعرفة والهدى ونور الوحى والايمان، وان عصا موسى عليه السلام لم تكن كذلك على مايعتقده النــاس من انقلابها حية تسعى ، بل هى عصى معنوية يراد بها الدين الذى بعث به موسى ليظهره على الدين كله (٦٠) .

وتقول البهائية بصلب المسيح وتسلم بالوهيته ، وتقرر انه البهــاء وان القيامة قد قامت بظهوره ، وظهور الباب وتحكم بنبوة بوذا وكنفوشيوس وبرهمه وزرادشت .

وللبهائيين فى مصر دعاة واتباع من فرقة المرزا عبــاس ينصبون للمؤمنين حبائل الــكيد ويشككونهم فى دينهم ، ويورون عليهم الشبهات ، ويزخرفون لهم الأباطيل (٦١) .

ومن العجيب أن ينقاد المسلم لهذه الأباطيل ، ويؤمن بما لم تقم عليه بينـــة من البينات ، وقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيضاء نقية ليلها كنهارها . قال عليــه الســـلام « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لم تضلوا بعدى ، كتاب الله وسنتى » وقوله تعالى « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٦٢) .

---

(٦٠) محمد فاضل « الحراب فى صدر البهاء » ص ٢٠ .

(٦١) محمد فاضل ، المرجع السابق ص ٢١ .

(٦٢) ســورة آل عمــران آية ٢٢ .

ومن المؤكد أن الذين عملوا على نشر هذه العقائد الهدامة بين صفوف المسلمين هم الغربيون الماديون الذين حاولوا هدم الاسلام عن طريق هدم مبادئه ، فاذا نظرنا فى مبادىء البهائيين نجد انها جميعها تسقط فرائض الاسلام ، وما أكده الاسلام من حقائق .

وقد قام عبد البهاء وهو « عباس بن حسين المرزا » بزيارات لمختلف انحاء أوربا مجد فيها الاستعمار والصهيونية ، ونشر فى صحف هذه البلدان اجابات عن اسئلة كثيرة وجهت اليه ، ومجدت هذه الصحف البهائية لأنها تستهدف التقريب بين الشرق والغرب والعمل فى سبيل أن يصبح العالم أمة واحدة شعارها الحب والسلام ، فيطرب الغربيون وسواهم من عدو العرب والمسلمين ، لدعوة هذا الشرقى المسلم الكبير — كما يزعمون — ويكتبون عنه المقالات الحسان (٦٣) .

وفى خلال رحلته هذه قام بزيارة أمريكا . يقول ميرزا محمد مهدى خان (٦٤) « وقد كان سفره الى الأقطار الغربية بناء على دعوة الأحباء والقسوس والرؤساء الدينيين باصرار عظيم ، وحينما كان يخطب فيهم كان الجميع سواء من الاحباء والأغيار يستمعون لخطبته بغاية الفرح والانبساط والانشراح ويتلقون دروسه الغالية بالقبول والوله والانجذاب ولم يعترض منهم أحد بل كانوا كلهم آذانا مصغية .

ومما يستحق الذكر ان أحد الفلاسفة العظام المدعو فامبرى ، قال يوما لحضرته « انى أنا فامبرى لم يكن لى جراة على ذكر المسيح فى كنائس اليهود باحترام ، ولكن انت بهذه الشجاعة ، وهذه القوة لثبتت فى معبد اليهود ان المسيح كان كلمة الله وروح الله » .

---

(٦٣) عبد الرحمن الوكيل « البهائيــة » ص ١١٥ .

(٦٤) ميرزا محمد مهدي خان « مفتاح باب الأبواب » ص ٥ .

وبمثل هذه السياسة ، والمحبة عبر الأجانب عن محبتهم وتشجيعهم لعبد البهاء الذى كان حليفا قويا لهم ، وقد ظهر هذا واضحا اثناء الحرب العالمية الأولى : فقد كان عبد البهاء يدمر القوى المعنوية . ويبشر بقرب النجاة والخلاص — على يد الحلفاء — من طغيان الترك .

وعندما دق الجنرال اللنبى أبواب فلسطين بجيوش الحلفاء كان عبد البهاء فى منتهى الفرح والسعادة ، وعندما سقطت حيفا عبرت البهائية عن فرحتها بقولها « وكان الابتهاج عظيما عندما استولت الجنود البريطانية والهندية عليها » (٦٥) .

فمن ذلك نرى أن الغرب حاول تحطيم الاسلام بشتى الوسائل والصور بالأفكار الهدامة ، والنظريات العقائدية التى عملت على تحطيم نفوس الشباب ، وضياعهم ، دينيا وفكريا ونفسيا . ذلك فاننا لابد أن نأخذ حذرنا من كل مانقرأ وما نسمع وما نرى ، وأن نكون جنودا مسلمين مهمتنا الدفاع عن ديننا الحنيف ، ومجتمعنا الاسلامى ، وحضارتنا الاسلامية التى ستكون باذن الله شعلة مضيئة لن تنطفىء ، مادام كتاب الله هو كتابنا والاسلام ديننا .

ولابد أن أختم هذا الموضوع ببعض محاولات للاصلاح عليها تجنبنا الزلل ، وتحمينا من الأفكار التى تدعى صفة التقدمية ، والتى تدعى صفة التحرر . فنحن فى غنى عن أى فكر مستورد لأن دين الاسلام دستور مكتمل البنود والنصوص .

آراء للاصلاح :

١ — التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(٦٥) محمد الغزالى « دفاع عن العقيدة » ص ٢٤١ .

٢ — تدريب الأفراد على السلوك الدينى والتربيـــة الصحيحة التى ترفع المستوى النفسى والاجتماعى للفرد وتحوله الى صاحب مبادىء ومثل عبلا يعيش لها ويضحى من أجلها .

٣ — أن يصحب برامج التعليم برامج للتربيـــة الاســـلامية لتشرف على السلوك الفردى والجماعى ، وتجعل الحيـــاة الخاصـــة والعامة محكومة بآداب الاسلام وتوجيهاته .

٤ — تدريس الوظائف التربوية للبيت المسلم حتى نستطيع تخريج أجيال تعرف ربهـــا ودينهـــا ومعاشـــها ، ومعادها على قواعد مدروسة مغروسة فى الدم .

٥ — الربط مابين البيت المسلم وقضايا المجتمع الكبرى حتى لايحيا بيت فى جو منافعه الخاصة جاهلا او جاحدا ما وراءها ، ولو أن كل دولة مسلمة انشأت وزارة للاسرة والشباب لضمنت هذا الارتباط .

٦ — ابطال العادات التى اخذ بها المسلمون فى تقاليد الزواج من مغالاة فى المهور واسراف فى الحفلات العامة وتكديس للأثاث وتنافس فى الكماليات ، واعادة الزواج الى معنـــاه السهل القديم ليكون عصمة وسياجا للدين والدنيا .

٧ — توثيق الصلة بين المراة وينابيع الثقافة الدينية والمدنية .

٨ — اعادة الحياة للعلاقة بين النساء وبيوت الله فى الصلوات .

هذه بعض محاولات الاصـــلاح التى لا تتأتى الا بعـــد خلق مجتمع اسلامى بمعنى الكلمة لأن الكتب والخطب وافلام الدعاية والبعثات التبشيرية الاسلامية ، لن تفلح فى الدعاية للاســـلام بدون وجود مجتمع يعيش على نهج الاسلام وتتمثل فيه خصائص هذا المنهج ، وتتمثل فيه صورة الحياة فى الاسلام .

ان كيفية قيام المجتمع الاسلامى لايتأتى الا اذا ارتفعنا بتصوراتنا ، وافكارنا وأخلاقنا وسلوكنا وواقعنا الحضارى الى مستوى الاسلام ، كما يجب أن تبدأ الشعوب الاسلامية نهضة صحيحة تكون امتدادا لتاريخها وابرازا لشخصيتها ، ولا يعنى هذا عدم الاستفادة من تجارب الاخرين ومعارفهم ، كلا ، فالاستفادة والاتصال والتجارب العملية مطلوبة فننتفع بثرات التقدم الصناعى ، وننتفع من خبرات غيرنا فى آفاق الحياة العامة، وفى اطار صلب من شرائعنا وشعائرنا .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق .

د. عفاف صبرة

قائمة المصادر والمراجع

١ ــ **ابراهيم خليل احمد** « المستشرقون والمبشرون فى العالم الاسلامى »
القاهرة سنة ١٩٦٤ .

٢ ــ **ابراهيم عبد المجيد اللبان** « المستشرقون والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٧٠ .

٣ ــ **ابن الأثير « على احمد بن ابى الكرم »** ت ٦٣٠ هـ.
« الكامل فى التاريخ »
بيروت سنة ١٩٦٧ م.

٤ ــ **ابن حزم « أبو محمد على بن احمد »** ت سنة ٤٥٦ هـ.
« جمهرة أنساب العرب » تحقيق ليفى بروفنسال
القاهرة سنة ١٩٤٨ م.

٥ ــ **ابن عبد البر « الحافظ يوسف بن عبد البر »** ت سنة ٤٦٣ هـ.
« الدرر فى اختصار المغازى والسير » تحقيق شوقى ضيف
القاهرة سنة ١٩٦٦ م.

٦ ــ **ابن القيم الجوزيه « أبو عبد الله محمد بن أبى بكر »** سنة ٧٥١هـ.
« الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م.

٧ ــ **ابن كثير الدمشقى « عماد الدين أبو الفداء »** ت ٧٧٤ هـ.
« البداية والنهاية »
بيروت سنة ١٩٧٧ م.

٨ ــ **ابن ماجه** « السنن » تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى
القاهرة سنة ١٩٥٢ م.

٩ ــ **ابن هشام « أبى محمد عبد الملك بن هشام »** ت سنة ٢١٣ هـ.
« السيرة النبوية » تحقيق فهمى السرجانى
القاهرة سنة ١٩٧٨ م.

١٠ ــ **أبو داود السجستانى** « سنن أبى داود » تحقيق محمد محيى الدين
القاهرة سنة ١٩٣٥ م.

١١ ــ **أبو يوسف « القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم »** ت سنة ١٨٢ هـ. « كتاب الخراج » تحقيق محمد الخطيب
القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ.

١٢ ــ **أحمد زكى** « الرق فى الاسلام »
القاهرة سنة ١٨٩٢ م .

١٣ ــ **أحمد شلبى** « مقارنة الأديان »
القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

١٤ — **أحمد غلوش** « الخمر والحياة »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

١٥ — **أحمد فائق رشد** « الكواكب الدريه فى تاريخ ظهور البابيه والبهائية » تأليف العلامة ميرزا عبد المحسن آواره
القاهرة سنة ١٩٢٤ م .

١٦ — **أرنست رينان** « دين الاسلام والعلم » تعريب على يوسف
القاهرة د.ت

١٧ — **البابى الحلبى** « الاسلام » مجموعة اساتذة د.ت .

١٨ — **البخارى ((محمد بن اسماعيل البخارى))** ت ٢٥٦ هـ.
« صحيح البخارى بشرح الكرمانى »
القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

١٩ — **البيهقى ((أبى بكر أحمد بن الحسين))** **« السنن الكبرى »**
حيدر آباد سنة ١٣٤٤ هـ.

٢٠ — **أوليرى** « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ » ترجمة تمام حسان وآخرون القاهرة د.ت .

٢١ — **توفيق سبع** « قيم حضارية فى القرآن الكريم »
القاهرة سنة ١٩٧٢ م

٢٢ — **توماس ارنولد** « الدعوة الى الاسلام » تعريب حسن ابراهيم حسن القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٢٣ — **جمال الدين الفندى** « قصة الكون »
القاهرة ١٩٥٦ م .

٢٤ — **جوستاف لوبون** « حضارة العرب » ترجمة عادل زعيتر
القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

٢٥ — حسين الداغستانى « كتاب كشف الظلمه عن معتقدات البابيه »
القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

٢٦ — **حسين الهراوى** « المستشرقون والاسلام » .
القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

٢٧ — **رضوان شافعى** « التوفيق العلمى بين الحضارة والاسلام »
— القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

٢٨ — **زكريا هاشم** « المستشرقون والاسلام » المجلس الأعلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٦٥ م .

٢٩ — **سارتون جو رج** « مقدمه لعلم التاريخ » .
مترجم .

٣٠ — **سارتون جورج** « العلم القديم والمدنية الحديثة » ترجمة عبدالحميد صبره القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

٣١ — **سيد احمد** « الاقتصاد فى ضوء الاسلام » القاهرة سنة ١٩٥١م

٣٢ — **سيد قطب** « الاسلام ومشكلات الحضارة » القاهرة د.ت

٣٣ — **سيد قطب** « فى ظلال القرآن » القاهرة ١٩٧٨ م .

٣٤ — **الشاطبى أبى القاسم ابراهيم بن موسى اللخمى ت** ٧٩٠ هـ « الموافقات » جـ ٢ — القاهرة د.ت

٣٥ — **صلاح الدين المنجد** « المجتمع الاسلامى » بيروت سنة١٩٦٩م .

٣٦ — **صلاح الدين المنجد** « المنتقى من دراسات المستشرقين » القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

٣٧ — **الطبرانى** « الأوسط »

٣٨ — **الطبرى ((أبو جعفر محمد بن جرير))** ت سنة ٣١٠ هـ. « تاريخ الأمم والملوك » القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

٣٩ — **عائشة عبد الرحمن** « المراة المسلمة بين أمس واليوم » سلسلة الاسلام « نشر البابى الحلبى » د.ت

٤٠ — **عباس العقاد** « عقائد المفكرين » القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

٤١ — **عباس العقاد** « مايقال عن الاسلام » القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

٤٢ — **عباس العقاد** « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

٤٣ — **عبدالجليل شلبى** « الاسلام والمستشرقون » القاهرة سنة١٩٧٧م

٤٤ — **عبد الرحمن الوكيل** « البهائية » القاهرة سنة ١٩٣١ م .

٤٥ — **عبدالرزاق نوفل** « الاسلام والعلم الحديث » القاهرة سنة١٩٥٨م

٤٦ — **عبد العزيز اسماعيل** « الاسلام والطب الحديث » القاهرة سنة ١٩٤٥ م .

٤٧ — **عبد العزيز نصحى** « البهائيون من اخطر المعاول لهدم الأسلام » القاهرة د.ت

٤٨ — **عبد الفتاح الديدى** « فلسفة هيجل » القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٤٩ — **عبد الكريم الخطيب** « الاسلام فى مواجهة الماديين والملحدين »
— القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
٥٠ — **عبد الوهاب عزام** « الاسلام والعلم » — سلسلة الاسلام ، نشر البابى الحلبى . د.ت
٥١ — **عفيف طباره** « روح الدين الاسلامى »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م.
٥٢ — **على عبد الواحد وافى** « نظام الأسرة فى الاسلام » سلسلةالاسلام نشر البابى الحلبى د.ت
٥٣ — **على عبد الواحد وافى** « حقوق الانسان فى الاسلام »
القاهرة د.ت
٥٤ — **على عوض** « الاقتصاد فى ضوء الاسلام »
القاهرة سنة١٩٥١م
٥٥ — **عيسى عبده** « وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى » محاضرات الموسم الثقافى جامعة الأزهر ١٩٦٠ م .
٥٦ — **فؤاد شبل** « الدستور السوفيتى » .
القاهرة سنة ١٩٦٠ م.
٥٧ — **فيليب حتى** « تاريخ العرب » .
مترجم — القاهرة سنة ١٩٤٨ م.
٥٨ — **لين بول** « العرب فى اسبانيا » .
ترجمة على الجارم القاهرة سنة ١٩٤٤ م.
٥٩ — **الماوردى** « أبو الحسن على بن محمد » ت سنة ٤٥٠ هـ.
« الأحكام السلطانية » القاهرة سنة ١٩٧٨ م.
٦٠ — **مجمع البحوث الاسلامية** « البابية أو البهائية » — الأزهر سنة ١٣٨٩ هـ .
٦١ — **محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الأزهر** سنة ١٩٦٠ م.
٦٢ — **محمد أبو زهره** « الاسلام عقيدة وشريعة » سلسلة الاسلام . نشر البابى الحلبى د.ت .
٦٣ — **محمد أحمد باشميل** « الاسلام ونظرية دارون »
بيروت سنة ١٩٦٨ م.
٦٤ — **محمد البهى** « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م.
٦٥ — **محمد البهى** « تهافت الفكر المادى التاريخى »
القاهرة سنة١٩٧٥م
٦٦ — **محمد البهى** « الاسلام فى الواقع الايدولوجى المعاصر » .
القاهرة سنة ١٩٧٥ م.

٦٧ — **محمد الدسوقى** « الاسلام والمستشرقون » .
القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

٦٨ — **محمد المدنى** « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء »
القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

٦٩ — **محمد معروف الدواليبى** « الاسلام أمام الرأسمالية والماركسية »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

٧٠ — **محمد عبد الله العربى** « الاقتصاد الاسلامى » — سلسلة محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦١ م .

٧١ — **محمد على « مولانا »** « الاسلام والنظام الجديد »
بيروت سنة ١٩٤٦ م .

٧٢ — **محمد الغزالى** « الاسلام والأوضاع الاقتصادية »
القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

٧١ — **محمد الغزالى** « الاسلام المفترى عليه أمام الرأسمالية والاشتراكية »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

٧٤ — **محمد الغزالى** « تذائف الحق »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

٧٥ — **محمد الغزالى** « دفاع عن العقيدة والشريعة »
القاهرة سنة ١٩٦١ م .

٧٦ — **محمد غلاب** « الاسلام من خلال مبادئه التأسيسية »
القاهرة سنة ١٩٦١ م .

٧٧ — **محمد غلاب** « نظرات استشراقية » .
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

٧٨ — **محمد فاضل** « الحراب فى صدر الباب والبهاء »
القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ .

٧٩ — **محمد فريد وجدى** « دائرة معارف القرن العشرين » :

٨٠ — **محمد فؤاد عبد الباقى** « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم »
القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

٨١ — **محمد قطب** « الانسان بين المادية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٧٨ م

٨٢ — **محمد لبيب البوهى** « الوجودية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م

٨٣ — **محمود دياب** « الطب والأطباء »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٨٤ — محمود شلتوت « الاسلام عقيدةوشريعة »
القاهرة سنة١٩٧٧م
٨٥ — محمود النواوى ، خفاجى « بين الشيوعية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
٨٦ — محيى الدين الالوائى « الاسلام وتطورات العالم » — القاهرة
سنة ١٩٥١ م .
٨٧ — مصطفى خالدىوآخر « التبشيروالاستعمار »
بيروت سنة ١٩٧٠م
٨٨ — مصطفى السباعى « من روائعحضارتنا »
القاهرة سنة ١٩٥٨م
٨٩ — مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٢م
٩٠ — مصطفى لبيب « الكيمياء عند العرب »
القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
٩١ — منير البعلبكى « دفاع عن الاسلام » .
تأليف فانجليرى لورانيشيا
بيروت سنة ١٩٦٨ م.
٩٢ — مودودى ((أبو الأعلى)) « الاسلام فى مواجهة التحديات »
الكويت سنة ١٩٧١ م .
٩٣ — موريس كرانستون « المصطلحات السياسية » .
مترجم.
٩٤ — ميرزا بشير الدين « مرآة الصدق » .
القاهرة د.ت
٩٥ — ميرزا محمد مهدى خان « مفتاح باب الابواب »
القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .
٩٦ — نجيب العقيقى « المستشرقون »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
٩٧ — نديم الجسر « قصة الايمان » — القاهرة د. ت
٩٨ — يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة »
بيروت سنة ١٩٧١ م.
٩٩ — يوسف القرضاوى ، وآخرون « الاسلام بين شبهات الضالين »
الأزهر سنة ١٩٦٠ م.

المراجع الأجنبية

1) — A. Carlel

The Herows and Hevows Warship.

London 1939.

2) — A. Guillume.

The Legacy oj Israel.

London 1953

3) — Finlay.

History ol the Byzantine empire.

Oxford. 1877.

4) — Garriss on.

The marh af faith.

N.Y. 1967.

5) — Holm yard.

Chemistry to the time of Dalton.

London 1919.

6) — iles Lictenstadter.

Islam modenn age.

London 1963.

7) — Jessup H.H

FiFty three years in syria. 2. Uols

London 1910.

8) — M. Hart.

The loo A Ran king of the most mfluntial persons in history.

London 1978

9) — Moore.

A History ol chemistry.

London. 1929.

10)— Roland. Olliver.

A short history of Africa

London 1958.

11)— Runciman.

A history of the crusades.

London 1957.

فهرس الموضوعات